روايـــــة

مآتـــم

غلام حسين ساعدي

تــرجمة : عمر عدس

٨٩١,٥٥
غ ل م ا
غلام حسين ساعدي، ١٩٣٥ - ١٩٨٥م
مأتم: رواية / غلام حسن ساعدي؛ ترجمة عمر عدس.- ط ١.- ابوظبي: المجمع الثقافي، ١٩٩٩م.
٢٥٥ص؛ ٢٤سم.
١- القصص الفارسية- العصر الحديث.
أ- عمر عدس، مترجم.
ب- العنوان.

المجمع الثقافي - ١٩٩٩م
أبوظبي-الإمارات العربية المتحدة-ص.ب ٢٣٨٠-هاتف: ٢١٥٣٠٠
Email:nlibrary@ns1.cultural.org.ae
http:/www.cultural.org.ae

مـــآتم

غلام حسين ساعدي

(١٩٣٥ – ١٩٨٥م)

ولد في آذربايجان. ودرس الطب في جامعة طهران، ولكنه اختار طريق الأدب. بدأ بنشر كتاباته الأولى في سنة ١٩٥٣م. وفي الستينيات كانت قد ذاعت شهرته كاتباً مسرحياً يكتب باسمه المستعار (جوهر مراد). وفي مجموعته القصصية (سهرة فاخرة) ١٩٦٠م صور حياة العمال، وكشف ما يعتريها من رتابة، وما يلاقيه العمال من الأذى النفسي والاجتماعي.

والأجواء المخيفة التي تضفي على واقعية ساعدي طابعاً رمزياً، تتجلى بقوة في مجموعة قصصه المترابطة معاً (مآتم). وانتظار "نزول البلاء" يشكل الحدث في هذه القصص. وفي مجموعته (دنديل) ١٩٦٦م، يعرض العلاقة الاقتصادية – السياسية في المجتمع من خلال وصف أحد بيوت الدعارة. وفي (مخاوف لا أساس لها) ١٩٦٧م يصف عالم الفقر الذي يثير الشجن، وجنون وموت الفلاحين الذين يقتلعون من أرضهم، ،المثقفين الحائرين الذين يفتقرون إلى الهدف، والمشردين الذين يعيشون على هامش المجتمع، وهو يفعل كل ذلك بقدرة لا جدال فيها. إن أصالة ساعدي تكمن في خلق الأجواء المثيرة التي تمنح آثاره قوة مؤثرة.

وفي مجموعة: (الذعر) ١٩٦٨م يصف حياة سكان بنادر جنوب

إيران الفقراء والغارقين في الخرافات والأوهام. وفي رواية: (المدفع) ١٩٦٩م يصف الأوضـاع في ريف أذربيـجـان في سنوات الثـورة الدستورية. وفي مجموعته القصصية: (المهد واللحد) ١٩٧٧م يجسد (ساعدي) أدق تفاصيل الفضائح الخفية لحياة المدينة المعاصرة. وتشمل آثار هذا الكاتب المبدع – التي تربو على ثلاثين كتاباً – مدى عريضاً من ضروب الكتابة: من القصة والرواية والمسرحية والكتابات الاجتماعية والاقتصادية، وترجمة كتب الطب النفسي.

ويشكل عام، تدور آثار (غلام حسين ساعدي) حول الفقر شرح أسبابه. الفقر الخارجي والفقر الداخلي. وتجري أحداث قصصه في ثلاثة ميادين رئيسة: الأول: بنادر جنوب إيران، ذلك الإقليم الجاف الفقير بأمراضه المحلية وخرافاته. والثاني ريف آذربيجان، ووحداته الاقتصادية الصغيرة المريضة، وأذهان أهله المسكونة بالأوهام والعلل. والثالث: المدينة الكبيرة بمفكريها ومثقفيها، بمستشفياتها وعمالها وعاطليها عن العمل. والصبغة الغالبة على هذه الميادين الثلاثة هي الفقر والجنون والجهل بين طبقات أفرادها المختلفة. إن واقعية (ساعدي) مجبولة بطعم الوهم والخوف. والبساطة التقريرية الأصيلة هي الصفة المميزة لنثره.

القصة الأولى

- ١ -

عندما خرج المختار من بيته، شرع الكلب باباخ بالنباح من على سور الحديقة، ثم وثب هابطاً إلى الزقاق.

رفعت الكلاب الأخرى التي كانت نائمة على أسطحة بيوت بَيَل الواطئة رؤوسها وهمهمت، وأبصرت المختار ماشياً بقامته الفارعة تحت ضوء القمر. عادت الكلاب فأسندت رؤوسها الى أقدامها ، واستأنفت النوم.

توقف المختار ، وأصاخ السمع: كان ثمة صوت أجراس يبلغ السمع آتيا من خارج القرية. كانت جميع النوافذ مظلمة، وأهل بَيَل يغطون في النوم، ،المستيقظون منهم جالسون في العتمة يرنون الى القمر.

جاء باباخ فوقف الى جانب المختار وأخذ يتشمّم. كان المختار واقفا يستمع حتى ابتعد صوت الأجراس فمضى نحو بركة الماء وباباخ في أثره. وعندما بلغا ضفّة البركة انفتحت نافذة صغيرة وبرز منها رأس رجل.

تحرّك الرأس في الظلام وقال:«يا مختار،الوقت منتصف الليل، فأين تريد أن تذهب» ؟.

وقف المختار، ووقف باباخ. نظر كلاهما إلى الرأس.

قال المختار:«إن حالة أم رمضان منهارة، سوف آخذها إلى المدينة».

انفتحت نافذة أخرى. وبرز للخارج رأس رجل آخر وقال: «لقد كانت عند العصر في حالة طيّبة، أليس كذلك» ؟.

قال المختار :«عند العصر كانت بخير، ولكنها لم تعد كذلك الآن ..

الآن لم تعد حالتها طيّبة ... حقاً، إذا ماتت العجوز فماذا أفعل؟ ها؟ ماذا أفعل يا إسلام؟ ماذا أفعل بالصبّي؟».

قال إسلام: «كيف حالها الآن؟».

قال المختار: « حالها متدهورة، ،قد نامت متوجّهة نحو القبلة».

انحنى الرجل الأول وقال لإسلام:«انه يريد أخذها إلى المدينة». ثم التفت نحو المختار وقال مستأنفا: «أليس من الأفضل أن تصبر إلى الصبح؟».

قال المختار: «أخشى ألاّ تعيش إلى الصبح. إن أكثر تفكيري في رمضان. فقد قُضي أمر العجوز . أخشى على الولد أن يلحق بنفسه أذى من حرقة المصاب. ماذا أفعل له؟ ها؟ لقد لازم أمّه وراح يندب، يندب ، ويولول».

سأل اسلام: «كيف ستأخذها إلى المدينة؟» قال المختار: « آخذها بعربتك حتى حافة الشارع الرئيسي، ثم أعثر على سيارة».

حين رأى باباخ أن المختار منهمك في الحديث. أقعى عند حافة البركة، ثم وسّد خطمه فوق قدميه الأماميتين وأغمض عينيه. استدار المختار فجأة ونظر خلفه. رفع باباخ كذلك رأسه وأخذ يحملق في الظلام.

قال إسلام: «ماذا حدث؟».

قال المختار: «أتسمع؟ صوت جرس قادم. أليس قادماً؟».

أصغى إسلام ، والرّجل الأول ولكنهما لم يسمعا صوت الجرس.

قال إسلام: «يا مختار، أنا أيضا سوف آتي معك، وسأحضر العربة».

أدخل رأسه، أضاء الفانوس، واعتمر طاقيّته ثم خرج من النافذة. أغلق الرجل الأول نافذته. جاءت زوجته وشخصان فوقفوا وراء النافذة، وأخذوا ينظرون إلى أرجل المختار وإسلام وباباخ التي ألقى الفانوس بضوئه عليها.

قال إسلام: «كيف ستدير أمورك؟».

قال المختار «إني أفوّضها إليك، فكل أفكاري منصبّة على رمضان. أخشى أن تموت أمّه، فيلحق – الصبّي – بنفسه أذى».

عندما بلغا الطرف القصيّ للبركة سقط ضوء الفانوس فوق صفحة الماء، جاءت الأسماك نحو حافة البركة وأخذت تنظر إلى الرجلين.

انحنى باباخ كي يرى السّمك، ولكن حين وقعت عيناه على القمر تراجع خائفا وعدا في أثر الرجليْن.

قال المختار: «رمضان أيضا سآخذه معي، فإذا لم آخذه ...».

ضجّ صوت أقدامهما في الزقاق. فكّر أهل بَيَل حين رأوا الفانوس أن أم رمضان قد قضت نحبها، فاندفعوا يخرجون من النوافذ. وكبار السن الذين لم يستطيعوا الخروج من البيوت أخرجوا رؤوسهم من فتحات السطوح.

أحضروا العربة إلى الزقاق بعد أن تمّ تجهيزها.

وقف الجميع صامتين. أحضر إسلام والحاج*جبار وعباس وموسرخه** أمّ رمضان التي كانت ملفوفة داخل لحاف، ووضعوها داخل العربة.

---

* انّ من يشار اليه بلقب الحاج او الحاجة في الكتاب كله ، ليس حاجا بالمعنى الدقيق للكلمة ، وانما هو زائر لمدينة مشهد وعتبات المقدسة ، يطلق عليه بالفارسية لقب (مشهدي) الذي يخفف احيانا فيصبح وقد رأينا ترجمة الكلمة على هذا النحو لأنها تكاد تحمل عند اهلها من التبجيل ما تحمله عندنا كلمة حاج .

** معنى الاسم : ذو الشعر الأحمر .

(مشدي) بدا رمضان وهو يقفل أزرار سترته فرحا طروبا. جاء راكضاً، صعد على العربة وجلس إلى جوار أمّه.

اقتربت ننه خانوم و ننه فاطمة من حافة العربة ومعهما ماء البَركَة . فتحت ننه خانوم فم أمّ رمضان وصبّت ننه فاطمة ملعقة من ماء البركة في حلق العجوز، كما قرأ السّيد ذو العمامة الضخمة – والذي كان واقفا في الجهة الأخرى للعربة – أحد الادعية في استعجال شديد.

جلس إسلام والمختار في موضع الحوذي. وعمّرا غليونيْهما. شيّع أهل بَيَل العربة حتى ضفة البركة. استدار رمضان ونظر إليهم. كان البَيَلَيّون يتمتمون بالادعية صامتين.

حين خرجت العربة من القرية كانت الطريق الرئيسية واضحة تحت ضوء القمر. عدا باباخ في أثرهم قرابة مئة قدم، ثم رجع فجأة واختبأ تحت الأشجار دون أن يرفع عينيه عن العربة كان صوت أجراس يُسمع من بعيد. التفت رمضان ينظر خلفه. كانت بيل قد رفعت أصابعها عالياً وراحت تدعو لهم.

– ٢ –

كان إسلام والمختار جالسين وقد أطلقا عنان الحصان يمشي على هواه، ورمضان قد استلقى إلى جانب أمّه واضعا يده تحت رأسها، وبعد كل بضع دقائق ينحني عليها، فيهزّها ويقول: «أمّي،أمّي .. أأنت الآن في حال أفضل؟».

وتقول أمّه التي كان يعصف في صدرها ألم مبهم ممضّ: «اني الآن

أحسن»، ويفرح رمضان.

كان المختار يسير هادئا قانعا وهو يظن أن الليل قد انقضى معظمه.

علا فجأة صوت أمّ رمضان تقول: «خذ برأسي وارفعْه، خذ برأسي وارفعْه!».

رفع رمضان رأس أمّه قليلا. نظرت أم رمضان إلى الصحراء والظلام بعينيها المفتوحتين.

قال رمضان: «ماذا تريدين؟ أمّي، أمّي، حبيبتي ماذا تريدين؟».

قالت أمّ رمضان: «أريد أن أعرف ما هذا».

قال رمضان: «أيّ شيء؟».

التفت اسلام والمختار ونظرا.

قالت أم رمضان: «هذا الصوت المقبل».

أوقفوا العربة. سمعوا صوت أجراس يأتي من بعيد. لكز المختار جنب إسلام بكوعه وسأل: «أتسمع؟» قال إسلام: «الصوت؟ لقد جاء الغَجَر وهم يعبرون من وراء الجبل، إن خلاخيل أرجلهم تصدر هذه الاصوات» .

قال المختار: «كلاّ، ليسوا غجرا، فالوقت مبكر كثيرا على ظهورهم».

قال إسلام: «آها، إنهم بوروسيون .. استمعْ، إنهم يعبرون من باطن الوادي وهم يسوقون معهم الخراف التي سرقوها».

قال المختار: «إن البوروسيّين لا يحدثون جلبة أثناء سيرهم أبداً. إنّهم يأتون كالأشباح، ومثل الأشباح يعودون».

قال رمضان: «أنا أعرف، إنّه باباخ قادماً. ها هو هناك».

وأشار بإصبعه نحو الظلام.

قالت أم رمضان بصوت متقطع: «ليس باباخ ... إنّ ... باباخ ... لا .. جرس له».

ابتعد الصوت وانقطع. رفع المختار السوط عالياً، وتابع الحصان السّير.

قطعوا مسافة أخرى. قال إسلام الذي كان يرغب في الحديث: «إنّي أسمع الكثير من هذه الأصوات. ولست وحدي افعل ذلك. ففي الليل أجلس على السّطح وأتسمّع. وعندئذ أسمع الكثير من هذه الأصوات».

طوّق رمضان عنق أمّه بذراعيه وقال: «أمّي، حبيبتي، لا تخافي! لقد سمع الحاج إسلام كثيراً من هذه الأصوات .. لم يبق إلاّ القليل. فنصل وتتحسّن حالكِ».

أنّت العجوز وقالت: «إني أموت».

انفجر رمضان باكياً واحتضن أمّه بشدّة وقال: «لن أدعك تموتين. لن أدعك يا أمّي».

استدار إسلام وقال: «لا تثيرا صخباً. سنصل الآن إلى الطريق الرئيسية ونعثر على سيارة».

ثم التفت إلى المختار وسأل:« رمضانك هذا كم عمره؟».

قال المختار: «لقد أتمّ الثانية عشرة».

قال إسلام: «ماشاء الله! أرَجُلٌ بهذا الكبر يبكي؟ على أية حال ليس الآن وقت هذا – علام تبكي؟».

قال رمضان: «أخاف أن تموت أمّي».

قال إسلام: «أمك لن تموت، فلا تخفْ، ولكنها في النهاية ستموت فماذا ستفعل عندئذ؟ لقد ماتت أمهاتنا كلنا .. أمّي، وأمّ المختار. أليس كذلك يا مختار؟ أليس الأمر كذلك يا أمّ رمضان؟».

لم يُجب أحد.

قال اسلام: «يا مختار، حين تعود من المدينة ينبغي عليك أن تزوّجه. والقرية مملوءة بالبنات. وبنت مشدي بابا سمينة قوية، حمراء وبيضاء..».

لم يتم كلامه. كان صوت الأجراس قد اقترب أكثر فأكثر.

أصغى الأربعة باهتمام. أوقف المختار العربة.

قال إسلام: «لعن الله أبا عباس الذي أحضر الأجراس وربطها في أسفل العربة».

ترجّل من العربة ونزل تحتها. تحسّس باطن العربة بيده فلم يعثر على الأجراس.

استأنفوا السّير، وقال إسلام: «لا تحملوا هماً، فحين يطلع النهار يبين مكان الأجراس».

ساروا كثيراً، وعندما طلع النهار انقطع صوت الأجراس وبان الشارع من بعيد.

– ٣ –

جلس إسلام فوق العربة المتوقفة على جانب الشارع، وانتظر حتى ظهرت سيّارة تنقل المسافرين. رفع السّوط وانطلقت العربة تسابق

الريح نحو بَيّل.

أركب المختار ورمضان الأمّ في السيارة ومدّدوها فوق سلال الأرز. كان وضع أم رمضان قد ازداد سوءا، فتلاشى سواد عينيها وتقطعت أنفاسها. خشي المختار أن تلفظ العجوز أنفاسها في السيارة. وأراد أن يبعد رمضان من جانب أمّه مهما كلّف الأمر. ولكن هذا كان ممسكاً بيديْ أمّه الضعيفتين الذابلتين بين يديه وهو لا يتزحزح من جانبها. وقد ملأ النعاس عينيه وكلّت أذناه عن السمع. لم يكن يرى أمّه ولا غبار الطريق وأتربتها، كما لم يكن يسمع صوت الأجراس الذي كان يعلو من حول السيارة.

أوقفوا السيارة عند الظهيرة بجانب منعطف الطريق في شبر من الظلّ ألقاه قَطْع في الجبل. بسطوا المائدة داخل السيارة. اقتطع رمضان لقمة خبز وملأها بهريس القمح وفتح شفتي أمّه وهو يجاهد الإعياء وسكب الهريس على أسنانها.

قال المختار: «إنها لا تقوى على الأكل، فلا تنشغلْ بها».

جاء السائق فأطلّ من زاوية الشاحنة بعينيه المنتفختيْن وسأل: «ماذا بها؟».

قال المختار: «إنها مريضة».

قال السائق: «إلى أين تأخذونها؟ إلى المستشفى؟».

قال المختار: «نعم، ماذا نفعل لها؟».

قال السائق: «إنهم في المستشفيات لا يجرون فحصاً. فلو تركتموها في القرية لأنتهت دون تعب».

تبادل رمضان والمختار النظر إلى بعضهما. ضاقت أنفاس الأم أكثر من قبل، كانت عيناها مملوءتين بالغبار والأتربة. وحول شفتيها قبضة من الذباب الأخضر.

قال المختار: «ليتنا كنّا قد أحضرنا معنا مصحفاً».

قال رمضان باكياً: «كلاّ، كلاّ، لن تموت».

قال المختار: أعرف، أعرف».

قال السائق: «أهو ابنها؟».

قال المختار وهو يلملم السفرة: «نعم، إنه ابنها، كما إنه ابني».

هزّ السائق رأسه وقال: «في هذه الأيام، قلّت حسرة الأولاد على وفاة أمهاتهم. لقد كنت مثل هذا الصبي. وقد ماتت أمّي قبل عشر سنوات، ولكنني لا أستطيع أن أنساها».

ثم التفت إلى رمضان وقال: «لا تخف، لن يحدث شيء، إنها لن تموت. سوف آخذكم إلى مستشفى جيد، وهناك سوف يفحصونها، فتنهض وتمشي». ·

نهض رمضان واعتدل جالسا، وكتم نحيبه. كانت الشمس قد مالت للمغيب لتوّها. ومن تحتهم بدا وادٍ هائل، وقد فغر فاه بصخوره السوداء. قال رمضان: «أنظر يا أبي! أتسمع؟ إنه هناك!».

سمع المختار صوت الجرس. قال السائق: «عن أي شيء تتحدث؟».

قال رمضان: «ألا تسمع؟ ألا تسمع صوت الأجراس؟».

قال السائق: «صوت الأجراس؟ إنها لا تسمع عادة في هذه النواحي أبدا. في بعض الأحيان تتجمع الجنادب في ثنايا حافة الشارع.

وذاك أيضا يكون في الليل، أما الآن فالوقت قريب من الظُّهر». حين سارت السيارة انقطع صوت الجنادب.

– ٤ –

حين دخل إسلام الى بَيَل كان الناس قد تجمعوا حول البركة، ترجّل إسلام من العربة ومضى إلى الجمع وقال: «لقد ذهبوا».

قال مشدي بابا الذي كان جالسا تحت الصفصافة : «حين تموت العجوز، فإن المختار المتبلّد لن يحدث له شيء، وسوف يعود إلى القرية، ولكن ذلك الطفل يعلم الله ماذا سيحلّ به».

قال بابا علي من بين الرجال: «يتلون عليه دعاءً فيعود إلى وضعه السليم».

قال الحاج جعفر ابن الحاج صفر: «لن يحلّ به مكروه. فقد بلغ الحلم ولم يعد صغيراً، وسرعان ما سينسى أمّه ويصرف ذهنه للتفكير في أمور أخرى».

قال إسلام: «كلاّ يا مشدي بابا. فكلّنا نعرف أن أم رمضان سوف تموت. ثم يأخذ المختار بيد ولده ويعود به إلى القرية. وسيظهر رمضان الجزع على أمّه. عندئذ سوف آتي أنا والمختار إلى بيتكم ونطلب له يد ابنتك. وبعد أن نزوّجه فلن يتحسّر على أمّه».

تهامست النساء اللواتي كنّ مجتمعاتٍ عند الطرف الآخر من البركة. أما بنت مشدي بابا التي كانت قد عادت لتوّها من زيارة النبي آغا* فقد توارت خلف الأخريات.

---

* تُكتب بالفارسية (آقا) وتُلفظ (آغا) ، وتعني (السّيد)، والتعبير هنا اسم لمزار ديني .

سأل مشدي بابا: «أقال المختار ذلك بنفسه»؟.

قال إسلام: «كلاً، بل أنا الذي قلت، وهو قد وافق. وعندما يعودون إلى القرية سآتي أنا والمختار إلى بيتك».

قال مشدي بابا : «الأمور بيد الله».

ركب إسلام العربة وانتهر الحصان، ومضى خارجاً من القرية. تجمعت النساء بعضهن حول بعض. عمّر مشدي بابا غليونه وهام في خيالاته وأحلامه. وانسلّت ابنته من جوار الجدار راكضة إلى البيت. وقفت أمام المرآة وكحلت عينيْها.

– ٥ –

فتح بواب المستوصف الباب. كان المختار جالساً على الأرض وقد ضمّ زوجته إلى صدره. أمّا رمضان الذي كان متّكئاً على باب المستوصف، فما إن انفتح الباب حتى انطلق داخلاً.

سأل البواب غاضباً: «إلى أين؟».

قال المختار: «زوجتي، أم هذا الطفل، تحتضر».

انخرط رمضان بالبكاء. كان الغُبار والتّراب يغطيانهما من قمة الرأس إلى أخمص القدم. فتح البواب الباب على اتساعه، فدخلا إلى رواق مظلم مرطوب. مددوا العجوز على مقعد طويل، وكانت عيناها قد بقيتا مفتوحتين، وهي تلفظ آخر أنفاسها.

قال البواب : «كان الأفضل أن تأخذوها إلى مكان آخر. ففي المستوصفات لا يقبلون هذا النوع من المرضى».

علا صوت بكاء رمضان.

قال المختار: «مكان آخر ... أين؟».

قال البواب: «أنت تعلم أن مستوصفنا يخلو من النقالات والسيارات وما شابه ذلك. وكل ما هنالك بضع غرف وطبيب واحد. فإذا لم تتحسّن حالُها فماذا نفعل لها؟ وكيف ننقلها إلى هناك».؟

أخذ المختار ورمضان يتوسّلان .

قال البواب: «طيّب ..».

حملوا أم رمضان واجتازوا الرواق إلى باحة واسعة، فبلغوا الرواق الثاني، ومن هناك صعدوا الدرج الذي كان عليه ملاءات وقطن وأقذار ودواء أحمر مسكوب.

كانت امرأة نحيفة ترتدي قميصاً أبيض واقفة بجانب الدرج، معها طفلان وآخر تحمله في حضنها. قالت حين أبصرتهم: «من أجل ماذا تصعدون بهذه الميّتة إلى أعلى؟»

قال المختار: «دعينا نحضرها، فما زالت فيها الروح».

بكى رمضان عالياً، وتقدمت المرأة ونظرت في عيني العجوز ثمّ قالت: «لقد انتهت».

سحبت أم رمضان نفساً عالياً، فقالت المرأة: «أحضروها إلى أعلى. إنكم دائما تحضرون المرضى حين لا يعود بوسعنا أن نفعل لهم شيئا». فتحوا الباب، فظهرت غرفة تدلّى من سقفها قنديل تضيء بداخله شمعة صغيرة. وكان هنالك أيضا مصباح باهت الضوء موضوع في كوّة في الجدار. كما كان في الغرفة ثلاثة أسرّة وضعت عند أركان الحجرة الثلاثة، وهي محمّلة بالقطن والملاءات الملوّثة.

قال البواب للممرّضة: «هل عُدتِ إلى إشعال الشمع؟».

قالت الممرضة: «أخشى أن ينفد النفط فنظلّ في العتمة». وضعوا أمّ رمضان على السرّير. عاد المختار ورمضان وجلسا عند الباب.

قال البواب: «لماذا جلست؟ قم لنذهب إلى الطبيب ونبلّغه».

قام المختار وخرج مع البواب.

نهض رمضان، فاقترب من أمّه ونظر في عينيْها، اللتيْن كانتا مشدودتيْن إلى القنديل، ثم قال في نفسه: هاهي قد أخذت تتحسّن، وهي الآن تنظر إلى المصباح».

سألت الممرضة : «منذ متى وهي مريضة؟»

قال رمضان : «لا أدري. لقد نقلناها بعربة إسلام إلى حافة الشارع، ومن هناك أحضرناها بالسيارة إلى هنا رأساً».

كان أطفال الممرّضة واقفين عند الباب، ينظرون إلى العجوز وابنها، وإلى ذراعيها اللّتين كانتا قد أخذتا تتدليان من طرفي السرير شيئا فشيئا.

-٦-

دلف المختار والبواب في الرّدهة الأولى. صعدا الدرج القائم في الزاوية الأخرى من الردهة، فبلغا دهليزاً مربعاً في أحد جدرانه نافذة مدوّرة تطلّ على باحة واسعة. قرع البواب الباب.

سأل رجلٌ وهو يسعل: «مَنْ؟ مَنْ بَعدُ؟».

قال البواب: «لقد أحضروا شخصاً مريضاً».

خرج رجل نحيل ينتعل حذاء قطنياً مهترئاً وقميصاً أبيض. والسماعة

الطبّية الكبيرة المتجعدة محشوّة في جيبه، وهو منهمك في أكل المكسّرات. حين خرج نظر إلى المختار ذاهلاً وقال: «هذا ليس مريضاً».

قال البواب: «المريضة في الأسفل. في غرفة آذر».

قطّب الطبيب حاجبيْه وقال: «لماذا نقلتموها إلى هناك؟ إنني لا أطيق أن أدخل ذلك الضريح كل دقيقة».

ثم هبط الدرج، والمختار والبواب في اثره. عبروا الرّدهة الأولى والباحة والردهة الثانية، ثم صعدوا الدّرج. تنحّتْ آذر التي كانت تقف عند الباب وهي تحمل طفلها.

واستدار الطفلان الآخران اللّذان كانا واقفين في وسط الحجرة يَمُصّان عَظْماً، وأخذا يتفرّجان. خاف رمضان ومضى نحو النافذة.

قال الطبيب للممرضة آذر: «هل عُدْتِ إلى إحضار هؤلاء الجراءِ إلى المستشفى؟ خذيهم خارجاً».

أشارت آذر، فألقى الطفلان العظام من أيديهما على الأرض وَمضيا نحو الممرّ. كما مضتْ آذر نفسها ووقفت خلف الباب، وأخذت تنظر إلى القنديل من شقّ الباب. تقدّم الطبيب، ونحّى اللّحاف عن وجه أمّ رمضان، رأى الذباب المألوف متجمهراً على وجهها. عيناها جامدتان جافّتان، نظراتهما المنطفئة، توحي بأن العجوز تقضي ساعتها الأخيرة.

قال الطبيب يخاطب المختار وابنه: «أُخْرُجا كلاكما». خرج رمضان والمختار والبواب.

قال البواب: «إنّ حالتها بالغة السّوء».

جذب المختارُ البواب جانبا وقال: «إذا ماتت العجوز قتل ابني نفسه. إنّي على يقين من ذلك، فماذا أفعل به؟».

قال البواب: «أتعتقد ذلك؟»

قال المختار: «نعم، فهو لم يتزحزح من جانب أمّه عشرة أيام بلياليها. إنّي أعلم أن العجوز قد قُضي أمرها ... أتوسّل إليك، إفعلْ أي شيء لكي لا يدرك الصّبيّ ذلك».

قال البواب: «طيّب».

كشف الطبيب عن صدر العجوز، بعد أن أخلى الغرفة من الآخرين. كان جسد العجوز الأخضر قد أخذ يبردُ.

وضع الطبيب السمّاعة على قلب المريضة. كان القلب قد كفّ عن الحركة. ولكن صوتاً مكتوماً مبهماً مازال يُسمع. استدار الطبيب غاضباً، وفتح الباب وقال للممرّضة: «كم مرّة عليّ أن أقول، لا تعطي أطفالك لُعبا بينما أكشف على مريض؟». أشارت آذر إلى الطفلين اللذْين كانا يجلسان على الدرج صامتيْن منتظريْن. استدار الطبيب مرّة أخرى ووضع السمّاعة على قلب المريضة. ابتعد صوت الجرس شيئا فشيئا .. و .. خمد في أقاصي الصحراء.

– ٧ –

كحلت بنت مشدي بابا عينيْها، وصعدت تجلس على سطح البيت. لم يكن أيّ من أهل بَيَل خارج البيوت والكلب باباخ منبطح فوق جدار بيت المختار وقد وسّد رأسه على رِجْلَيْه الأماميتيْن وغرق في النوم.

مشدي بابا متمدّد داخل الحجرة يداعب لحيته المحنّاة، ومن فتحة السقف ينظر إلى «تنّورة» بنته القرمزية.
دخل إسلام إلى القرية راكباً عربته، ومضى نحو البركة. ملأ الدّلو وأدناه من خطم الحصان. شرب الحصان الماء. خرجت عنزة إسلام السّوداء من النافذة، ومضت إلى جوار العربة، وأخذت تلعق الأعشاب المسحوقة العالقة بعجلات العربة. كان الليل قد بدأ يخيّم والجميع ينتظرون، وقد أخرجوا رؤوسهم من النوافذ وراحوا يتسمّعون.
الشارع ساكن غارق في الصّمت.
وبنت مشدي بابا جالسة عند حافة السطح منقبضة مغمومة.

- ٨ -

رمضان في غرفة البّواب، منشرحاً يأكل خبزا ولبناً.
كانت أمّه قد صمتت ولم تعد تصدر أنيناً. وقد غُطّي وجهها بملاءة.
كان البواب قد قال أنّه يتوجب إجراء عملية جراحيّة لها، كي تقوم وتمشي، ولذلك تقرّر أن تُنقل غداً صباحا إلى مستشفى آخر.
بقي ثلاثتهم في غرفة البواب، استلقى رمضان بعد أن فرغ من العشاء وغفا. أمّا البواب والمختار فقد ظلاّ ساهرين إلى منتصف الليل يتجاذبان أطراف الحديث.
وقد بَصَّر البوابُ المختار بما ينبغي عليه أن يفعله.
أطفآ المصباح واستلقيا، ظلّت الريح تهبّ في الخارج ، واغصان شجرة اللوز تخرمش زجاج النافذة إلى أن طلع النهار.
نهض البواب والمختار، وتسلّلا خارجين من الغرفة، حملا أمّ رمضان

وهبطا بها من حجرة آذر، ووضعاها على المقعد الطويل في الرّدهة.. فتحا الباب وخرجا إلى الشارع ينتظران سيّارة تنقل الميّتة إلى المقبرة، إذ استيقظ رمضان، فنهض وخرج من الغرفة.

قال البواب: «نريد أن نرسل أمّك إلى مستشفى آخر ليجروا لها العملية الجراحية».

قال رمضان: «إنّي ذاهب معها».

قال البواب: «هناك لن يسمحوا لك بالمرور».

قال رمضان: «إذا لم يسمحوا لي أعود إلى هنا»

ظهرت سيارة أجرة سوداء اللون. قام البواب بالمساومة على الأجرة، بينما حمل المختار أمّ رمضان فأدخلها في السيارة وجلس، كما جلس رمضان إلى جانبه.

تحركت السيارة، والبّواب يتبعها بنظره. وحين بلغت الشارع بزغت الشمس. التفت السائق وقال: «لماذا كوّمْتَ المريضة على هذا النحو؟ ألا تكون .. ها؟ لا سمح الله ...؟».

قال المختار : «سوف نترجّل عند الزقاق. عند زقاق حديقة البنفسج».

لم يقل السائق شيئا. بل مضى حتى أوقف السيارة في ميدان صغير خالٍ. فترجّل المختار وابنه. وامتدّ من أمامهما زقاق طويل يعجّ بالتراب والغبار، وعلى جانبه صخرة سوداء منبسطة، رُفِعَ عليها عَلَمٌ صغير مع كفّ نحاسيّة.

قال المختار لرمضان: «أنت، اجلسْ هنا، وسوف أقوم بتوصيل أمّك ثم أعود».

قال رمضان: «سوف آتي معك. أريد أن أرى أمّي».
ومدّ يده ليمسك بيد الجثّة من تحت اللحاف.
قال المختار: «لا تمسّها فلو استيقظتْ فلن يكون ذلك طيّباً. لِتبْقَ هنا.
فإنك لو جئت فلن يسمحوا لنا بالمرور .. عندئذ ماذا نفعل؟»
جلس رمضان على الصخرة. ووضع الخُرج الذي يحوي الخبز واللبن على ركبتيْه. بينما دلف المختار من الزقاق وهو يحمل أم رمضان على ظهره، وقد برزت قدماها اللّتان صارتا سوداوين من تحت اللحاف. وراحت أصابعها الطويلة والتي تباعدت عن بعضها، تخدّد تراب الزّقاق.
أخذ رمضان ينظر إلى الأخاديد التي كانت تطول كلّما توغّل أبوه في الزقاق. كانت الشمس شديدة الحرارة. وريح متعفّنة تهبّ فتحرك العلَم فوق رأس رمضان.
وفي الزقاق يطوف صوت العجلات والأجراس. تنحّى رمضان جانباً. ظهرت عربة سوداء يجرّها حصانان ضخمان، وقد تدلّت من زواياها أجراس صغيرة. دخلت العربة الميدان وتوقفت. صهل الحصانان وانطلقا يعدوان باتجاه الشارع، وتعالى رنين الأجراس.
حين خرجت العربة من الميدان، وقعت من جانب ستارتها شمعة كبيرة خضراء اللون على الأرض .. ومرّت العجلات بقربها.

— ٩ —

كان إسلام ومشدي بابا راكبين فوق العربة. كما أن بنت مشدي بابا المكحلة العينيْن كانت بداخلها، مضوا جميعاً ووقفوا عند حافة

الشارع.

قال إسلام: «لا أظنهم سيتأخرون فقد كانت العجوز في حالة غاية في السّوء. وحين أركبوها السيارة كانت متهالكة. ومهما يكن فسوف يظهرون».

قال مشدي باباب : «إن المختار رجل يعرف الله. ولن يعود قبل أن يكفّن الميتة ويدفنها».

كان الشارع خالياً تماماً. وبنت مشدي بابا ترنو نحو المدينة بعينين مترقبتين .

استدار إسلام فجأة وأخذ يحدّق بأرض الشارع، كان اثنان من الجرذان الضخمة يتقدمان بهدوء. ترجّل إسلام من العربة، فغيّر الجرذان خطّ سيرهما ومضيا نحو بَيَل على غير هدى.

تقدم إسلام نحوهما والسوط في يده. كان الجرذ الذي يسير في الأمام قابضاً بفمه على شمعة كبيرة خضراء.

نادى إسلام على مشدي بابا وهو يضحك. تقدم مشدي بابا ووقف إلى جانب إسلام. انحنى الاثنان وراحا ينظران.

قال إسلام: «ابنا الحرام، يجلبان الشمع إلى بَيَل».

قال مشدي بابا: «يجلبان شمعة، ويأكلان قنطاراً من القمح عوضاً عنها».

هجم اسلام على الجرذين. ألقى الجرذ الأول بالشمعة ولاذ بالفرار، أمّا الجرذ الثاني فقد انسحق تحت قدم إسلام.

التقط مشدي بابا الشمعة، فتأملها ثم شمّها، وقال: «ماذا أفعل

بها؟».

قال إسلام: «نأخذها فنعطيها للبنيّة، فتحفظها من أجل ليلة زفافها، جميل؟».

قال مشدي بابا: «طبعاً، جميل جداً».

عادا وأعطيا الشمعة للبنت، عمّر كل منهما غليونه ثم جلسا وراحا ينعمان بنشوة الغليون.

– ١٠ –

لم يفلح المختار رغم محاولاته في إقناع رمضان بالعودة إلى القرية، فكان هذا جالساً على الصخرة، ويقول: «إصبْر حتى تعود أمّي فنذهب عندئذ».

قال المختار: «إنّ أمّك لن تأتي الآن في هذه الفترة، بل ستأتي بعد عشرة أيام».

قال رمضان: «نمشي بعد عشرة أيام».

قال المختار: «فماذا نفعل بأعمالنا وأشغالنا في القرية؟».

قال رمضان: «إذهب أنت إذا كنت تريد، ولكنّي سوف أبقى في انتظارها».

جلس المختار، ومسح عرقه. كانت ملابس العجوز تحت إبطه، نهض فجأة وقال: «إسمعْ! إنه لا يجوز الجلوس هنا، لنذهبْ عند بواب المستشفى وننتظرها هناك».

نهضا وذهبا إلى البواب. كان البواب قد غسل المساحة التي أمام باب المستشفى بالماء وجلس على مقعد أمام الباب وهو يأكل الخسّ.

قال المختار: «أخذناها إلى المستشفى». وغمز بعينه وتابع الحديث: «فقالوا لنا سوف تخرج منه بعد عشرة أيام. ولكن رمضان لا يريد العودة إلى القرية».

قال رمضان: «إذهب أنت، أمّا أنا فسوف آتي مع أمّي».

قال البّواب: «طيّب يامختار، إذهبْ أنت، ويبقى رمضان هنا يساعدني، وبعد أسبوع أرسله فيأتي اليكم».

تناول المختار ملابس أمّ رمضان، وأعطى البواب أجرة السيارة التي سيركبها رمضان حين يعود للقرية، وأخذ منه عهداً بأن يرسل رمضان إلى بيل بعد أسبوع.

دخل البّواب ورمضان إلى غرفة البواب. فقال هذا: «أنت تبقى هنا داخل الغرفة الى جانبي إلى أن تعود أمّك».

وضع رمضان خرج الخبز واللبن تحت سرير البواب وجلس بجانب النافذة. أخفى البواب أجرة ركوب رمضان تحت الفانوس، ومضى الى فراشه ونام، خرج رمضان وجلس على المقعد أمام الباب، وشرع يأكل الخسّ.

– ١١ –

حين دخل المختار القرية، كان اسلام يغسل العربة عند البركة. قفز الكلب باباخ من على الجدار وجرى نحو المختار وهو ينوص وأخذ يتشمّمه. صعدت ابنة مشدي بابا إلى سطح البيت فرأت أنّ المختار قد جاء، وهو يتحدث الآن إلى إسلام. عادت فالتقطت بعض الآنية وعَدت بسرعة عبر الأزقة نحو البركة حيث انهمكت في غسل الآنية

وتنظيفها.

قال إسلام: «لماذا لم يأت رمضان؟».

قال المختار: «يقول إنّه لن يأتي ما لم تأتِ أمّه».

وقف إسلام ونظر إلى الأسماك ذاهلاً ثم سأل : «ومتى سيعود في النهاية؟».

قال المختار: «لقد قال البواب إنه سيرسله بعد آسبوع ... عندئذ سيأتي».

أخذت ابنة مشدي بابا تحسب: «أسبوع .. يعني بعد كم يوم؟. وغصّت عيناها بالدّموع.

قال إسلام: «ليتك قد أحضرته. أتدري أن البعض في انتظاره؟». وأشار إلى ابنة مشدي بابا.

التفت الإثنان ونظرا. نهضت ابنة مشدي بابا وتناولت الأواني وسارت.

وعندما دخلت الزقاق رأت باباخ وعنزة إسلام السّوداء واقفيْن ينظران اليها حائرين.

– ١٢ –

كان البواب ينام في الليل، وحين يأتي المرضى فيقرعون الباب، كان رمضان ينهض فيذهب ويفتح لهم ولّما كان البّواب قد وعد المختار بإرسال رمضان إلى بَيَل بعد اسبوع فقد قال لرمضان في اليوم السادس: «لقد ذهبتُ إلى المستشفى، فأخبروني انهم لن يسمحوا

لأمّك بالمغادرة قريباً .. كما أنّ والدك لم يعطني مصروفاً لها، فاذهب أنت غداً إلى القرية وأحضرْ نقوداً».

وافق رمضان وتقررّ أن يتحرّك قبل شروق الشمس.

حلّ الليل سريعاً في ذلك اليوم. فخفّ البواب ورمضان إلى داخل الحجرة، وأغلقا الباب يستعدان للنوم.

كانت الريح تهبّ، فتحمل اليهما صوت الممرضة آذر وهي تطلّ من النافذة وتقول لأطفالها: «أترون ما تفعله الريح؟».

كانت الريح تحمل القانورات والقطن الملوّث من باحة المستشفى فترفعها وتطيح بها في الخارج.

سحب البواب الذي لم يتناول العشاء، اللّحاف فوق رأسه وراح في النّوم.

جلس رمضان بجانب الجدار، وراح يرقب غصن اللوز الذي كان يخرمش زجاج النافذة.

كانت الأصوات تتداخل، ويبرز من بينها بعد كل بضع دقائق صوت الطبيب قادماً من الطابق العلوي، والطبيب يفتح الباب ويسعل في الممّر وهو يطلق الشتائم. ظل رمضان يصغي إلى تلك الأصوات إلى أن غلبه النعاس فنام.

استيقظ رمضان عند منتصف الليل. كان ثمة صوت ما. صوت مألوف. صوت جرس يصدر من جوف الريح. أصغى رمضان. اقترب الصوت أكثر فأكثر، حتى توقف عند الباب الخارجي ثم امتدّت يد

هادئة إلى مقرعة الباب، وأخذت تقرعه ببطء. نظر رمضان" كان البواب لم يستيقظ بعد. فقام رمضان وفتح الباب ومضى يدخل الردهة. فسمع صوت الطبيب يسعل وهو في فراشه.

تقدّم رمضان. كان صوت أنفاس شخص يأتي من وراء الباب. فتح رمضان الباب فرأى أمّه في ثياب أنيقة. خرج رمضان فرحاً وأمسك بيدها. ثم ابتعد كلاهما مسرعين. كانت الريح تعصف فتدفعهما إلى الأمام. وتأتي من بعيد أصوات أجراس أخرى.

قال رمضان: «إلى أين نحن ذاهبان يا أمّي؟ إلى بيل؟» قالت الأمّ: «لن نذهب إلى بَيَل. بل إلى حديقة البنفسج».

– ١٣ –

في صباح اليوم التالي كان المختار ومشدي بابا وإسلام قد استقلّوا العربة وذهبوا إلى حافة الشارع ووقفوا ينتظرون.

كما كان باباخ وعنزة إسلام السوداء قد وقفا بجوار العربة.

كان البيليون يخرجون بعد كل بضع ساعات مرّة، فيقفون بجوار البركة، وينظرون إلى الشارع ثم يعودون.

عند الغروب سأل مشدي بابا وهو يقطب حاجبيه: «أليس قادماً إذن؟ ألم تقل إنه قادم»؟.

أجاب المختار وقد بدأ يساوره القلق: «لقد قال إنّه سيرسله .. إنّه لم يأت إلى الآن».

حين حلّ الليل هبطت إبنة مشدي بابا عن سطح البيت، فتناولت

الشـمـعـة الكبـيـرة الخضـراء وخـرجت. مـضت نحـو التلّة كي تشـعل الشمعة لتهدي العائدين.

القصة الثانية

- ١ -

حين صعد المختار على الجدار، نهض الرجال عن الأرض واقفين. انحنى المختار ونظر إليهم في ضوء القمر. قفز عن الجدار ومضى نحو اسلام، فأخذه من يده، ومضيا في ظلام ظل الجدار متجهين إلى بيت إسلام. وقف المختار بجوار النافذة، بينما دخل إسلام فجمع السجادة الصغيرة وأخرجها عبر النافذة. سارا معا حتى بلغا البركة. وقفا تحت شجرة الصفصاف، تهامسا قليلاً، ثم سارا نحو الرجال. تسلّق المختار الجدار، ثم هبط عنه في الجهة الأخرى. وفعل إسلام مثله. وبعد عدة لحظات ظهرا فوق الجدار من جديد، ونظرا إلى الناس ثم قال المختار بصوت مخنوق: «الفاتحة».

عندئذ أدرك الناس حقيقة الأمر، فقرأوا الفاتحة ساهمين. ثم أخذوا يصعدون فوق الجدار واحداً واحداً حيث جلسوا هنالك في حلقة، بعد أن رأوا أن سجادة إسلام قد بُسطت فوق الميّت. وكان ثمة فانوس صغير بجانب الجثة ووعاء ماء صغير، وبضع بعوضات كبيرة مجنحة تحوم حول الفانوس.

قفز المختار وإسلام عن الجدار من جديد، ونايا على الحاج جبار وابن الحاج صفر.

قال المختار للحاج جبار: «عليكم أن تذهبوا إلى سيّد آباد».

قال ابن الحاج صفر: «الآن؟».

قال المختار: «نعم، الآن فوراً».

قال المختار: «تركبون عربة إسلام، وتذهبون إلى سيد آباد، عند الحاج الشيخ، فتقولون له أن السيد قد انتقل إلى رحمة الله، كي يأتي

للصـلاة عليـه. فتحـملونـه في العـربة وتجيئـون بـه. فـقـد أوصـى بذلك المرحوم نفسه».

تبادل الحاج جبار وابن الحاج صـفر النظرات، ثم توجّـهـا نحـو بيت إسلام.

قـال إسـلام: «عندمـا تـأخـذون حـمـائل العـربة، انتـبـهـوا كي لا تـخـرج العنزة من البيت».

قال ابن الحاج صفر: «نحن منتبهون».

وانطلقا. اقترب إسلام والمختار من البركة، ووقفا عند الحفرة التي تضم حجر غسل الموتى الأسود.

جاء مشدي بابا فوقف إلى جوارهما وسأل المختار: «أتظن أن الحاج الشيخ سوف يتمكن من المجيء؟».

قال المختار: «ولماذا لا يتمكن؟ فـهو لو علم أن السيّد قد مات فسوف يحضر حتماً».

قال مشدي بابا: «إنّ الوباء قد حلّ بسيّد آباد، وقد انهال الناس على بيت السيدة الشحادة، وفي كل يوم يخرجون ثلاثة موتى أو أربعة».

قال المختار: «من يقول ذلك؟».

قال مشدي بابا: «زوجة مير إبراهيم التي كانت قد أخذت ابنتـها إلى المدينة برفقة ابن السيدة، وعادوا فوجدوا سيّد آباد تعمّها الفوضى».

قـال إسـلام: «حـقـاً أين هـو ابن السـيـد؟ الآن وقـد مـات أبوه، أيغـيب أيضا؟».

قال المختار: «انه ملازم بيت خالته».

قال مشدي بابا: «الخالة التي كانت مع النّساء؟».

قال المختار: «عندما ذهبت الليلة البارحة، وجدته قد أقام في بيت خالته دون تكليف».

قال إسلام: «لماذا لم ينته، ألم تخبره؟».

قال المختار: «لقد أخبرته. إنك لا تعرف زوجة مير إبراهيم هذه، وكيف تقابل الناس. لقد انتصبت أمامي وقالت: إنني لا أسمح بأن تأخذوا ابن اختي وتميتوه قهرا».

قال مشدي بابا: حبذا لو أنك لم تخبره».

قال المختار: «إنني لم أخبر أحداً. لقد كنت وحدي عنده حين لفظ أنفاسه الأخيرة. لاحظت فجأة أن صدره كفّ عن الحركة. قرّبتُ الفانوس منه فوجدته قد انتهى. صعدت، وذهبت مع إسلام فأحضرنا السجادة».

قال مشدي بابا: «الآن، ماذا سنفعل إلى الصبح»؟

قال المختار: «سنظل مستيقظين جميعاً».

قال اسلام: «نعم، إنه لا ينبغي النوم، فلم يبق طويل وقت ويطلع النهار».

مشى الثلاثة وعبروا من جانب البركة. رأتهم النساء فتجمعن حول بعضهن بعضاً وأخذن ينظرن إليهم ووقف الكلب باباخ بجوارهن، وكان قد استيقظ وما تزال تبدو عليه علائم النعاس.

قال مشدي بابا: «الأفضل أن نذهب ونبحث عن السيد نصير».

قال إسلام: «أجل، لنذهب».

تقدّم المختار ومن ورائه إسلام ومشدي بابا، فبلغوا باحة بيت السيد. كان الرجال ما يزالون جالسين من حول بعضهم البعض على

الجدران، وهم ينظرون نحو فناء الدار. صعد إسلام على الجدار ونظر نحو الفناء. خيّل إليه أن صدر الميت يعلو ببطء. استدار وقفز هابطاً.

قال المختار: «ماذا هنالك؟».

قال إسلام: «لا شيء».

عبر الثلاثة الزقاق الأول ومضوا نحو بيت مير ابراهيم. كان الزقاق خالياً غارقا في الصمت، وليس ثمة من صوت سوى وقع أقدام الرجال الثلاثة.

فتح إسلام باب البيت القصير. لم يكن في الفناء أحد. انثنوا وفتحوا نافذة الحجرة التي تطل على الزقاق. نهضت قطة ضخمة كانت وراء النافذة، نفضت جسمها وخرجت.

أدخل المختار، وإسلام من بعده رأسيهما داخل الحجرة وأصغيا. كان هنالك شخص يبكي.

قال إسلام: «أيبكي؟».

قال المختار: «كيف عرفت؟».

أشعل اسلام عود ثقاب، فأضاءت الحجرة. كان هنالك شخص واقف، وقد أدخل رأسه في الكوة غير النافذة، وراح يشهق بالبكاء. دخل المختار وتبعه إسلام. بينما وقف مشدي بابا في الخارج.

وقف المختار وإسلام في الظلام.

قال مشدي بابا من الخارج: «السيد؟ السيّد نصير»؟.

سعل الشخص مرة أخرى.

قال إسلام: «أجل، جعلتُ فداء جدّك، عليك أن تعود إلى البيت، فأنت

منذ الآن سيّد القرية».

تعالى بكاء الشخص وتصاعد في الظلام.

-٢-

كان ابن الحاج صفر، والحاج جبار فوق عربة إسلام، يغذان السيّر نحو قرية سيد آباد. الطريق نصفه منحدر، الأمر الذي ساعد في زيادة سرعتهما، فالعجلات تعين الحصان وتدفعه للاستعجال. ولكن بعد قرية شور كان على الحصان ان يسحب الحمل كلّه: الراكبين وجسم العربة والعجلات.

حين خرجا من القرية قال الحاج جبار: «أسفاً على السيّد».

قال ابن الحاج صفر: «أجل، أسفا عليه».

قال الحاج جبار: «إن السيد نصير ما يزال غِراً، ولن يستطيع أن يملأ مكان السيد».

قال ابن الحاج صفر: «أجل، إنه صغير جداً».

قال الحاج جبار: «إنه لم يكن واقفا عند رأس الميّت».

قال ابن الحاج صفر: «كلاّ، لم يكن».

قال ابن الحاج صفر: «يقولون إنه لا يخرج من بيت خالته».

قال ابن الحاج صفر: «نعم، إنه ملازم لبيت مير إبراهيم لا يغادره».

قال الحاج جبار: «يقولون إنه منذ أن أخذت ابنة خالته إلى المستوصف، ظلّ حائراً مضطرباً».

قال ابن الحاج صفر: «أجل، إن أمّي قالت هذا بحرفيته».

قال الحاج جبار: «يقولون إن الصديد يخرج من ركبة الصبية كما لو ينصبّ من إبريق. كما أنها لم تعد قادرة على المشي».

قال ابن الحاج صفر: «بلى، إنها تستطيع المشي. أمّا ما يقال عن الصديد فهو صحيح. إنه يخرج بغزارة».

قال الحاج جبار: «ولكن قل لي: ألا يكون السيّد نصير قد غدا عاشقا لابنة خالته؟».

قال ابن الحاج صفر: «من أين لي أن أعرف؟! لعله قد أصبح كما تقول. ولكنّ البنية مريضة ومشرفة على الموت، أتدري؟».

قال الحاج جبار: «نعم، ولكن الأمر ممكن مع هذا. أليس كذلك؟».

قال ابن الحاج صفر: «ممكن».

قال الحاج جبار: «يا له من زمان! ان السيد نصير ما يزال صغيراً، ان رائحة حليب الرضاعة مازالت تنبعث من فمه».

قال ابن الحاج صفر: «لا تنبعث من فمه رائحة الحليب. إنه قد بلغ الخامسة عشرة وزيادة».

قال الحاج جبار: «إن البعض في الخامسة عشرة ما يزالون أطفالاً».

ثم صمت الاثنان. وظلاّ سائرين حتى بلغا حجراً مرتفعاً مربعاً يشبه المنبر ملقى على جانب الطريق، ترجل الحاج جبار عن العربة. تفحص العجلات، وبعد أن اطمأن عليها، قال: «لنتابع السير».

قال ابن الحاج صفر: «هيّا».

ركب الاثنان، وعطفا رأس الحصان يحوّلان وجهة سيره، ويحيدان به عن الطريق العام لاختصار المسافة .. ومضيا نحو الجبل الضخم.

قال الحاج جبار: «كان أفضل لو جاء معنا أحد الرجال الكبار في السنّ».

قال ابن الحاج صفر: «نعم، أفضل كثيراً».

قال الحاج جبار: «كي لا يستاء الحاج الشيخ».

قال ابن الحاج صفر: «نعم، يمكن أن يستاء».

قال الحاج جبار: «أدعو الله أن لا يكون خارج سيد آباد».

قال ابن الحاج صفر: «آمين».

قال الحاج جبار: «كان الحاج الشيخ يعلم أن السيد مريض».

قال ابن الحاج صفر: «كلاّ، لم يكن يعلم».

قال الحاج جبار: «كيف ننقل اليه الخبر؟».

كان الوقت سحراً حين اقتربا من قرية سيد آباد. كانت البيوت يتراكم بعضها فوق بعضها في سفح الجبل. وعلى بيت يقع في وسط البيوت الأخرى نصبت مئات الأعلام، ترفرف كلما هبت الريح. ظنّ الحاج جبار وابن الحاج صفر، اللذان وقفا على العربة، أن البيت ذاته يميد ويتحرك. ظهر شخص من أهل سيد آباد ضخم الرأس. ناداه الحاج جبار، فتقدم منهما.

قال الحاج جبار: «هل الحاج الشيخ في القرية»؟.

قال السيد آبادي: «نعم، إنه في القرية. ولكنه مريض يلازم الفراش».

قال الحاج جبار: «مريض؟ ماذا به؟».

قال السيد آبادي: «كثيرون هم المرضى. فقد جاء الوباء منذ أكثر من اسبوع بقليل. وقد مات حتى الآن ما يزيد عن عشرة أشخاص».

قال الحاج جبار: «لماذا؟».

قال السيد آبادي: «الله يعلم لماذا، وقد اجتمع كل المرضى من أجل الشفاء هناك».

وأشار إلى الأعلام.

قال الحاج جبار: «وهل الحاج الشيخ هناك ايضاً؟».
قال السيد آبادي: «لقد كان في بيته حتى الليلة البارحة، ولكنه ذهب إلى هناك ليلة أمس».
قال الحاج جبار: «ألم تكن حالته طيبة؟».
قال السيد آبادي: «كلاّ، ولكنّ أمراً آخر كان قد حدث له».
قال الحاج جبار: «ماذا حدث؟».
قال السيد آبادي: «لقد هرب ابنه مع بنت الحاجة أمَة علي فساءت حالته الصحية من القهر، فقام وذهب إلى هناك، لكي يبقى عندنا، ولكي يلجم ألسنة الناس».
التفت الثلاثة ونظروا إلى الأعلام.
قال الحاج جبار للسيد آبادي: ألست ذاهبا إلى القرية؟».
قال السيد آبادي: «بلى، ذاهب».
قال الحاج جبار: «إذن، اصعد».
ركب السيد آبادي العربة. ومضى ثلاثتهم في طريقهم. دخلوا زقاقاً عريضاً في منتصفه حفرة كبيرة مملوءة بالوحل، حوّطت بالحجارة. ترجلوا عن العربة ومشوا على الأحجار حتى اجتازوا إلى الطرف الآخر.
قال الحاج جبار: «نحن آتون من بيَل».
قال السيد آبادي: «أعرف ذلك. فهذه العربة هي عربة اسلام، اليست كذلك»؟.
قال الحاج جبار: «بلى. لقد جئنا في طلب الحاج الشيخ، فهل علينا أن نذهب الآن إلى هناك؟».

وأشار بيده نحو الأعلام. قال السيد آبادي: «نعم. عليكما أن تذهبا وتَرَياهُ. هناك في الداخل».

قال الحاج جبار: «هناك، أين؟».

نظر إليه السيد آبادي متعجباً وقال: «أين؟! إنه معلوم أين. بيت السيدة الشحادة».

قال الحاج جبار وابن الحاج صفر، بصوت واحد، بعد أن أدركا الأمر: «آها؟ بيت السيدة الشحادة!».

- ٣ -

عندما طلع النهار صعد المختار وإسلام على الجدار. قال إسلام: «أيها المختار، هيّا نبدأ العمل، ونسيّر الأمور إلى أن يأتي الحاج الشيخ».

قال المختار: «أجل، هيّا».

توجّه المختار ومشدي بابا واثنان من الشباب إلى بيت المختار فأخذوا مسحاة ومجرفة وسلّماً ومضوا نحو المقبرة.

وذهب إسلام وعباس واثنان آخران إلى بيت اسلام، فأخذوا مكنسة وقربة ووعاء مطلياً بالمينا وكيساً وذهبوا نحو البركة. وضع إسلام وعباس ما في أيديهما ومضيا من فورهما نحو الحفرة التي فيها حجر غسل الموتى الأسود. أمسكا بالحجر من حوافه وزحزحاه. انسلّت من تحته حيّة صغيرة وقفزت في البركة. تقدم شخصان آخران للمساعدة فسحبوا الحجر من الحفرة ووجهوه نحو القبلة. وأسندوه بوضع حجارة صغيرة تحته.

قال إسلام : «هكذا جيد».

قال عباس: «نعم، فقد ثبت الآن».

قال إسلام يحدث نفسه: «إنه يزداد ثقلاً يوماً عن يوم».

تجمعت النساء في الطرف الآخر من البركة، وأخذن ينظرن فيها.

أقبل من الزقاق فتى ذو شعر أحمر مجعد يغطي أذنيه، وهو حاسر الرأس فناول إسلام طبقاً كبيراً فيه صرّة، وقال: «هذه ملك السيّد».

قال إسلام: «أعرف».

وأخذ الطبق ووضعه تحت الشجرة، ووضع على الصرّة حجراً صغيرا كي لا يطيّرها الريح.

مضى موسرخه فَعَبَرَ من جوار البركة واختفى وراء بيت الحاج صفر. وكان هذا قد أطلع رأسه من ثقب منتصف السطح وأخذ يتفرج على البركة. مضى الفتى عبر الأزقة وأيكة الصفصاف حتى بلغ المقبرة. فرأى هنالك المختار ومشدي بابا والشابّين يحفرون قبراً إلى جوار شجيرة فرفيون* مضى فجلس على الشجيرة وأخذ يتفرج عليهم.

قال مشدي بابا وهو يلفظ التراب خارج الحفرة: «أأحفر بعد؟»

قال المختار: «أخرج أنت الآن. وسأكمل الحفر».

خرج مشدي بابا ونزل المختار إلى الحفرة، فتوارى فيها حيث كان أقصر قامةً من مشدي بابا، فلم يكن يبين سوى طرف مجرفته وهو يعلو ويهبط. ناول مشدي بابا المسحاة للمختار. انحنى المختار فجأة وأخرج وعاء صغيراً من التوتّياء. نفض التراب عنه ورفعه عالياً. تقدم الجميع منه. كان الوعاء به ماء، وعليه رسم لسمكة صغيرة حمراء. نكسه المختار وهزّه،فانهال منه تراب ناعم جعلهم يعطسون جميعاً

* فرفيون: نبتة صغيرة تخرج لبناً.

سوى مشدي بابا الذي نأى بنفسه جانباً وهو يتلو الفاتحة.

– ٤ –

لم يكن قد خصّص مكان لابنة مير إبراهيم، منذ أن أحضرتها أمها وابن خالتها إلى العيادة، فظلت في الحديقة تحت شجرة كبيرة. وكانت ممرضة عجوز طويلة القامة شعرها مجموع تحت غطاء رأس أزرق، تجلب لها حساءً عند الظهيرة، وفي الليل أرزاً لتأكله مع الفاصولياء، لقد نسيت كل الآلام والسعال، ولم يكن يشغلها سوى رغبتها في الهرب بأي شكل والعودة إلى بيَل.

في الليلة التي مات فيها السيد، كانت قد رأته في المنام وقد رُبطتْ رجله الميتة بحبل وأخذ جمع من الناس يحاولون إخراجه من البئر، وتجمعت الغربان فوق سطح بيت السّيد وهي تهزّ أجنحتها، وعربة إسلام واقفة عند مدخل الزقاق، الحاج جبار وابن الحاج صفر فيها واقفان. ابن المشهدي صفر في يده وعاء فيه سمكة صغيرة حمراء.

حين رأت ذلك في المنام استيقظت وانخرطت بالبكاء، فملأ نشيجها الحديقة كلها، ظهرت عجوز. بدأ الفجر يلوح. اقتربت العجوز راكضة وهرع بعض المرضى خارجين من الردهات وهم يسعلون.

قالت العجوز: «لماذا تبكين؟».

قالت بنت مير إبراهيم : «يؤلمني».

قالت العجوز : «ما الذي يؤلمك؟».

رفعت البنت يدها ولوحتها في الهواء. وضعتْها على بطنها أولاً، فعلى صدرها فعلى رأسها، ثم أرختها ووضعتها على ركبتها التي كانت مربوطة والقيح ينزّ من بين أربطتها.

قالت العجوز: «آها، فهمت ياطفلتي المسكينة».

طلع النهار. نسائم السحر تهبّ طرية دافئة. السعال يُسمع قادما من الردهات بين الحين والآخر. كان الناس قد عادوا إلى أماكنهم.

قالت العجوز: «لا تبكي يا بنيّتي. الآن يأتي الأطباء، فأذهب إليهم وأرى ما يمكن لي أن أفعله».

جلست هنالك حتى طلعت الشمس. فتح البواب البوابة الخارجية فاندفع الناس الذين كانوا ينتظرون خلف القضبان وهم يئنون. تصدّى لهم البواب، وأبقى الباب نصف مغلق. تشبثّ الناس بالقضبان وهم يتطلعون نحو الفناء والردهات الضيقة. حضر الأطباء. أمسكت العجوز بيد ابنة مير إبراهيم وصعدت بها الدرج، حتى بلغت طبيبا نحيفاً طويل القامة، واقفاً أمام مرآة، وقد غطى فمه بمنديل وهو يسعل.

قالت العجوز: «ماذا أفعل بها؟ قل لي ماذا أفعل بها؟ لقد مضى عليها ما يزيد عن أسبوع وهي عندنا ملقاة في الشمس، إن الله لا يرضى بذلك».

مسح الطبيب دموع عينيه وقال: «اذهبي وطوفي – الحظائر–. فإن عثرت على ركن خال فأرقديها. ولكني أعلم أنه لا مكان في – حظائر النساء –».

قالت العجوز: «إذا لم أجد ماذا أفعل بها؟».

هزّ الطبيب كتفيه وقال وهو يرتدي بلوزته البيضاء: «لا أدري إن استطعتِ ارفعي واحدة وأنيمي هذه مكانها».

قالت العجوز: «سأذهب وأرى».

قال الطبيب: «انظري، ننه فاطمة، الناس يحكون عنك بعض الأشياء، فهل هي حقيقة؟».

قالت العجوز: «ماذا يقولون؟».

قال الطبيب: «يقولون إنك في كل يوم حين تخرجين، تأخذين معك كيساً كبيراً مملوءاً بالخبز والطعام».

قالت العجوز: «نعم، تلك حقيقة».

قال الطبيب: «لماذا تفعلين ذلك؟».

قالت العجوز: «إنني أجمع فضلات الطعام التي يريدون لفظها في الخارج، وآخذها».

قال الطبيب: «فكم اتساع بطنك إذن؟».

قالت العجوز: «أنا؟ ... الله أعلم».

ثم هبطت الدرج برفقة ابنة مير إبراهيم ومشتا نحو الردهة الأولى التي كانت طويلة عديمة التهوية، غاصة بمقاعد طويلة متراصّة، ونساء مخيفات عجفاوات ينظرن إلى خارج بعيون متورّمة، دخلت الاثنتان. امرأة تسعل داخل وعاء. حين اقتربت العجوز والبنت منها نهضت لتخرج. وقفت العجوز. نظرت إلى مكان المرأة الخالي وضغطت على يد الفتاة. ثم أفلتت يد الفتاة فجأة وتقدمت لترى الوعاء في يد المرأة مملوءاً بالدم، وهذه ذاهبة لتفرغه. خرجتا من الردهة الأولى، ودخلتا الردهة الثانية التي كانت أكثر ازدحاماً، ثلاث مريضات يمسكن مريضة أخرى ويخرجنها، في الردهة الثانية لا فراغ حتى تحت الأسرّة. خرجتا.

قالت العجوز: «الآن آخذك الى مكان جيد».

وأخذتها الى ركن الحديقة، تحت شجرة كبيرة تمدّ أذرعتها خارج الحديقة، كان بجانب الشجرة حفرة، فيها خرجان من الخبز وبقايا الطعام.

قالت العجوز: «هذا المكان أفضل بكثير».

لم تقل البنت شيئا. قالت العجوز: «انتظري كي أهيئ لك مكاناً جيداً."

ذهبت ثم عادت ومعها جوالان، بسطتهما تحت الشجرة، وأرقدت الفتاة عليهما، وقالت: «صار أفضل؟».

لم تقل الفتاة شيئا. قالت العجوز: «كلما جعت تستطيعين أن تأكلي منهما».

وأشارت إلى الخرجين.

كانت الشمس تنفذ وتقع عليهما من بين الأغصان، فتجعلهما تحسّان بالحرّ الشديد.

- ٥ -

كان بيت السيدة الشحاذه مزدحماً على الدرج وفي الفناء والغرف، وحتى على رفوف الجدار كان ثمة اشخاص نائمون، ومن البيت ينبعث صوت مثل صوت خلية النحل، الجميع متلاصقون بعضهم ببعض، ينوحون ويقبّلون الرايات.

السيدة الشحاذه الضّريرة، جالسة على الكرسي في صدر البيت، تؤرجح رأسها بهدوء وتصغي إلى النواح. وكلما انقطع النواح في أحد الأركان التفتت إلى ذلك الركن على الفور فينطلق النواح من جديد.

وفي الحجرة السفلى اجتمع الرجال. في الصدر جلس الحاج الشيخ برأس ووجه وبطن منتفخة، يضاهي بحجمه عدة أشخاص، وقد مدّ رجليه الضخمتيْن والمتورمتين في وسط الغرفة، وتدلت من عنقه سبحة خشبية ضخمة، وعيناه تجوبان سقف الغرفة.

ويطوف بين الجمع سقّاء بلباس أسود وأخضر، يسقي العطاش.

وقف الحاج جبار وابن الحاج صفر خارج الغرفة. صعد السيد آبادي فشقّ طريقه بين الناس، ومن على الدرج أطلّ برأسه داخل الغرفة وهتف: «ياسيدي الحاج الشيخ!».

انقطع النواح ورفع الحاج الشيخ رأسه وحدّق بالنافذة. قال السيد آبادي مرة أخرى: «يا سيدي الحاج الشيخ، لقد جاء اثنان يبحثان عنك».

أشاح الحاج الشيخ عنه بوجهه، وأشار له بيده إشارة تفيد بأن يدعه السيد آبادي وشأنه. فهتف هذا بصوت أعلى: «جاء اثنان يبحثان عنك. جاءا من بيَل.

تقدم السيد آبادي من الحاج الشيخ، وسأل الحاج الشيخ بصوت مخنوق: «ماذا يريدان؟».

قال السيد آبادي: «لا أدري جاءا بعربة إسلام. إني لا أعرفهما. انهما شابان».

قال الحاج الشيخ: «نادِهما».

انصرف السيد آبادي وعاد بالشابين. أدخل ابن الحاج صفر والسيد آبادي رأسيهما من النافذة. وشقّ الحاج جبار طريقه بين الناس، ومضى فوقف بين رِجلي الحاج الشيخ المتورمتيْن.

نظر اليه الحاج الشيخ وقال: «ماذا؟».

قال الحاج جبار: «المختار ومشدي بابا يسلّمان عليك ويطلبان منك أن تأتي إلى بَيّل».

أجفل الحاج الشيخ وهمّ بالنهوض. انقطع النواح. مدّ الشيخ الحاج يده إلى الحاج جبار ليعينه على النهوض. كما تقدّم السقّاء. فأنهضه الاثنان. فمشى الهوينى نحو النافذة، ومن هناك نحو الفناء. أحضرتْ له عباءته وعمامته. أعانه ابن الحاج صفر والسيد آبادي والحاج جبّار والسقّاء حتى خرج من باب الفناء. اجتازوا الزقاق حتى بلغوا العربة. كان حصان إسلام قد طأطأ رأسه وهو يغالب النعاس. وقد أُسند على العربة تابوت ضخم. أخذ ابن الحاج صفر والسقّاء التابوت فأسنداه على الجدار. ثم فرشا عباءة الحاج الشيخ داخل العربة واتخذا عمامته وسادة، وساعداه ليصعد العربة ويتمدّد داخلها.

جلس الحاج جبار وابن الحاج صفر في المقدمة مكان الحوذي. التفت الحاج جبّار ونظر إلى الحاج الشيخ الذي شخص بعينيه نحو السماء، بينما تدلت رجلاه من حافة العربة مثل قربتيْن ضخمتيْن.

مضى السقاء والسيد أبادي نحو الطرف الآخر للحفرة.وقد صرّا عينيْهما وراحا ينظران اليهم . كانت الشمس قد ارتفعت،ولم يبق على «الظهر» سوى قليل من الوقت.

– ٦ –

حين فرغ المختار ومشدي بابا من عملهما في المقبرة رجعا داخل القرية. شاهدا إسلاما وعباساً جالسيْن بجانب البركة يدخّنان الغليون. كان ضوء الشمس منفرشاً على الأشجار، والسّمك يسبح

على سطح الماء وهو يعبّ الرغوة.

قال المختار: «أما من جديد؟».

قال إسلام: «كلاّ، لم يأت بعد».

قال المختار: «لقد فرغنا من أعمالنا وانتهى الأمر».

قال إسلام: «مازال هنالك الكثير من العمل، لقد سوّينا هذا المكان، أنا وعباس».

قال المختار: «لنذهب الآن ونحضر الجثة».

قال مشدي بابا: «كلاّ، الأفضل أن نذهب ونسحب السّيد نصير خارجاً. إذا جاء الحاج الشيخ ورأى ابن السّيد غير موجود فسوف تنفضح بَيَل وتفقد اعتبارها».

قال المختار: «طيّب جداً».

مشى الشباب ومضوا نحو طرف الفناء، وصعدوا الجدار وجلسوا بجوار الآخرين.

مضى المختار ومشدي بابا وإسلام نحو بيت الخالة. كانت النافذة مفتوحة والعجوز جالسة قدّامها. وكانت هنالك قطة أيضا، حين رأتهم نهضتْ فنفضتْ جسدها وابتعدت.

قال المختار: «يا خالة، أين السّيد مير نصير؟».

قالت الخالة: «ها هو هناك! واقف في الداخل».

انحنى الرجال الثلاثة فأبصروا السّيد نصير واقفا هكذا على قدميه، وقد أسند رأسه على الطاق.

قال المختار: «السّيد نصير، الآن غدا الوقت متأخراً، هيا إلى الخارج».

لم يجب السّيد نصير.

قال مشدي بابا: «يا سيّد، تعلم أنّ الناس يريدون أن يعزّوك، تعال إلى الخارج!».

قال إسلام للمختار ومشدي بابا: «لم يأت في الليل والآن ينبغي أن يخرج مهما كلّف الأمر».

قالت الخالة للمختار: «لا تتعب نفسك عبثاً، فهو ليس خارجاً، فدعه على راحته».

قال مشدي بابا: «لا أظنّه سيخرج».

عاد الرجال، سأل المختار في أثناء الطريق: «لماذا لا يخرج؟».

قال مشدي بابا: «إنّه حزين على البنية».

قال إسلام: «أعوذ بالله، مات أبوه فلم يهتزّ طرفه. ولكنه يحمل همّ البنت؟».

قال المختار: «وما الذي يدرينا أنّه يعلم بموت والده؟». عادوا مرة أخرى ومضوا إلى الخالة. كانت القطة قد عادت، فلمّا رأتهم نهضت وانصرفت.

قال المختار: «يا خالة، هل يعلم الولد أنّ أباه قد مات؟».

قالت الخالة: «لعلّه يعرف».

قال المختار: «إذن ماله؟ لماذا لا يخرج؟.»

قالت الخالة: «ليلة أول أمس رأى في المنام أن ابنة خالته ماتت في المستوصف».

قال المختار: «ماذا يمكن أن نفعل له ليخرج هذا الحلم من رأسه؟».

قالت الخالة: ينبغي أن نرجع إلى المدينة، فنعثر على البنت ونعرف

أنها لم تمتْ».

قال المختار: «متى ترجعون؟».

قالت الخالة: «اليوم دون تأخير».

قال المختار: «لا تصبرين حتى، إلى أن تنتهي مراسم دفن السّيد؟».

قالت الخالة: «افعلوا ذلك بأنفسكم، هو لا يستطيع».

قال إسلام: «ذهبت العربة لإحضار الحاج الشيخ، فبأي وسيلة تريدون أن تذهبوا؟».

قالت الخالة: «حين ذهبنا في تلك المرّة لم نذهب بعربتك، استَعَرْنا حمارين من الحاج صفر وذهبنا، لأن البنيّة لم تكن قادرة على المشي، أمّا في هذه المرّة، فسوف نذهب – كلانا ، راجليْن».

قال المختار: «بالسلامة إن شاء الله».

رجعوا ومضوا نحو الفناء. كانت الشمس قد توسطت السماء. صعد المختار ومشدي بابا على الجدار، ومضى إسلام الذي كان قلقاً فجلس تحت شجرة الصّفصاف حتّى يهدأ روعه.

نظر مشدي بابا ورأى الجثة وقد انتفخت. فكّر المختار أن الميّت قد كبر كثيراً منذ الليلة البارحة وإلى الآن.

قال مشدي بابا للشبّان: «إنّ في هذا إثماً، مضى نصف يوم وليلة والجثة ماتزال بيننا، يحسن أن نأخذها فنغسلّها وإلى أن نفرغ من هذه الأشغال فسوف يظهر الحاج الشيخ كائناً أينما كان».

قال المختار: «لنشرع في العمل. في ذلك اثم».

ونزل إلى الفناء عن السلّم. وقف وفكّر وقال بصوت عال: «كيف نرفعه إلى أعلى؟».

نظر مشدي بابا من فوق فرأى أن فناء البيت ليس له سوى باب صغير يفضي إلى الخارج. سأل المختار: «من أين كان قد دخل؟».

انحنى المختار وفتح الباب الصغير وقال : «من هنا». بان ممّر ضيّق مظلم. قال مشدي بابا: «كيف كان قد جاء؟».

قال المختار: «عندما جاء كان حياً، فتح الباب، وانحنى ودخل إلى هنا حيث كان المكان لطيفاً مريحاً. أمّا الآن فكيف نخرجه؟».

هزّ مشدي بابا رأسه. قال عباس: «الأمر هيّن، نُنزل التابوت إلى اسفل ونضع الميت عليه، ومن هذا المكان نفسه نرفعه إلى أعلى ونأخذه إلى حيث الماء».

قال المختار: «التابوت كبير، لا يدخل في الفناء، أحضروه الآن كي نرى».

أحضر عباس وموسرخه التّابوت، وأدخلاه إلى الفناء من فوق. نزل مشدي بابا كذلك عن السلّم. أمسك الاثنان مع المختار بالتابوت وجذبوه إلى أسفل. ولكن يدي التابوت كانت من الطول بحيث علقت بالجدار وحالت دون نزوله.

قال المختار: «ألم أقلْ؟».

قال عباس: «الأمر هيّن، ننشر منه قليلاً».

قال المختار: «لا فائدة، هات فكرة أخرى».

قال مشدي بابا: «كلام المختار صحيح، الأمر غير ممكن باستخدام التابوت، نذهب فنحضر بضع قطع من الخشب، نضعها تحت الميّت، ونمرّر حبلاً من تحتها ونسحبها إلى فوق».

قال المختار: «كلام مشدي بابا صحيح، هذا التدبير مريح جداً».

قال عباس: «طيّب، ما في ذلك إثم، لم نكن نعرف ذلك».
جلسوا صامتين جميعاً إلى أن عاد موسرخه وعبّاس ببضعة ألواح من الخشب وبعض الحبال.
جمع المختار ومشدي بابا اطراف السجادة. بسط الرّجال الحبال أولاً تحت الجثة ووضعوا قطع الخشب على الحبال، وناولوا أطرافها إلى أولئك الذين كانوا على الجدار.
قال المختار: «اجذبوا إلى أعلى رويداً رويداً، إنكم إن جذبتم بشدّة فسوف تقعون جميعاً من ذلك العلوّ، أتفهمون؟».
جذبوا الحبال. قال مشدي بابا: «اصبروا قليلا حتى نأتي نحن كذلك إلى فوق».
جذبوا الحبال. صعد المختار على السلّم أولا وتبعه مشدي بابا ووقفا عند زاويتيْ الجدار. جذبوا بقية الحبال. كانت الجثة تخفّ كلما ارتقت إلى أعلى، وقدماها العاريتان المتورّمتان تجمع خيوط العنكبوت على الجدار، وتترك عليه بعض الخدوش.

- ٧ -

حين غسلوا الجثة وكفنوها كان الوقت قد تجاوز الظهيرة بكثير. جلسوا متعبين حول بركة الماء ينظرون إلى الماء والسمك. كانت الجثة في التّابوت والتابوت في الظلّ. كانوا قد طوْوا سجادة إسلام ووضعوها على السلّم. لم يكن أحد يتكلم. وكانوا جميعاً غارقين في التفكير، إذ علا نباح باباخ الذي جاء راكضاً ووقف على رأس الزّقاق وهو يخدش الأرض بمخالبه، التفتوا جميعاً ونظروا. ثم ظهرت عربة إسلام والحاج جبار وابن الحاج صفر جالسان في مكان الحوذي

عليها، والحاج الشيخ الجالس على سطح العربة، يبدو ضخماً، ضخماً جداً. نهض الرجال واقفين.

قال عباس لموسرخه: «كيف صار شكله؟».

قال موسرخه: «تورّم، صار ضخماً».

قال عباس: «أجل، لقد تورّم هو نفسه، وتورمت يداه وبطنه».

قال موسرخه: «أصبح جبلاً».

قال عباس: «عمامته، عمامته أيضا تضخّمت».

مضت العربة، فوقفت قريباً من الجثة، تقدم المختار ومشدي بابا، يريدان السلام، فلم يقدرا، وقفا يتأمّلان الحاج الشيخ الذي كان قد نهض نصف نهوض وأخذ ينظر إلى التابوت خائفاً. تقدّم إسلام كذلك ووقف. نزع الحاج الشيخ عمامته عن رأسه فجأة وقذفها على الأرض بعنف وصاح. تقدّم الرجال ورأوا الدّمع قد ملأ عيني الحاج السّيد الشيخ. كان هذا أول بكاء في موت السّيد. انطلق الرجال الذين ثابوا الى رشدهم في البكاء والعويل. جاوبتهم النساء من داخل البيوت. علا النحيب في كل أرجاء بَيَل.

هربت عنزة إسلام السوداء وياباخ، وذهبا إلى ما وراء بيت الحاج صفر. شاهدا الحاج صفر وقد أطلع رأسه من ثقب سطح البيت. ورفع يديه عالياً، وركّز بصره على بركة الماء وانخرط في العويل.

– ٨ –

حين عادوا الى القرية لم يكن قد بقي على الغروب وقت طويل. كان نفر من الشبان قد أخذوا الحاج الشيخ من تحت إبطيه وأخذوا يمشّونه. وكان قد حلّ عمامته وألقاها حول عنقه، عيناه منتفختان،

وأنفاسه تتردّد بصعوبة.

عندما وصلوا إلى البركة رأوا النساء قد نصبن الأعلام في دائرة حول الميدان وجلسن بعباءاتهنّ السّوداء تحت شجرة الصّفصاف. حين أبصرت النساء الرّجال علا بكاؤهن وعويلهنّ. أمّا الرّجال فقد مضوا نحو بيت السّيد وقد سيطر عليهم الحزن والتأثر. اجتازوا الزقاق الأول، وبلغوا بداية الزقاق الثاني فبيت السّيد، كان الباب مغلقاً وقد ألقي أمامه شوال ضخم مملوء بالقش. تقدّم إسلام ونحّى «الشّوال» جانباً. أدخل يده في الثقب بجانب الباب وفتحه. دخل أولاً، وأزال الآجرّ الذي كان موضوعاً أمام النافذة. أضاء الممرّ الرطب المترب. ادخلوا الحاج الشيخ ومضوا نحو الغرفة الوحيدة في البيت التي كانت واسعة ومظلمة، وليس الاّ من فتحة منتصف السقف يدخل ضوء الغروب الخافت. مضى إسلام نحو الطاق فأشعل المصباح وأخذه فوضعه في منتصف الحجرة. كان في الحجرة سجادتان صغيرتان ومصحف وسلطانّية وبعض البصل والخبز الجافّ. كما كان ثمة بضع وسائد وألحفة مرتبة فوق بعضها. وقف الرجال في الممرّ. جلس الحاج الشيخ على الأرض، ثم مدّ رجليه بتمهّل شديد. ثم تمدّد هو ذاته. كان صدره يعلو ويهبط بسرعة، وشفتاه ترتجفان. وقف الجميع ينتظرون.

قال الحاج الشيخ: «نادوا ولده!».

قال المختار: «ذهب إلى المدينة اليوم ظهراً».

تململ الحاج الشيخ وقال: «مسكين السّيد».

لم يتكلم أحد. قال الحاج الشيخ: «إنني أختنق. خذوني إلى الفناء».

فتح مشدي بابا الباب الصغير عند أسفل الجدار. ظهر ممرّ مظلم ضيّق. دخل أولاً ثم تبعه الحاج الشيخ الذي انحنى بصعوبة ومن ورائه المختار. وقف الآخرون منتظرين داخل الحجرة.

قال إسلام لعباس: «لقد جاء الحاج الشيخ ، اذهب وأحضر بعض الحساء والبيض من بيت الحاج صفر».

خرج عباس، وخرج الآخرون ووقفوا في الزّقاق. أخذ المختار ومشدي بابا الحاج الشيخ وأدخلاه في الفناء. كان السلّم ما يزال مسنداً إلى الجدار، وسجادة السّيد ووسادة السّيد العريضتان باقيتان في مكانهما على الأرض.

تمدّد الحاج الشيخ على السّجادة. كان أضخم من السّيد. نظر مشدي بابا، كانت فتيلة المصباح قد احترقت عن آخرها. كأس الماء قد ملأها البعوض. تناولها مشدي بابا وسكب ماءها على الأرض وذهب ليحضر ماء جديداً.

قال المختار: «يا مشدي بابا، أحضر المصباح كذلك إلى هنا».

قال مشدي بابا: «سأفعل».

تناول المصباح وانحنى ودخل في الممرّ. نظر المختار إلى جسم الحاج الشيخ، المنتفخ، وقال: «يا إلهي، كم صار شبيها بالسيد!».

– ٩ –

عندما حلّ الظّلام تجمع أولئك الذين كانوا قد دخلوا حديقة المستوصف وأمام الأروقة، وخرجوا في جماعات منذ الصباح الباكر لم تكن قد ظهرت المرأة العجوز.

كانت ابنة مير إبراهيم قد وقفت بجوار القضبان وهي تتفرج على

الخارج، وعندما دخل البواب في غرفته، خرجت مع الآخرين. كان الجو في الخارج أشدّ حرارة. حين اجتازت عطفة الشارع باغتها التعب فجلست على درج أحد البيوت وغرقت في أفكارها.

حين مضت ساعة من الليل برزت المرأة العجوز من منعطف الشارع، منحنية وعلى ظهرها خرج. وقفت أمام الفتاة، وضعت الخرج على الأرض ، قدّت لها قطعة من خبز، ووضعت لها قبضة من الأرز المطبوخ دون أن تعرفها، ومضت نحو الجهة الأخرى من الشارع لتعطي شحاذا آخر نصيبه.

- ١٠ -

عندما حلّ الليل ارتدى الجميع ثياباً سوداء وجاءوا الى حافة البركة. كان ضوء القمر النقيّ ساقطاً فوق أشجار الصفصاف وعلى سطوح البيوت الواطئة. كان الضوء يغمر كل مكان.

قلّب إسلام والحاج جبار معاً الحجر وألقياه في الحفرة. انتظرا حتى جاء المختار وأشار إلى إسلام.

صعد إسلام على الحجر، تنحنح ثم انطلق في انشاد النواح بصوت عال. فتح الرجال أزرار قمصانهم وشرعوا في البكاء.

صعدت النساء على سطوح المنازل، وانطلقن في الأنين والعويل وهن يتأوّدن برؤوسهن في ضوء القمر. خرج باباخ وتبعته كل كلاب بيَل، واختبأوا في الباحة الصغيرة الواقعة وراء بيت الحاج صفر. صعدت عنزة إسلام السوداء فوق الغرفة المخزن واختبأت في تلك الليلة ظلت قرية بيَل في نوح ومأتم حتى الصباح.

- ١١ -

بلغت الخالة والسّيد مير نصير المدينة في الصباح الباكر، ونزلا في ميدان صغير مزدحم. كان الاثنان جائعين ولا يطيقان السّير. جلس السّيد مير نصير بجانب الجدار تحت ظل مظلّة قديمة مثبتّة في الجدار، عمامته ظلّت في القرية في مكانها. وقد شدّ على رأسه منديلاً أخضر.

قالت الخالة: «هل أنت جائع؟».

لم يقل السّيد نصير شيئاً، وسَعَل.

قالت الخالة: «ليس معنا أي شيء نأكله.. أتعرف؟».

سعل السّيد مير نصير مرة أخرى.

قالت الخالة: «الآن ينبغي ان نأكل شيئا كي تدبّ القوة في أرجلنا. ابْقَ هنا، وسوف أذهب استجدي لعلّنا نحصل على شيء».

شدّت الخالة عباءتها على وسطها وسارت بقامتها المحدود بة. عقدت يديها خلف رأسها، وراحت تنقل الخطو بصعوبة.

وضع السّيد مير نصير يديه على وجنتيه اللتين كانتا تتلظّيان من شدّة الحمّى، وأخذ وهو يسعل، يطالع الخالة وهي تخترق الزحام، وكان واضحاً أنها لن تعود.

- ١٢ -

حين كان الطبيب يتمشى في حديقة المستوصف، رأى السّيد نصير بملابسه المهلهلة وهو يعدو هنا وهناك ويتفحص كل مكان.

نادى المرضة وقال: «انظري هذا الولد، وتعرّفي من أين هو». تقدمت الممّرضة من السّيد مير نصير وقالت: «من أين أنت؟». لم يقل شيئاً وسعل سعلة شديدة.

قالت الممرضة للطبيب: «إنّه لا يتكلم».
سعل الطبيب وقال: «اسألي وانظري من أي (براكية) هو».
سعل السّيد مير نصير وقال: «أريد زهراء».
قالت الممرضة: «زهرا، من هي زهرا؟».
سعل السّيد مير نصير ولم يقل شيئاً. انحنت الممرضة ونظرت في عيني السّيد مير نصير وسألت متمهّلة: «من هي زهرا؟»
هز السّيد مير نصير رأسه ولم يقل شيئا.
قال الطبيب: «خذيه ونوميّه».
أخذت الممرضة السّيد مير نصير وأدخلته في قاعة مظلمة مملوءة بالبشر وأجلسته على ركن سجادة وخرجت، فرأت المرأة العجوز تمضي مستعجلة نحو ركن الحديقة. اعترضت سبيلها وقالت: «ننه فاطمة إن أحد المرضى لم يأكل شيئاً وظلّ جائعاً، هل لديك شيء نعطيه؟».
قالت العجوز: «طبعا، لديّ!».
أخذت الممرضة الى ركن الحديقة. سكبت قبضة من الأرز المطبوخ على ورقة جريدة. وقطعت قطعة من خبز وضعتها عليه، وناولتها للممرضة.

- ١٣ -

حين صعد المختار على الجدار نهض الرجال واقفين. طلعت الشمس فتلألأت بيَل. نظر المختار إليهم وقفز عن الجدار ومضى نحو إسلام. مشيا من بين الجمع وذهبا إلى بيت إسلام. وقف المختار عند النافذة. دخل إسلام. جمع السجادة وأخرجها من النافذة. اقتربا من

الجدار معاً. صعد إسلام الجدار أولا وتبعه المختار، وقفزا داخل فناء صغير. ثم صعدا بعد لحظات، الجدار من جديد. قال المختار بصوت مخنوق: «الفاتحة!».

نظر الرجال بعضهم إلى بعضهم وتمالكوا أنفسهم من البكاء وقرأوا الفاتحة.

نادى إسلام، الحاج جبار وابن الحاج صفر، وقال: «اركبا العربة واذهبا الى سيد آباد، وأخبرا السّيدة الشحاذة : بالذي حدث، ثم اذهبا إلى خاتون آباد عند السّيد مير حجّت، فقولا له ان الحاج الشيخ قد انتقل إلى رحمة الله، فليأت لكي يصلي عليه. ثم احملاه واجلباه معكما».

تبادل الحاج جبار وابن الحاج صفر النظرات ثم مضيا نحو بيت إسلام.

قال إسلام: «حاذرا أن تخرج العنزة مثل ما خرجت أمس». سعل الحاج جبار ولم يقل شيئاً.

مشى إسلام وعباس نحو الحفرة كي يخرجا حجرغسل الموتى الأسود.

ذهب المختار ومشدي بابا كذلك إلى بيت المختار. أخذا مجرفة ومسحاة واتجها نحو المقبرة، وانهمكا في العمل هناك على يسار شاهد قبر.

صعد أهل بَيَل فوق الجدران وتحلقوا حول بعضهم، وأخذوا يحدّقون بذلك الشيء المطروح في الفناء آخذا في الانتفاخ.

-

القصة الثالثة

- ١ -

عند حلول المساء، كانت ننه فاطمة جالسة على سطح بيتها، ترقب هيئة داكنة غير واضحة المعالم لشخص قادم من طرف سيد آباد. طاف في ذهنها انه لا بدّ من أن يكون قد مات شخص أخر في سيد آباد، وأنّ السيّد آباديّين قد أرسلوا من يحضر الحاج آخوند بعربة الحاجة رقية من جاميشان ليصلّي على الميت في قريتهم. ظلّت البقعة الداكنة تقترب، وكلما اقتربت زاد حجمها واتسعت. وحين بلغت تلة مزار النبي آغا لاحظت ننه فاطمة أن ريحاً سوداء عفنة تسوق في طريقها شيئاً أبيض. ركضت ننه فاطمة إلى سطح بيت الحاج صفر، أدخلت رأسها من فتحة السقف وأخذت تنادي زوجة الحاج صفر بصوت عال: «يا ننّه خانوم! يا ننه خانوم! اصعدي إلى السطح لتري ما هذا الشيء الآخر القادم نحو بَيَل».

ثم عادت إلى سطح بيتها من جديد. دلّت رجليها إلى الداخل من فتحة السقف، وامسكت بيديها بحافة الفتحة، بينما تعلقت أبصارها بالبقعة الداكنة ترقبها بفزع.

من فتحة سطح بيت الحاج صفر، برز أولا رأس ننه خانوم تبعه رأس الحاج صفر وهو يبرز خارجاً من الفتحة بهدوء شديد. أخذت ننه خانوم تتلفت حولها بعصبية ظاهرة، ولكنها لم تر شيئا في غمرة ذهولها.

قالت ننه فاطمة: «ها هو هناك، جاء من سيّد آباد، انظري إلى تلك الناحية، إلى تلة النبي آغا!».

كانت الريح تحوم حول المزار وهي تدير الشيء الأبيض مع هبوبها.

قالت ننه خانوم: «كم مضى عليه من الوقت وهو يدور هناك؟».
قالت فاطمة خانوم: «لقد ظهر توّاً».
ضيّقت ننه خانوم عينيها وتلت أحد الأدعية، ونفخت وكأنها تنثر الدعاء على القرية، ثم التفتت إلى ننه خانم وقالت: «لقد حلّت بنا مصيبة».
نظرت الاثنتان إلى هيئة الشخص وهو يختصر الطريق للوصول إلى الشارع.
قالت ننه فاطمة بصوت عال: «ننه خانوم، هل ترين الأشياء البيضاء»؟.
قالت ننه خانوم : «نعم، أراها».
قالت ننه فاطمة: «إنها تكبر وتتعاظم، فما إن تصل إلى هنا، حتى تكون قد احتوت القرية كلها».
عصفت رائحة عفونة حادة في كل مكان، ثم اجتاحت الريح القرية وهي تلقي بما تحمله من مخلّفات في الأزقة وعلى السطوح.
قالت ننه خانوم: «اهبطي يا فاطمة خانوم، فرائحة العفونة ستقتلك».
قالت فاطمة خانوم: «تعالي لنهبط ونذهب إلى حافة البركة، لنرى كيف نتدبّر هذه المصيبة».
هبطت كلتاهما عن السطوح. كانت القرية خالية، وقد غادرها رجالها ونساؤها.
تقدّمتا نحو بيت بابا علي المكون من أربعة جدران «قميئة» وباب قصير منخفض. كان أنين بابا علي وشكاياته تتصاعد من داخل البيت.

قالت ننه خانوم: «هل تشمّين رائحتها؟ ماذا نفعل؟».

قالت ننه فاطمة: «أخشى أن لا يتمكن أولئك الذين خرجوا من القرية من الاهتداء إليها».

قالت ننه خانوم: «هل ترين هذه؟».

انحنت وأشارت إلى المخلفات العفنة التي كانت الريح قد جلبتها معها ونثرتها في كل مكان. قالت ننه فاطمة: «كأن الريح قد اجتاحت إحدى المقابر في طريقها إلينا، فحملت هذه الأشياء معها».

ثم تهاوت وهي ترتجف من الخوف لتجلس على حجر غسل الموتى الأسود وتسند ظهرها إلى شجرة الصفصاف.

جلست ننه خانوم بدورها، وهي تجمع رجليها تحت عباءتها، كي لاتقلع الريح في لفّ القذارات العفنة حول ساقيها الناحلتين.

قالت ننه فاطمة : «لقد انتهى كل شيء. جاءنا القحط أولاً، ثم تلته هذه!».

تعالت أنّات بابا علي من داخل بيته القميء. أشارت ننه خانوم بيدها وقالت : «أترين؟».

قالت ننه فاطمة: «لننهضْ ونخبر الجميع».

قالت ننه خانوم: «لم يبق أحد في القرية .. ومع ذلك لا بدّ أن يأتي الحاج إسلام ويخبر الجميع!».

قالت ننه فاطمة: «إني قلقة .. أتوجّس شراً .. لقد ذهب حسني ولم يعد».

قالت ننه خانوم: «لقد ذهب ابني كذلك. إنه لا داعي للقلق. سوف يعودون جميعاً انهضي لنذهب إلى البيت، نضيء الفانوس ونصعد به

إلى السطوح، لكي يتمكن الذين ضلّوا الطريق من الاهتداء إلى بيّل».
قامتا لتنصرفا، فبرز من الظلام رجل عند حديقة الإقطاعي. كان يحمل سلّة كبيرة، ويتسلّل بحذر من جوار الجدار وقد حدّب ظهره.
أمسكت ننه فاطمة بيد ننه خانوم وقالت: «ما هذا يا أختي؟».
قالت ننه خانوم: «إني لا أعرفه».
مرّ شبح الرجّل مجتازاً ودخل إلى الزقاق الأول.
قالت ننه فاطمة: «إنه يمشي مخافتاً، أتظنين أنه يتجه إلى داري»؟
قالت ننه خانوم: «هيّا نتعقّبه!».
نهضت العجوزان ودخلتا الزقاق في أثره. اجتازتا عطفة الزقاق فأبصرتا الرجل الشبح وقد وقف أمام بيت الحاج جبار، وأخذ يسعل. انفتح الباب وظهرت الحاجة ريحان أخت الحاج جبّار وهي تحمل الفانوس. تنّحى الشبح جانباً، ورفعت الحاجة ريحان الفانوس عاليا. فسقط الضوء في الزقاق، وأنار الأقذار التي كانت لاصقة بالجدران والأبواب وهي تتأرجح.
تنحّت ننه فاطمة و ننه خانوم جانباً ووقفتا في الظلام.
سألت ننه فاطمة: «من تلك؟».
قالت ننه خانوم: «إنها الحاجة ريحان أخت الحاج جبار، التي مات زوجها ...».
تقدمتا بضعة أقدام ووقفتا. مدّ الرجل المجهول يده في السلّة التي كانت معلقة على ذراعه. أخرج طيراً مذبوحاً وهو يمسكه من رجليه ويُدنيه من الفانوس. مدّت أخت الحاج جبار يدها فتناولت الطير من رجليه ودخلت بيتها وأغلقت الباب. واصل الرجل طريقه باتجاه نهاية

الزقاق، وننه فاطمة وننه خانوم في أثره. وحين بلغ بيت ننه فاطمة توقّف ومدّ يده فأمسك بحبل قصير كان مثبتاً إلى الجدار بمسمار، وتسلّق صاعداً.

قالت ننه فاطمة : «إلى أين هو ذاهب يا ترى؟»

قالت ننه خانوم : «اصبري لأرى».

صعد الرجل إلى سطح البيت. انحنى وقذف بسلّته من فتحة السطح إلى الداخل، ثم دلّى رجليه من الفتحة ذاتها، واتبعهما باقي جسده وهو يتسلل داخلاً بهدوء. وحين لم يَبْقَ الاّ رأسه خارج الفتحة نظر إلى بركة الماء بضع لحظات ثم هبط قافزاً إلى داخل البيت.

قالت ننه فاطمة: «والآن، ماذا سنفعل؟».

قالت ننه خانوم:" تعالي، تعالي نذهب ونحضر الفانوس».

استدارتا، وعادتا راكضتين إلى حافة البركة تمُسك احداهما بيد الاخرى. كانت قطع المخلّفات العفنة تتأرجح وترتجف على أغصان شجرة الصفصاف. برز من الظلام عدة أشخاص يتقدمون وهم يحملون السلال. دخلت ننه فاطمه و ننه خانوم إلى بيت الأخيرة. كان الحاج صفر قد صعد على (الكرسي) وكان كامل جسمه داخل الغرفة سوى رأسه الذي أخرجه من فتحة السقف فإنه لم يكن ظاهراً.

دخلت ننه خانوم و ننه فاطمة إلى مخزن الدار الخلفي، فأخذتا فانوسين ودخلتا إلى الغرفة. أشعلتا الفانوسين. صعدت ننه خانوم الكرسي ووضعت أحد الفانوسين على سطح البيت. تحرك جسد الحاج صفر الذي كان ساكنا وحرّك أصابعه. خرجت العجوزان بالفانوس الآخر.

كانت باحة البركة تعج بالناس، فقد كان البَيْليون يتوافدون على القرية بسلالهم نصف الخالية. كان إسلام جالساً فوق عربته وقد غاص في التفكير.

تقدمت ننه خانوم من العربة وقالت: «يا حاج إسلام، لقد جاء شخص ودخل إلى بيت ننه فاطمة».

قال إسلام: «أليس حسني في القرية؟».

قالت ننه فاطمة: «كلاّ، ليس فيها . . لقد خرج ولم يعد بعد».

قال إسلام : «إذنْ فسوف آتي معكما».

حين بلغوا منزل ننه فاطمة أخذ إسلام الفانوس وفتح الباب. دخل البيت أولاً وتبعته العجوزان. كان جوف الغرفة مظلماً. فتحوا النافذة وأدخل إسلام الفانوس إلى داخل الغرفة. كان ثمة شخص متكيء إلى الجدار ينظر إليهم وهو قابع في الظلام.

قال إسلام: ««من أنت؟».

قال الشخص: «هذا أنا، يا حاج إسلام».

رفع إسلام الفانوس عالياً وقال: «أنت؟».

تقدّم الشخص. كان يحمل سلّة على ذراعه. تقدم الثلاثة بدورهم.

قالت ننه فاطمة: «أهذا أنت يا حسني؟».

دسّ حسني يده داخل السلّة فأخرج طيراً مذبوحاً وهو يمسك به من رجليه. كان رأس الطير يتدلى من شريحة رفيعة من جلده وهو يتأرجح.

قال إسلام: «حسناً، إنّه ابنك».

ناول الفانوس إلى ننه خانوم وخرج مستعجلاً. مدّت ننه فاطمة يدها

وتناولت الطير.

قال حسني: «لم أستطع الإمساك بأكثر من واحد». وأخذ يقهقه على نحو أخاف العجوزين وحملهما على التقهقر إلى الخلف.

- ٢ -

عاد معظم الرجال بأيد فارغة. أمّا الحاج جبّار فقد استطاع اقتناص بعض البطاطا من خاتون أباد وقبل أن يظهر كانت الحاجة ريحان قد وارت الدجاجة المذبوحة خلف كومةالحطب.

قال الحاج جبار: «لقد كانت خاتون آباد تغصّ بالناس».

قالت الحاجة ريحان: «ليس في بَيّل من جديد».

قال الحاج جبار: «هناك يمكن العثور على بعض الأشياء».

قالت الحاجة ريحان: «إنّ مشدي بابا الذي كان قد ذهب إلى خليجان - قد عاد خالي اليدين».

قال الحاج جبار: «لقد عاد الكثيرون دون أن يجلبوا شيئا. وقد حصل عباس على صرّة صغيرة من الأرز المسلوق، استبقى نصفها له ولأخته، وأعطى نصفها الآخر لبابا علي».

قالت الحاجة ريحان: «الحاج حسن لم يحصل سوى على ملء حضن من الفضة ، أخذها إلى الزريبة وألقاها لبقرته».

قال الحاج جبار: «أما عاد المختار الى الآن؟».

قالت الحاجة ريحان: «الآن ماذا تريد أن تفعل؟»،.

قال الحاج جبار: «سأذهب الليلة إلى بوروس، لعليّ أفوز بشيء».

قالت الحاجة ريحان: «هل تريد أن تذهب وحدك دون رفيق؟».

قال الحاج جبار: «نعم ، ومع من يمكن أن أذهب؟».

قال الحاجة ريحان: «لن تستطيع الذهاب وحدك. فمنذ منتصف الليل يجتمع البوروسيون في تلك النواحي ويحرسون قريتهم».
قال الحاج جبار: «مهما يكن فسوف أذهب لأشفي غليلي، وانتقم لخرافي التي أخذوها».
قالت الحاجة ريحان: «لا، لا تذهب وحدك».
قال الحاج جبار: «لا يمكن أن أذهب مع أحد، فأهل بَيَل جميعهم يتسّولون وينتحبون ويتلقون الصدقات، ولكنهم لا يخرجون للسرقة. أمّا البورسيون فيصبرون على الجوع ولا يمدّون أيديهم للتسول أو أخذ الصدقة. ولكنهم لا يتورّعون عن السرقة والنهب».
قالت الحاجة ريحان: «أدري، ولكن إذا وقعت في أيديهم؟»
قال الحاج جبار: «تلك مشكلة، ولكن لن يأتي معي أحد لأذهب وإياه».
قالت الحاجة ريحان: «عجيب .. ان ابن ننه فاطمة يذهب».
قال الحاج جبار: «هل تقصدين حسني؟».
قالت الحاجة ريحان: «نعم، فلو طلبت منه لذهب معك حتماً».
قال الحاج جبار: «وأنت كيف تعرفين؟».
قالت الحاجة ريحان: «أعرف. فقد عاد إلى القرية قبل ساعة وقد رأيته... وكان قد جلب معه دجاجة».
قال الحاج جبار: «هل تعْنين أنه كان قد ذهب إلى بوروس؟».
قالت الحاجة ريحان: «نعم .. اجلسْ أنت وتناول عشاءك. وسأذهب أنا لأناديه».
جلس الحاج جبار أمام كومة الحطب ووضع الفانوس إلى جانبه. أحضرت له الحاجة ريحان بعض الخبز وحساء القمح. ثم خرجت من

البيت. كانت الريح تهبّ ، والرجال قد اجتمعوا عند البركة يؤدّون الصلاة، كما جلس خلف الجدار المنخفض صفّ من النساء أخذن يتطاولن وينظرن إلى الرجال. كما كان في الحديقة شخص ينتحب.

حين وصلت الحاجة ريحان إلى باب بيت حسني رأت ننه خانوم وننه فاطمة تخرجان ومعهما إناء من الماء المطهّر بتربة كربلاء. تنّحت جانباً. وتابعت العجوزان طريقيهما تعبران الزقاق. كانت ننه فاطمة تغمس مكنسة صغيرة كانت في يدها بالماء المطهّر، ثم تنفضها على الأبواب والجدران وهي تتلو الأدعية. أمّا ننه خانوم فقد كانت تشهق بالبكاء والعويل. ظلّت الحاجة ريحان قابعة في الظلام إلى أن توارت العجوزان خلف منعطف الزقاق، فخرجت من العتمة وفتحت الباب ودخلت. كان حسني جالساً إلى النافذة عند الفانوس وهو يحتسي المرق.

تقدمت الحاجة ريحان وقالت: «حسني! حسني!».

قال حسني: «لماذا جئت؟».

قالت الحاجة ريحان: «انهض وتعال!».

قال حسني: «إلى أين آتي؟».

قالت الحاجة ريحان: «لقد جاء الحاج جبار، وهو يريد الذهاب إلى بوروس ليَسْرُق دجاجاً، وقد وَعَدْتُه أنْ تذهب معه».

قال حسني: «وكيف نذهب في هذه الساعة من الليل؟».

قالت الحاجة ريحان: «الحاج جبار يريد ان يذهب، فلو ذهبت معه فسوف تعودان بسرعة، وعندئذ تستطيع أن تنام في بيتنا».

قال حسني: «هل يسمح الحاج جبار أن أنام في بيتكم؟».

قالت الحاجة ريحان: «نعم، ولكن لو كان الوقت نهاراً، لما كان يسمح».

قال حسني: «طيب .. سوف آتي».

خرج كلاهما. وضع حسني آخر لقمة من عشائه في فمه وقال: «اذهبي أنت، وسوف أتبعك».

قالت الحاجة ريحان: «إذا أردت، نستطيع أن نخرج من القرية فنذهب من وراء الحديقة، إلى الباحة التي تقع خلف بيت الحاج صفر، ثم نتجه إلى الزقاق الأول ونذهب إلى بيتنا».

قال حسني: «هيّا».

حين بلغا نهاية الزقاق وصارا خارج القرية غدا الجوّ أكثر برودة، وصار بوسعهما رؤية الضوء الخافت المنبعث من شموع مزار النبي آغا.

قال الحاجة ريحان: «تستطيع كلما جُعْت أن تأتي إليّ، فإنّي أخبيء شيئاً لي ولك».

قال حسني: «كلما كنت جائعاً، سوف آتي إليك».

قالت الحاجة ريحان: «إن خارج القرية خلوة هادئة ناعمة».

قال حسني: «نعم».

قال الحاجة ريحان: «لنجلس على هذا الحجر».

جلسا على صخرة كانت قائمة عند حافة وادٍ ضيق مظلم.

قالت الحاجة ريحان: «عندما تعودان من بوروس تأتي إلى بيتنا ... هل ستأتي؟».

وقال حسني: «نعم سوف آتي».

قالت الحاجة ريحان: «إن نوم الحاج جبار ثقيل جداً .. ومهما أزعجته فلن يستيقظ».

خرج من قلب ظلمة الوادي رجل ضخم يجرّ وراءه خروفاً طويلاً نحيلاً. برز القمر من بين مزق الغيم، فاستطاع حسني والحاجة ريحان تمييز ملامح المختار يسحب الخروف.

– ٢ –

عندما بلغت ننه خانوم و ننه فاطمة رصيف بركة الماء كان الرجال قد فرغوا من أداء صلاتهم، وكان إسلام قد اعتلى صخرة غسل الموتى السوداء، وراح يتلو إحدى النّواحيات. كان بجانب الصفصافة فانوسان، وحين أبصر إسلام العجوزين كف عن تلاوة النواحية، وأخلد إلى الهدوء، وتبعه الرجال في ذلك.

غمست ننه فاطمة المكنسة بالماء المطهّر ثم نفضتها على رأس إسلام أولاً، وعلى رؤوس الرجال واحداً واحداً من بعد. قالت ننه خانوم: «أترون المصيبة التي حلّت بنا؟ القحط والمجاعة من جهة، وهذا البلاء الجديد من جهة أخرى».

سعل مشدي بابا، وهتف إسلام بصوت عال: «اغفر لنا يا ربّ العالمين».

طأطأ الرجال برؤوسهم وأخذوا في النحيب.

قالت ننه خانوم: «والآن ماذا ستفعلون؟».

اشرأبت النساء بأعناقهنّ، وقد كنّ جالساتٍ يسترقن السمع ويختلسن النظرات إلى مجلس الرجال.

قال مشدي بابا: «إن على أولئك الذين يتمتعون بأجسام صحيحة

معافاة أن يشمّروا عن سواعدهم وأن يفعلوا شيئاً لغيرهم».

قال عباس: «صدق مشدي بابا، ولكن كل واحد تطال يده شيئاً فإنه يبتعله غير حاسب حساب العجزة».

قال ابن الحاج صفر: «إن عباساً يريد القول إنه اليوم قد أعطى بابا علي قبضة من الأرز، فاعلموا بذلك يا جماعة!».

قال الحاج حسن: «دعونا ممّا فات .. ماذا سنفعل غدا؟».

قال إسلام: «نجمع نفراً منّا، ونرسلهم إلى خاتون آباد يحضّرون بعض البطاطا والقمح».

قال ابن الحاج صفر: «لقد تقاطر أهل سيد آباد وأهل حسن آباد على خاتون آباد وجمعوا كل ما استطاعوا جمعه وأخذوه».

قال إسلام: «سنذهب نحن كذلك لعلّنا نظفر بشيء».

قال الحاج حسن: «يجب أن لا ننسى أبقارنا وأغنامنا كذلك».

قال الحاج جبار: «تذرّع بالصبر! نشبع بطون الآدميين أولاً ثم ...».

قال عباس: «حسناً، بأية وسيلة نقل ستذهبون إلى خاتون آباد؟».

قال إسلام: «بالعربة، عربتي التي ان لم تنفع اليوم فمتى تنفع؟».

قال الحاج جبار: «من يريد الذهاب؟».

قال إسلام: «إني أتحرك في الصباح الباكر، فمن أحبّ فليرافقني».

قال ابن الحاج صفر: «أنا آتي معك».

قال عبدالله الذي وصل تواً: «وأنا آتي».

قال إسلام: «لا نستطيع الذهاب أكثر من ثلاثة أشخاص».

قال مشدي بابا: «صحيح، ثلاثة يكفون، غدا سنجمع النقود، ونعطيكم الأكياس، وفي صباح الغد تنطلقون في أمان الله».

قال مشدي بابا: «صحيح، ثلاثة يكفون، غدا سنجمع النقود، ونعطيكم الأكياس، وفي صباح الغد تنطلقون في أمان الله».

قال الحاج حسن: «يا حاج إسلام، سوف أعطيك نقوداً لتشتري لي كيساً من التبن لبقرتي إن وجدت».

قال ابن الحاج صفر: «إذا ذهبت فلن أسمح لإسلام بأن يشتري لك تبناً».

أشار إسلام إلى الحاج حسن، فلم يقل هذا شيئا.

قال عبدالله: «متى ننطلق؟».

قال إسلام: «في الصباح قبل شروق الشمس».

قال ابن الحاج صفر: «إذا تأخرت فأرسل شخصاً يوقظني من النوم».

قال إسلام: «هو كذلك».

حين أنتهى الحديث خيّم الصمت والانتظار على الجميع. تقدمت ننه خانوم وقالت: «استقامت الأمور. يذهب ثلاثة من الشباب للحصول على البطاطا وبعض الحاجيات، فماذا سيفعل الآخرون؟ هل ستعودون إلى التسوّل والاستجداء؟».

قال مشدي بابا: «ما الحيلة يا ننه خانوم؟ يجب أن نملأ البطون بأية وسيلة».

قالت ننه خانوم: «كلاّ، غدا لن يخرج أحد من القرية. غداً نقيم مأتماً .. نطلب الشفاعة ونبكي ونقرأ النواحيات. لعلّ قلب (الحضرة) يرقّ لحالنا، فيسامحنا ويصرف عنّا البلاء».

أشارت ننه فاطمة إلى شجرة الصفصاف التي كانت الأشلاء

والقانورات تتدلى من أغصانها، وقالت بصوت مخنوق: «هل ترون؟»
ثم شرعت في البكاء، وغمست المكنسة بالماء المطهّر ونفضتها فوق رؤوس الرّجال.

هتف إسلام بصوت عال: «اغفر لنا يا رب العالمين».

أطرق الرجال برؤوسهم، أمّا النّساء اللواتي كنّ مصطفّات على الجدار، فقد توارين خلفه من جديد، وتعالت أصوات بكائهن.

قالت ننه خانوم: «لن يسامحنا الأسياد حتى نعقد مأتماً».

قالت ننه فاطمة: «سأذهب أنا و ننه خانوم ونرشّ الماء المطهر على القرية كلها، ثم نخرج الأعلام من العَلَمْخانه؟»*.

وانطلقت العجوزان من جانب الرجال نحو الزقاق الأول. ارتفع نواح الكلب باباخ من حديقة الإقطاعي حيث كان مقعياً ينتحب.

طافت العجوزان في الزقاق، وأبصرتا يد بابا علي الضخمة تخرج من نافذة بيته القميء إلى وسط الزقاق وتبحث عن شيء في التراب.

قالت ننه خانوم: «يا رب، ارحمنا».

قالت ننه فاطمة: «اغفر لنا يا رب العالمين».

طلع المختار من نهاية الزقاق وهو يجرّ وراءه خروفاً طويلاً أعجف.

— ٤ —

كانت الحاجة ريحان وحسني جالسين على الدكة الحجرية المشرفة على الوادي، عندما ظهرت العجوزان تحملان المكنسة وإناء الماء المطهّر. ننه خانوم تتلو دعاءً و ننه فاطمة تنثر الماء حول القرية.

قالت الحاجة ريحان: «ظهرتا. انهض لنذهب».

---

* «العَلَمْخانة: بيت الرايات او مخزن الأعلام»

قال حسني: «من هما؟».

قالت الحاجة ريحان: «جاءت العجوزان، قم لننصرف».

نهض كلاهما. أمسكت الحاجة ريحان بيد حسني وقادته نحو الوادي.

قال حسني: «إلى أين؟ إنّ جوف الوادي حالك الظلام».

قالت الحاجة ريحان: «تعال، ندعهما تمران، ثم نعود إلى البيت».

كان حسني والحاجة ريحان يمشيان في ظلمة الوادي حين بزغ القمر من بين مزق الغيم. أبصرت العجوزان شبحيهما الداكنين يتحركان في الوادي.

قالت ننه خانوم : «هل رأيتهما؟».

قالت ننه فاطمة: «نعم، رأيتهما».

قالت ننه خانوم: «من هما يا ترى؟».

قالت ننه فاطمة : «الله أعلم».

قالت ننه خانوم : «هيّا نذهب، فالماء المقدس معنا ولا يجوز أن نتلصص على الآخرين».

قالت ننه فاطمة: «أنا لا أنزل إلى الوادي».

قالت ننه خانوم: «وأنا لا أنزل إليه، ولكن نطلّ من ذلك المرتفع وننثر الماء على الوادي من هناك».

تسلّلت العجوزان بهدوء بالغ حتى بلغتا الدكّة الحجرية وكمنتا هناك. ثم انحنت كل منهما تنظر في الوادي. كان حسني والحاجة ريحان جالسين في الوادي متجاورين، وقد أراحت الحاجة ريحان يدها على ركبة حسني. نظر كلاهما إلى أعلى فأبصرا رأسي العجوزين عند

قمة حافة الوادي.
قال حسني: «ألن تهبطا إلى الوادي؟».
قالت الحاجة ريحان: «إنهما لا تستطيعان».
قال حسني: «وإذا هبطتا؟».
قالت الحاجة ريحان: «نتخذ طريقنا من هذه الناحية ونهرب».
قال حسني: «انهضي لنذهب».
قالت الحاجة ريحان: «انتظر حتى تمرّا».
صاحت ننه خانوم من أعلى الوادي: «من أنتما؟».
ظلّ حسني والحاجة ريحان صامتين.
قالت ننه فاطمة : «أنهما لا يجيبان».
قالت ننه خانوم: «هل أنتما من الإنس أم من الجنّ؟ انطلقا، كائنيْن ما كنتما!».
ومرة أخرى ظل حسني والحاجة ريحان ساكتين.
غمست ننه فاطمة المكنسة بالماء المطهر ونفضتها على الوادي.
قال حسني: «هذه أمّي».
قالت الحاجة ريحان: «وتلك هي زوجة الحاج صفر».
لاذا بالصمت من جديد بينما أخذت ننه فاطمة تمشي عند حافة الوادي وهي تنثر الماء.
انحنت ننه خانوم تطلّ في الوادي مرة أخرى ثم صاحت: «مهما كنتما، إنسيّين أم جنّييْن، كائنيْن ما كنتما ، فإنّي استحلفكما بالله أن تذهبا من هنا .. أن ترحلا عن بَيَل».
وحين لم يجيبا تراجعت العجوزان، وقالت ننه فاطمة: «لنذهب بسرعة،

لدينا عمل كثير».

قالت ننه خانوم تحدث نفسها: «جيّد أن الحاج جعفر ذاهب مع إسلام إلى خاتون آباد .. وأن الحاج صفر نائم الآن ... طيب، ألا تكون الحاجة ريحان تحاول إغواء ابني أيضاً».

استدارتا وهما تنعطفان لتدخلا في الزقاق ونظرتا خلفهما، كان الشخصان قد خرجا من ظلمة الوادي وعادا إلى الجلوس على الدكة الحجرية.

— ٥ —

حين دخلت الحاجة ريحان وحسني البيت كان الحاج جبار قد لفّ نفسه باللّحاف وغرق في النوم عند كومة الحطب. تقدمت الحاجة ريحان منه وأخذت تهزّه.

قال الحاج جبار وهو ما يزال نائماً: «ماذا؟».

قالت الحاجة ريحان: «انهضْ، جاء ابن ننه فاطمة».

قال الحاج جبار: «ماذا أفعل؟».

قالت الحاجة ريحان: «ألستما ذاهبين إلى بوروس؟».

استيقظ الحاج جبار وقال: «أين هو؟».

قال حسني الذي كان واقفا عند عتبة الباب: «أنا هنا يا حاج جبّار».

قال الحاج جبار: «أنا ذاهب إلى بوروس، هل أنت آتٍ معي؟».

قال حسني: «من أجل ماذا نذهب إلى بوروس».

قال الحاج جبار: «لماذا يذهب الناس إلى بوروس؟! نذهب للسرقة!».

قال حسني: «يعني .. قصدك، نذهب للسرقة؟».

قال الحاج جبار: «نعم .. ألا تذكر أنهم قد سرقوا خرافي الثلاثة؟».

قال الحاج جبار: «حسناً، نحن أيضاً، نذهب لنسرق شيئاً بدلاً منها».

قال حسني: «يلزمنا حبل، تعرف لماذا؟».

نهض الحاج جبار، فأحضر حبليْن، ناول أحدهما لحسني واحتفظ بالآخر لنفسه.

قال حسني: «لنذهبْ».

قال الحاج جبار: «اربط الحبل على وسطك».

قال حسني: «أنا أحمله هكذا».

قال الحاج جبار يخاطب الحاجة ريحان: «سنعود قبل الفجر».

قالت الحاجة ريحان: «عودا في أسرع وقت».

خرج حسني والحاج جبار. اجتازا الزقاق ووصلا إلى البركة. كان الرجال قد غادروا. ولم يكن هناك سوى بضعة منهم تجمع بعضهم حول بعض وأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث. كان القمر الطالع من بين بقع الغيوم ينير البركة وتنعكس صورته على صفحتها، والسمك قد قارب السطح وأخذ يلتهم الزبد والنفايات.

عندما بلغ حسني والحاج جبار حديقة الاقطاعي صادفهما ابن الحاج صفر يحمل عدة أكياس، فتجاوزاه صامتين.

قال ابن الحاج صفر: «الله يستر، إلى أين، في هذا الوقت من الليل؟».

قال الحاج جبار: «عندنا شغل».

ضحك ابن الحاج صفر وقال: «أعرف الشغل الذي لديكم».

قال الحاج جبار: «حسناً؟ فلتعرفْ».

قال ابن الحاج صفر: «أريد أن أقول إنكما ذاهبان تسرقان».

قال الحاج جبار: «طيب، ألن تأتي؟».

قال ابن الحاج صفر: «أبداً».

قال الحاج جبار: «إذن فالأفضل أن تخرس».

خاف ابن الحاج صفر، وضحك.

قال الحاج جبار: «اذهب واصرخ بأعلى صوتك .. قل للجميع إن الحاج جبار وحسني ذهبا يسرقان».

ابتعد ابن الحاج صفر وهو يقول بصوت عال: «لا تخافا، لن أخبر أحدا».

خرج حسين والحاج جبار من القرية. حلّ الحاج جبار الحبل عن وسطه وألقاه على كتفه، كما فعل حسني الشيء ذاته. ثم أخذا طريقهما بين الحقول.

قال الحاج جبار: «إذا كلّمني ابن الحاج صفر بهذه الطريقة مرة أخرى فسوف أكسر أسنانه».

قال حسني: "دعك منه، انّه يهذي ولا يدري ما يقول!".

قال الحاج جبار: «نحن لسنا ذاهبين للسّرقة، بل نحن ذاهبان لتعويض خرافي التي سُرقت».

قال حسني: «وإذا لم نستطع الحصول على خراف، فسوف نسرق دجاجاً».

قال الحاج جبار: «سنفعل ذلك طبعاً».

عندما هبطا التلّة الأولى مرّ بهما ثلاثة بوروسيّين يسوقون خروفاً سرقوه من سيد آباد، وهم في طريقهم نحو قريتهم.

قال الحاج جبار: «قوّاكم الله!».
قال أحد البوروسيين: «سِرْ في طريقك».

- ٦ -

دفعت ننه خانوم و ننه فاطمة باب العَلَمْخانة الحجري. أدخلت ننه خانوم الفانوس إلى الداخل ونظرت في الدهليز القصير المظلم. تبعتها ننه فاطمة وهي تضمّ إناء الماء المطهّر* والمكنسة إلى صدرها. تقدّمتا بهدوء، والمصباح يلقي بضوئه على جدران الدهليز، حيث انتشرت الرفوف المختلفة وعليها قطع النقود المعدنية الصغيرة. وعندما بلغتا نهاية الدهليز برز باب صغير قصير مغطّى كله برقية (عين الحسود).

شرعت ننه خانوم بالدعاء، وغمست ننه فاطمة المكنسة بالماء ونفضتها على الباب. فتحت ننه خانوم مزلاج الباب، فبان سرداب مظلم. توقفت العجوزان بضع ثوان تدققان في الظلام، ثم دلفتا داخلتين: ننه خانوم أولا و ننه فاطمة في أثرها. كانت رائحة العفونة تملأ السرداب.

قالت ننه فاطمة: «ننه خانوم، سوف نُخرج بضعة أعلام من هنا».

قالت ننه خانوم : «سوف ننصُب الأعلام في كل مكان حول البركة».

قالت ننه فاطمة: « هل نستطيع اخراج الأعلام نحن الاثنتان بمفردنا».

قالت ننه خانوم: «طبعا نستطيع».

* الماء المطهر أو ماء البركة أو الماء المقدس: ماء مشوب بتربة كربلاء يتبرك به.

وضـعت ننه فـاطمـة الإناء والمكنسـة على الأرض. وأدنت ننه خـانوم الفانوس. كانت الأعلام مصفوفة بطول جدران الحجرة الأربعة.

وضعت ننه فاطمة يديها على صدرها، بينما أخذت ننه خانوم تتلو الأدعية وتنفخ وهي تمرّ من أمام صفوف الأعلام.

قالت ننه فاطمة: «هذه لا يمكن لمسها، فجميعها بالية متحلّلة تتفتت عند لمسها».

قالت ننه خانوم : «لا شغل لي بها».

عبرتا من بين الأعلام المزدوجة حتى بلغتا ضريحاً صغيراً موضوعاً بجانب الجدار. جلستا إلى جانب الضريح الخالي. مزّقت ننه خانوم طرف غطاء رأسـهـا وقـالت وهـي تربطه إلى الضـريح: «يا فـاطمـة الزهراء، داخلة عليك، ها أنا أربط هذا كي تبعدي البلاء عن بَيَل»*.

ردّدت ننه فاطمة هامسة: «يا فاطمة الزهراء! انّي داخلة عليك!».

وقطعت طرف عباءتها وربطته إلى الضريح. ثم نهضت كلتاهما.

قالت ننه فاطمة: « هل سنأخذ الأعلام؟».

قالت ننه خانوم: «سنأخذها على الفور».

قالت ننه فاطمة: «أيّها سنأخذ؟».

قالت ننه خانوم : «تلك التي خلف (الشمائل)».**

ثم وضـعت الفانوس على الأرض. وتقدمت كلتـاهمـا نحو لوحة كبيرة كانت مسنودة إلى الأعلام.

---

* يُسمّون هذا الرسم (ربط الدخيل) ، فمن كانت له حاجة يرجو من صاحب الضريح العون في قضائها ، يربط على قضبان نافذة الضريح قطعة من قماش ، ويعقدها ، رمزا لوجود عقدة يرجو حلّها.

**. الشمائل؛ صورة ضخمة ترمز لشخصية دينية .

قبّلت ننه فاطمة الغلالة التي تغطي اللوحة وقالت: «إني داخلة عليك أيتها الحضرة».

وقالت ننه خانوم: «إني داخلة عليك أيتها الحضرة .. أنقذي قرية بَيَل!».

أزاحتا الغلالة جانباً فانكشفت (الحضرة) منتصبة وهي شاهرة سيْفيْها. حملتاها ووضعتاها عند الضريح. أضناء الفانوس على الأعلام الجديدة.

تقدمت العجوزان من الأعلام. قالت ننه فاطمة: «داخلة عليك يا إمام الزمان!».

قالت ننه خانوم: «اغفر لنا يا ربّ العالمين!».

– ٧ –

جلست الحاجة ريحان في منتصف المطبخ وقد وضعت الدجاجة في الماء الحارّ وراحت تنتف ريشها، على ضوء فانوس كان موضوعاً فوق كومة الحطب. بينما أقعى الكلب باباخ عند النافذة المفتوحة وقد تدلّى بوزه، وتسمّرت أنظاره على يدي الحاجة ريحان.

كانت الحاجة ريحان فرحة نشيطة مستمتعة بانشغال الناس في الخارج. عندما شقّت بطن الدجاجة مدّ الكلب باباخ عنقه إلى داخل المطبخ.

دسّت الحاجة ريحان يدها في بطن الدجاجة واستخرجت أحشاءها. نظرت إليها قليلاً ثم نهضت وقذفت بالأحشاء من فوق رأس باباخ الى الخارج، فطار الكلب في أثرها. قطّعت الحاجة ريحان الدجاجة ووضعتها جميعها في قدر نحاسية، ثم دلتّ القدر داخل التنور. وبعد

أن تعشّت قامت فأوسعت مكاناً أمام كومة الحطب لينام فيه الحاج جبار، ومكاناً مثله خلف كومة الحطب لمبيت حسني. ثم ذهبت ووقفت تحت فتحة السقف حتى بزغ القمر من بين كتل الغيوم. وبعد ذلك تناولت لحافها وذهبت تنام وراء الباب بحيث تنتبه عند مجيء حسني والحاج جبار. كما أحضرت الفانوس ووضعته خلف الباب، ثم جلست أمام الفانوس وهي تحمل مكحلة ومرآة .. وكحلت عينيها.

- ٨ -

وصل حسني والحاج جبار إلى قرية بورروس.

قال حسني: «إذا ضبطونا فماذا سيفعلون بنا؟».

قال الحاج جبار: «لن ننمسك».

قال حسني: «ألن ندخل إلى داخل القرية؟».

قال الحاج جبار: «كلاّ. لن ندخلها، بل سننتظر في هذه النواحي، وحين يعود البورروسيون من السرقة نعترضهم ونأخذ ما معهم».

قال حسني : «أنستطيع؟».

قال الحاج جبار: «طبعاً نستطيع».

مشى الاثنان وجلسا تحت شجرة. كان الصمت يخيّم على بيوت بورروس، مطلقاً لا يعكّر صفوه شيء.

قال حسني: «كلهم نائمون».

قال الحاج جبار: «إنهم يتظاهرون بالنوم».

قال حسني: «أنت هل ترى شيئاً؟».

قال الحاج جبّار: «أنظر إلى تلك الناحية!».

نظر كلاهما فأبصرا نار غليون تشعّ في الظلام بين الأشجار.

قال حسني: «هل هم منتبهون؟».
قال الحاج جبار: «ليكونوا ... لا تتكلم، اجلس لنرى ما يحدث».
قال حسني: «حسناً، لن أتكلم بشيء بعد الآن».
جلس كلاهما صامتين. الريح تهبّ باردة، ومن بعيد يتردد صوت جرس.
نظر حسني والحاج جبار، كان ثمة عربة تتجه من خاتون آباد إلى سيّد آباد.
قال حسني: «هل ترى العربة؟».
قال الحاج جبار: «نعم».
قال حسني: «أليس لها صاحب؟».
قال الحاج جبار: «مُحْتمَل، ففي الليل يُرى الكثير من هذه الأشياء».
قال حسني: «إني خائف».
قال الحاج جبار: «لا تتكلم».
ابتعدت العربة وانقطع صوت الجرس، ولم تعد شعلة الغليون تبين في الظلام.
قال حسني:«يا حاج جبّار!».
قال الحاج جبار: «مالك؟».
قال حسني: «لعلهم الليلة لم يخرجوا للسّرقة».
قال الحاج جبار: «وما يُدريني؟».
قال حسني: «لنعدْ إلى بيَل».
قال الحاج جبار: «فلماذا جئنا؟».
قال حسني: «إذن، قُم لندخل القرية».

خرجا من تحت الشجرة، ربط كل منهما الحبل على وسطه، وانطلقا نحو القرية على غير هدى.

كانت بيوت القرية المتراصّة تنيخ تحت وطأة الصمت. ومن النوافذ كانت تتصاعد أصوات أنفاس النائمين في سلام.

قال الحاج جبار: «والآن ماذا نعمل؟»

قال حسني: «نجول حتى نعثر على أحد الآبار».

قال الحاج جبار: «آبار؟».

قال حسني: «نعم، فالبوروسيّون يخبؤون مسروقاتهم في الآبار».

قال الحاج جبار: «إذن نجول حتى نعثر على الآبار».

قال حسني: «كم بئرا تريد؟».

قال الحاج جبار: «كلّما كانت أكثر كان ذلك أفضل».

قال حسني: «حسناً، أمسك بيدي كي نوغل في الظلام».

أمسك الحاج جبار - الذي كان ضعيف البصر - بيد حسني. وقاده حسني وهو يتبعه.

توقف حسني فتوقف الحاج جبار.

قال الحاج جبار: «ماذا حدث؟».

قال حسني: «وصلنا».

قال الحاج جبار: «إني لا أرى شيئا».

قال حسني: «اجلسْ على الأرض».

جلس الحاج جبار في الظلام، كما جلس حسني. وظلّ الاثنان صامتين لحظات.

قال حسني: «مُدّ يدك» .

مَدَّ الحاج جبار يده، فأحسّ تحت يده بحفرة كبيرة عميقة، ينبعث منها هواء بارد.

قال الحاج جبار: «أتوجد بئر هنا في هذا المكان؟».

قال حسني: «نعم».

قال الحاج جبار: «نعم، نعم، إنّي أراها ... إنها بئر واسعة».

قال حسني: «ويوجد أكبر منها أيضا».

قال الحاج جبار: «لا بدّ أنك جئت كثيراً إلى هذه النواحي».

ضحك حسني ولم يجب. انحنى كلاهما وأطلاّ في البئر.

قال حسني: «ماذا؟ ما هذه الرائحة؟».

قال الحاج جبار: «إنها رائحة غنم، رائحة خرافي .. رائحة خرافي بعينها».

قال حسني: «نعم، إنها رائحة خراف، مع رائحة شيء آخر».

قال الحاج جبار: «حسناً، ماذا سنفعل الآن؟».

قال حسني: «يجب أن ينزل أحدنا في البئر».

قال الحاج جبار: «هو كذلك، أنت تمسك بالحبل جيداً، وأنا أنزل».

قال حسني: «إني أخاف من العتمة. أنت أمسك بالحبل وأنا أنزل».

قال الحاج جبار: «أليس في البئر عتمة أيضا؟»

قال حسني: «ولكن، هناك لا يوجد بوروسيون».

قال الحاج جبار: «وهو كذلك».

حلّ الحبل عن وسطه وربطه على وسط حسني. دلّى حسني وهو جالس، رجليه في البئر، وأسند راحتيه وأصابعه إلى جدران البئر وأخذ يزحف هابطاً في الظلام. راح الحاج جبار يرخي الحبل شيئا

فشيئاً وحسني يهبط بالتدريج، نظر الحاج جبار من حواليه. كان كل شيء مضاءً، سواه كان جالساً في ظلام حالك وهو يمسك بطرف الحبل. أخذ الحبل يثقل شيئا فشيئاً.

قال الحاج جبار في نفسه: «لا بدّ أن حسني يربط الخراف بالحبل».

انحنى وتنشّق الرائحة مرة أخرى. كانت رائحة الخراف، ورائحة قريته بَيَل تنبعث من البئر.

أطلّ على البئر وقال هامساً: «حسني!حسني!».

هزّ حسني طرف الحبل من مكانه في الظلام. سحب الحاج جبار الحبل إلى أعلى، صعد حسني، ومعه دجاجتان مذبوحتان.

قال الحاج جبار: «أين الخراف؟».

قال حسني: «ليس في البئر خراف».

قال الحاج جبار: «وليس فيه من الطيور سوى هذين؟».

قال حسني: «نعم، ليس فيه سوى هذين».

قال الحاج جبار: «ألا يكونان فاسدين؟».

شمّ حسني رقبتي الدجاجتيْن المقطوعتين وقال: «انهما ذُبْح اليوم».

قال الحاج جبار: «نذهب إلى بئر أخرى».

نظر حسني إلى القمر الذي كان بازغا من بين كتل الغيوم وقال: ««علينا الآن أن نعود إلى بَيَل».

قال الحاج جبار: «لماذا؟».

قال حسني: «شارف الليل على الانتصاف. وإلى أن نصل يكون نور الفجر قد عمّ وانتشر».

قال الحاج جبار: «ومتى نأخذ الخراف؟».

قال حسني: «في ليلة أخرى. في أي وقت نجيء فيه».
ربط كل منهما الحبل على وسطه. وضعا الدجاجتين المذبوحتين في سلّة، حملها حسني. وحين كانا يهمّان بالابتعاد، ارتفع ثغاء خروف قادماً من عمق البئر.

- ٩ -

كانت ننه فاطمة و ننه خانوم تخلّصان الأعلام من الظلام، وعجائز بَيَل بثيابهن السوداء محتشدات أمام باب العَلَمْخانة الحجري.
كما كان الحاج زينال جالساًعلى تلّة من التراب وعكازتاه إلى جانبه، وهو يتلو القرآن بصوت عالٍ. كانت ننه خانوم قد وضعت الفانوس في العَلَمْخانة، وانطلقت مع ننه فاطمة تحملان الأعلام على ظهريْهما وتجتازان الممّر المظلم متجهتين نحو الباب. كانتا تخرجان (مخمّسة)* العلم أولاً ثم تعودان فتخرجان العلم ذاته، فتهجم عجائز بَيَل وتتخطّف الأعلام.
كان الحاج زينال يقول : «الصلاة على حبيب الله».
كانت النساء يرسلن الدّعوات ويرفعن الأعلام. وكان الحاج صفر الذي أبرز رأسه من فتحة السقف إلى خارج، يطالع البركة، وكلما برز القمر من بين الغيوم طالع الأعلام.

- ١٠ -

كان الحاج صفر يتفرج على غابة الرايات.
كان إسلام وعبدالله وابن الحاج صفر بجوار البركة يعبثون بالعربة.
قال إسلام: «ليس في العجلات عيب، نستطيع الذهاب حتّى خاتون آباد».

* «المخمسة»: الكف النحاسية التي تعلو سارية الراية .

قال عبدالله : «ألن تَقْطعَنَا العربة»؟.

قال إسلام: «لقد طويت بهذه العربة الطريق إلى خاتون آباد، وهيزيوان وجاميشان وحسن آباد .. ولم تقْطعْني».

قال عبدالله: «نرجو الله أن لا تقطعنا هذه المرة أيضاً».

قال إسلام: «يجب أن يكون الحصان صحيحاً معافىً، أما العربة فهي تمشي على رغم كل الظروف».

قال عبدالله: «المختار أيضا يقول هذا دائماً».

نظر إسلام إلى الأكياس وقال: «ماذا ستصنعون بكل هذه الأكياس؟».

قال ابن الحاج صفر: «كل بيت دفع توماناً واحداً، وقدّم كيسين».

قال إسلام: «وهل في خاتون آباد من البطاطا ما يملأ كل هذه الأكياس؟».

قال ابن الحاج صفر: «لقد حصلوا على عمّال يعملون بالمجان».

قال إسلام : «كأنك متضايق. إذا لم تكن راغباً، فإنك تستطيع أن لا تأتي».

ضحك ابن الحاج صفر وتمدّد فوق الأكياس وقال: «آتي إذا أحببت أنا، ولا آتي إذا لم أحبّ».

نزل اسلام تحت العربة، عاين الحبال، ثم خرج من تحتها. وقال يخاطب عبدالله: «إذا جاء المختار انطلقنا».

قال ابن الحاج صفر الذي كان ينظر إلى القمر وبقع الغيم: «يا حاج إسلام، هل تعرف أن الحاج جبار وابن ننه فاطمة قد ذهبا إلى بوروس يسرقان؟».

قال إسلام : «وما دخلنا في ذلك؟»
قال ابن الحاج صفر: «لقد رأيتهما بنفسي».
قال إسلام وهو يتفحص قضبان العربة: «لا تتدخل».
لم يقل ابن الحاج صفر شيئاً. كما ظل إسلام وعبدالله ساكتين.
كانت الريح قد اشتدّ هبوبها. صوت خوار بقرة الحاج حسن يأتي من بعيد، ومعه صوت كلب غريب يقترب من القرية وهو ينبح.

-١١-

عندما دخل حسني والحاج جبار قريتهما عائدِيْن، كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل ... البركة محاطة بالأعلام، وليس في الحارة من أحد سوى طفلَيْن جلسا تحت أحد الأعلام يشربان حساء ا لقمح.
انعطفا يعبران الزقاق، فصار بوسعهما أن يسمعا شخير الناس النّيام، كانت ننه فاطمة و ننه خانوم واقفتين وراء أحد السطوح وكل منهما تحمل علماً ضخماً.
قال الحاج جبار: «أكاد أسقط من الإعياء».
قال حسني: «بعد قليل تطلع الشمس».
فتح الحاج جبار شدقيْه متثائباً وقال: «مشينا أربعة فراسخ وعدنا بدجاجتيْن!».
قال حسني: «نستطيع أن نأكل البيض وحساء القمح».
بلغا بيت الحاج جبار. دفعا الباب، فسمعت الحاجة ريحان صوت الباب إذ كانت نائمة خلفه، فنهضت وتنحّت. دخل الحاج جبار وتبعه حسني ومعه السلّة. كانت رائحة حساء الدجاج تملأ المطبخ.
قال الحاج جبار: «أكاد أسقط من الإعياء».

قالت الحاجة ريحان: «تعال نمْ».

تقدم الحاج جبار، فرأى فراشه ولحافه مهيّأين أمام كومة الحطب، خلع قبعته وبسطها. كان المطبخ حاراً، وتسمع منه بوضوح قرقرة الحساء في التنور. اضطرب جفنا الحاج جبار، بينما جلس الكلب باباخ بوجهه المغطى بالوبر عند ناحية النافذة، وهو لا يرفع بصره عن عتمة المطبخ.

قال الحاج جبار وهو يغالب النعاس: «حسني، لا تأخذ الدجاجة السمينة لنفسك ... طيب؟».

قال حسني: «أنا لا أريد. سوف أعطيك الدجاجتين كلتيهما».

قال الحاج جبار: «اعطهما للحاجة ريحان، وإذا أحببت فتعال غداً واشرب من مرقهما».

أعطى حسني السلّة للحاجة ريحان فوضعتها على كومة الحطب.

قال حسني للحاجة ريحان: «إني ذاهب الى بيتنا».

قالت الحاجة ريحان: «لقد هيأتُ لك مكاناً. هناك في تلك الناحية من الحطب».

قال حسني: «إذا علم الحاج جبار فسوف يتكدّر».

قالت الحاجة ريحان: «إن نومه ثقيل، ولن يصحو قبل صلاة الظّهر».

علا شخير الحاج جبّار، ثم تبع ذلك أصوات عويل ونواح لأناس ينوحون في الخارج.

قال حسني: «أأنام هنا؟».

قالت الحاجة ريحان: «لقد هيأت لك طعاماً، سأجلبه لك لتأكل».

مضى كلاهما إلى الناحية الأخرى من الحطب. كانت هنالك ساحة

صغيرة ذات نافذة ضيّقة تفتح على الزّقاق. ومن تلك البقعة كان يمكن رؤية السماء وسطوح بعض بيوت القرية. جلس حسني على اللحاف وهو ينظر إلى القمر الذي بزغ من بين بقع الغيم، وقال: «انه لا يتحرك، مهما نظرت اليه فهو ثابت لا يتحرك».

سُمع صوت الإناء والملاعق. كانت رائحة الحساء تعبق في المطبخ.

قال حسني لنفسه: «إني جائع .. جائع جداً».

سُمعت من الخارج أصوات الأقدام، والبكاء والعويل. نظر حسني إلى الزقاق. رأى الأعلام تمرّ من وراء النافذة. والمخّمسات الضخمة النحاسيّة بأصابعها المفرودة تشير إلى السماء. سمع صوت أمّه وهي تقول بأعلى صوتها: «أتوسّل إليك، وأستحلفك، أيتها الحضرة، يا عليّ، يا محمد، أن تنجّي بيَل».

جاءت الحاجة ريحان بالإناء المملوء وجلست إلى جانبه. نظر حسني إلى الاناء. لم يكن ما فيه ظاهراً للعين.

قال حسني: «أهو ساخن كثيراً؟».

قالت الحاجة ريحان: «كلاّ».

ثم تناولت يد حسني ووضعت إصبعه في المرق الذي كان فاتراً.

تناول حسني الاناء وقال: «ألن تأكلي»؟

قالت الحاجة ريحان: «كُلْ أنت .. وأنا سآكل».

شرب حسني من الإناء. كان المرق مالحا ودسماً ينبعث منه رائحة القمح ورائحة البئر.

قالت الحاجة ريحان: «هل أعجبَك؟».

أومأ حسني برأسه وناول الإناء للحاجة ريحان. تناولته وشربت عدة

جرعات ثم أعادته إلى حسني، فأتى على ما فيه من مرق ثم وضعه على الأرض.

قالت الحاجة ريحان: «هل أحضر لك حساء بالبيض؟».

قال حسني: «كلاً، لن أكل أي شيء بعد الآن».

نهضْت الحاجة ريحان وأخذت الاناء وقالت: «تمدّدْ الآن!».

وضعت يدها على صدر حسني وأنامتْه. كان اللحاف رقيقاً، ومن الحطب تنبعث رائحة الخبز المجمَّر. استلقى حسني. وتناولت الحاجة ريحان الاناء وذهبت الى الطرف الآخر من كومة الحطب. تقلّب حسني ونظر الى الحطب .. كانت مئات من العيون الضئيلة التي تشبه النجوم ترقبه من بين الحطب. قال في نفسه: «أنا شبعت .. وأنتم لو لم تكونوا فئرانا لأطْعَمْتكم الحاجة ريحان». ضحك وتقلب مرة أخرى، واستدار ليواجه النافذة الضيّقة. كان ثمة علم وراء النافذة منتصب ومخمّسته الضخمة بإصبعيْها الطويلتْين تشير نحو السماء.

قال حسني: «يا حضرة ... يا محمد .. يا عليّ».

ابتعدت المخمسة. تململ حسني وتنهدّ ثم أغمض عينيه.

اقتربت الحاجة ريحان وهي تمشي على أطراف أصابعها، واندسّت تحت لحاف حسني ... أخذ الحاج جبار يبكي وهو يحلم.

- ١٢ -

كان رتل من العربات يأخذ طريقه نحو قرية خاتون آباد من معظم القرى المحيطة .. من سيد آباد و هيزايوان و حسن آباد و ملك زاده و ينكيجه و جاميشان و ميشو .. فلو نظرت منذ منتصف الليل إلى

أي ركن من الصحراء لرأيت الجياد المتعبة وهي تجرّ العربات على كل منها ثلاثة رجال يتضورون جوعاً ويجدّون في السير نحو خاتون آباد.

كانت قرية خاتون آباد مستيقظة. والمختار الحاج عنايت يطوف بالبيوت جميعها يتحقق من حسن سير الأمور. وأهل القرية يعبّوون البطاطا في أكياس ويخزنونها في حفر في الأرض.

أصوات العجلات التي تدور متسارعة .. واصوات لهاث الجياع يقترب من القرية .. وأصوات أجراس العربات تعصف بالقرية منذرة محذرة ..

- ١٣ -

كان الحاج جبار يرى في منامه أنه في قرية بوروس، وإنه يغوص منحدراً في بئر عميقة .. على وسطه حبل مربوط، ولكن ليس عند فوهة البئر من أحد ليمسك بالحبل. كان الحبل يتدلّى من مزق الغيم، وهو نفسه معلّق بالقمر.

حين بلغ قعر البئر شمّ رائحة بَيَل .. رائحة خرافه التي كان أهل بوروس قد سرقوها من بَيَل قبل ثلاث سنوات. تقدّم حين اعتادت عيناه الظلام، ولكن ثلاثة من البوروسيّين بسيوف مجرّدة من أغمادها وقفوا في طريقه .. خلفهم طابور من الخراف والدجاج التي وقفت تنتظر.

قال البوروسيّ الأول: «إلى أين؟».

هزّ البوروسيّ الثاني سيفه وقال: «إلى أين؟».

قال البوروسيّ الثالث: «سنقطع رأسك ... رأسك أنت».

قال الحاج جبّار بصوت مخنوق: «إنّي .. إنّي أريد خرافي».
أحاط به البوروسيّون وقالوا: «نريد الدجاجات .. الدّجاجات».
قال الحاج جبار: «خِرافي .. خِرافي».
هجم البوروسيون وهم يشرعون السيوف قائلين: «سنقطع رأسك .. رأسك».
صرخ الحاج جبار مرعوبا: «اجذب إلى أعلى .. اسحبْ إلى أعلى!»
هبّ من نومه. العرق البارد يغطي جسمه. ومجموعة النائحين في المأتم تعبر من الزقاق الخلفي.
سمع الحاج جبار صوت إسلام وهو ينوح بأعلى صوته وينشد:
«انظرْ إلى رأ الحسين في كربلا فوق الثّرى»
وأهل بَيَل يردّدون من ورائه بصوت مكتوم هادىء :
«انظر إلى جسد الحسين مجندلاً فوق الثّرى».
جلس الحاج جبار في فراشه ونظر إلى النافذة الضيقة. ثم اقترب من الحطب، ونظر إلى النافذة المفضية إلى الزقاق. كانت المخّمسات النّحاسيّة بأصابعها المفرودة تعبر الواحدة تلو الأخرى. تقدّم الحاج جبار قليلاً. ارتفعت مخمّسة نحاسيّة كبيرة بإصبعين وتوقفت أمام النافذة. علا صوت ننه خانوم في الزقاق وهي تنتحب وتتوسّل: «أيتها الحضرة .. أتوسّل إليك، أن تبعدي البلاء عن بَيَل .. إنّي داخلة عليك أيها الامام، داخلة عليك أيها النبي».
ابتعدت المخّمسة فانقطعت الأصوات. أراد الحاج جبار أن يعود إلى فراشه إذ رأى حسني مستلقياً يغطّ في النّوم، والحاجة ريحان مستلقية إلى جانبه وقد ألقت بذراعيها حول عنقه فبدت يداها في

وضعهما ذاك مثل مخمستيْن نحاسيتيْن.

خفّ الحاج جبار إلى الناحية الأخرى من كومة الحطب وأحضر الفانوس. قرّبه منهما وهو ينحنى فوقهما. وحين سقط الضوء على وجهيهما استيقظ كلاهما فجأة وفتحا عيونهما.

قذف الحاج جبار بالفانوس على الأرض بقوة وصرخ : «آهاي، آهاي، آهاى» ثم عدا يخرج من البيت، وأقفل الباب من الخارج بالمزلاج. نهض حسني والحاجة ريحان.

قال حسني: «أرأيت ما حصل؟».

قالت الحاجة ريحان: «هيّا، هيّا ،نهرب، هيا نهرب».

سار حسني والحاجة نحو الباب. كان الباب مقفلا من خارج. وصوت الحاج جبّار يسمُع من هناك وهو يعدو حول البيت ويصيح مصوّتا: «آهاي، آهاي، آهاي».

قال حسني: «أتسمعين؟».

قالت الحاجة ريحان: «إنه يجري».

قال حسني: «أين؟».

قالت الحاجة ريحان وهي تبسط راحتيْها: « هكذا .. حول البيت».

قال حسني: «ماذا نفعل؟ ماذا نفعل؟.»

عادا إلى وراء كومة الحطب ونظرا إلى الزقاق. كانت كفٌّ نحاسية قد تقدّمت بإصبعيها المفرودتين وتوقّفت وراء النافذة. وكان يُسمع في الزقاق صوت شخص يسعل.

كان الحاج جبار يعدو دائرا حول البيت وهو يصرخ : «آهاي، آهاي، آهاي».

ومن جوار بركة الماء يأتي صوت أهل بَيَل وهم يندبون وينوحون في المأتم الذي أقاموه وينشدون:

«انظرْ إلى رأس الحسين   في كربلا فوق الثرى»

«انظر إلى جسد الحسين   مجندلاً فوق الثرى»

قالت الحاجة ريحان: «تعال .. اسرعْ!».

اقترب حسني منها، فرفعت ركية حجريّة كانت عند التنور، فظهرت عدّة درجات من خلال الظلام.

هبطت الدرج داخلة في الظلام، وتبعها حسني، وحين صارا في الزقاق، كان الحاج جبار، واقفاً بجانبهما وهو يصيح: «آهاي، آهاي، آهاي».

تسمرا في مكانيهما، بينما وقف عباس بجانب الحاج جبار من الناحية الأخرى وهو يحمل بيده مخمّسة علم. تراجع الحاج جبّار اذ وجد نفسه بين ثلاثتهم وابتعد وهو يصيح برعب: «خرافي، خِرافي».

انشد النادبون في المأتم من جوار البركة: «رأس الحسين الظاميء .. جسد الحسين الظاميء».

بكى عباس وقال : «رأس الحسين، جسد الحسين».

— ١٤ —

حين بلغوا قرية شور ترجّل ابن الحاج صفر من العربة بعصبيّة وقال: «لن أمضي معكم بعد الآن».

ربط الحبل الغليظ الذي كان في يده حول وسطه وألقى بسلّته على ذراعه وانطلق نحو بوروس على غير هدى.

وقف عبدالله وإسلام يرقبانه لحظة، ثم انطلقا بالعربة يستأنفان

طريقهما إلى خاتون آباد. كانت الصحراء مثقبّة بالعديد من الثقوب التي برز من كل منها رأس فأر بعينيه الضئيلتيْن المترقبّتيْن تنظران إلى الخارج. كانت الفئران حين يقع عليها ظل العربة تهبط في جحورها ثم تعود فتطل منها من جديد.

حين بلغ إسلام وعبدالله قرية خاتون آباد أذهلتهما كثرة العربات، إذ كانت متراصّة داخل القرية وخارجها، ومن فوقها الرجال جالسون ومعهم كتل من الأكياس. وكان الحاج عنايت يمرّ من بينها وهو يقول: «والله لم يَبْقَ شيء .. ليس عندنا أيّ شيء».

وحين وقعت عيناه على إسلام مشى نحوه وقال: «وأنت يا حاج إسلام أتريد البطاطا؟».

قال إسلام: «نعم يا حاج عنايت، إن الوضع في بَبَل سيّء للغاية».

أشار الحاج عنايت إلى العربات وقال: «أترى؟»

قال إسلام: «ماذا أفعل؟!».

قال الحاج عنايت: «تنحّ جانباً وانتظر، عسى أن أعثر لك على شيء».

لوى إسلام عنان الحصان، ومضى بالعربة، فأوقفها عند حافة الشارع. بسط عبدالله منديله الذي كان يحوي بعض الطعام المعدّ من القمح، ليأكل شيئاً مع إسلام، وهنا امتدّت اليه يد كبيرة لشحاذ من أهل خاتون آباد كان جالساً في حفرة بجوار العربة. انصرف عبدالله بوجهه نحو الجهة الأخرى بعيداً عن الشحاذ. تناول إسلام قبضة من الطعام وضعها في يد الشحاذ. وحين توارت اليد في الحفرة، خرجت منها عدة فئران.

- ١٥ -

راحت الحاجة ريحان وحسني يجولان في المدينة. رائحة الخبز المجمّر تفوح فتملأ الأجواء. كانا ينعمان بالشبع، وقد حملا كمية كافية من الخبز وراحا يتفرجان على البيوت.

حين مالت الشمس للمغيب توجّها نحو احدى الخرب، وجلسا عند احدى الحفر.

قال حسني: «يا لحرارة الجوّ في المدينة!».

قالت الحاجة ريحان التي كانت تريح يدها على ركبة حسني: «ويا للخبز اللذيذ الذي وجدناه!».

- ١٦ -

كانت عربة إسلام واقفة في الخلاء، بالمخمّسات والأعلام التي ضربوها من حولها. وكان إسلام والمختار ومشدي بابا وعبدالله والحاج حسن يتجولون في الوادي في الظلام. قرية سيد آباد تغطّ في النوم. كان رجال بَيَل قد جاءوا بحثاً عن جثة حمار. كان في كل واد عدّة جثث، ولكنهم يريدون جثّة حديثة، وقد وجدوها فوضعوها في سلّة ضخمة، وسحبها خمستهم حتى أخرجوها من الوادي.

حين صاروا فوق العربة، كانت الجثة تتوسطهم. وكانت عينا الحمار المتغضّنتان مفتوحتين تنظران إلى القمر الطالع من بين بقع الغيم. والفئران التي اندفعت خارج جحورها تهيمن على الصحراء. وحين كانت عجلات العربة تمرّ عليها كان ينطلق زعيقها، كما كان مشدي بابا يسمع صوت تحطم عظامها.

برزت بَيَل من بعيد، بالشموع والنيران التي كانت قد أشعلت في

مزار (النبي آغا).

قال المختار: «اللهم لا تجعل هذا من نصيب كافر».

قال إسلام : «لقد جعله من نصيبنا».

قال الحاج حسن : «لو كنّا قد وجدنا حزمة من الفصّة، لما كانت بقرتي ...».

قال عبدالله : «احمدْ ربك على أننا عدنا بشيء»

قال مشدي بابا: «اللهم الحمد لك إن منحت، والحمد لك إن منعت».

حين بلغوا القرية خرج أهل بَيَّل يحملون الأعلام الضخمة وهم يضربون الصدور، كانوا جميعاً يتلون الرياض*وينوحون. وفي مقدمتهم ننه فاطمة و ننه خانوم بقامتيْن منحنيتيْن، والسلاسل في عنقيْهما، وكل منهما قد حملت علمين كبيرين على ظهرها.

كانت ننه فاطمة تنشد:

«رأس شهيد كربلاء جسم شهيد كربلاء»

والمجتمع الجائع يهتف:

«رأس الشهيد ظامىءِ الشفاه جسمُ الشهيد ظامىء الشفاه».

عندما أبصر إسلام الجماعة وضع يديه على وجهه وأخذ ينوح ويشهق. تحلّقت الجماعة حول العربة وتسمرت عيونهم في نهم على جثة الحمار الضخمة الرطبة، وقد صمتوا.

كان الليل قد انتصف منذ قليل. ومن بعيد، تناهى إلى الأسماع صوت غريب يرفع الأذان.

---

* «الرياض» : نواحيات (من شعر ونثر) تروي سيرة أهل البيت، وتُتلى على المنابر.

القصة الرابعة

- ١ -

حين خرجت زوجة الحاج حسن كانت الشمس قد أشرقت توّاً، وكان إسلام قد جلب عربته إلى جوار البركة، وأخذ ينتظر المختار ليذهب وإياه إلى خاتون آباد لحضور جنازة أخت الحاج عنايت. كان المختار قد ذهب إلى بيت مشدي بابا حيث أحبّ أن يأخذاه معهما. ولكن هذا راح يتعلل ويختلق الأعذار دون أن يذكر أن الحاج عنايت كان سيئاً معه، كان يريد أن يتملص من قبضة المختار، وإذ بهم يسمعون فجأة عويل زوجة الحاج حسن يأتي من ضفاف البركة.

سأل المختار: «من الذي يبكي؟».

قال مشدي بابا: «حقاً، هنالك شخص يبكي».

صعد السلّم على عجل واخرج رأسه من الفتحة التي تعلو الباب وأخذ ينظر. أبصر زوجة الحاج حسن وقد لفّت عباءتها حول عنقها، وتمدّدت على التراب إلى جوار البركة، وأخذت تضرب رأسها دون توقف وتبكي. جاء إسلام أيضا وانحنى وأخذ ينظر إليها.

سأل المختار: «ما الخبر؟».

قال مشدي بابا: «زوجة الحاج حسن جالسة إلى جوار البركة تبكي وتلطم».

سأل المختار: «لماذا؟»

قال مشدي بابا: «مالذي يدريني، لعل طارئا قد ألمّ بالحاج حسن».

قال المختار: «ان الحاج حسن ليس في القرية، لقد ذهب إلى سيّد آباد يشتغل هناك».

قال مشدي بابا:«إذن، هل جُنّت المرأة كي تثير كل هذه الزوبعة؟».

مدّ المختار عنقه وراح يصغي. ولكنه لم يطق صبراً وهو يسمع كل ذلك البكاء والعويل الذي ترسله زوجة الحاج حسن، فخرج يعدو. أمّا مشدي بابا الذي ظلّ واقفاً في أعلى السلّم فقد أخرج رأسه مرّة أخرى من الفتحة التي تعلو الباب. وعندما بلغ المختار ضفّة البركة انهال البَيْلَيّون خارجين من النوافذ مهرولين إلى ضفّة البركة، حيث وقفوا يستمعون إلى عويل المرأة ذاهلين.

كان إسلام قد انحنى فوق المرأة وراح يسألها بلهفة::

«مالخبر؟ ماذا حدث؟».

وقالت زوجة الحاج حسن وهي تولول: «واي، واي، واي، مصيبة حلّت بي ... حلّت بي مصيبة ...»

تجمع جميع البَيْلَيّين يتقدمهم المختار وننه خانوم،. كانت جثة طير تطفو سابحة على صفحة ماء البركة وقد أحاط بها السمكُ وأخذ يبتلع قطرات الدهن التي انفلتت منها وطفت على الماء.

حين وصلت ننه خانوم، جثتْ أمام زوجة الحاج حسن وسألت: «يا حاجة طوبا، يا حاجة طوبا، ماذا حدث يا أختي؟».

حين أبصرت زوجة الحاج حسن جماعة الناس، استلقت علي التراب، وقد تقلّص وجهها، واحتقن أنفها، وانثال من عينيها خيطان من الدموع.

انحنى المختار وسأل: « يا ننه خانوم، هل حدث شيء؟ ها؟ هل جرى للحاج حسن شيء؟».

قالت ننه خانوم: «انها لا تقدر على الكلام، لقد اضطرب حالها كثيراً، ليتنحّ الرجال جانباً، تنحّوا جانباً، وأشعلوا قطعة من نسيج

خلق وأعطوني إياها».

أشعلت أخت عباس حُرَاقةً باليةً وناولتها إلى ننه خانوم. أخذتها هذه ولَوتْها اختنقت شعلة النار في ثنايا الحُرَاقة وانطلق دخان أسود. راح الرجال وتجمعوا تحت الصّفْصافة. وجاءت النساء، وضربن طوقاً من حول زوجة الحاج حسن.

قالت ننه فاطمة: «أمسكن بيديها وحرّكْنهما!».

جلست اثنتان من النساء، وأمسكن بيديْها وأخذن يحركنهما. أخذت ننه خانوم الحُرَاقة وأدنتْها من أنف زوجة الحاج حسن. مضت لحظات ففتحت الحاجة طوبا عينيها من جديد، ثم اعتدلت جالسة ونظرت فيما حولها. ثم انخرطت بالبكاء فجأة، وأخذت تندب صارخة: «واي، واي، واي .... لقد حلّت بي مصيبة».

اقترب الرجال، وتقدم المختار، فوقف الى جوار ننه خانوم وسأل: «إسأليها، هل أصاب الحاج حسن بلاء؟»

قالت ننه خانوم: «اجلبوا الآن بعض الماء لتشرب، إنّها إن لم تشرب، فلن تقدر على الكلام».

اقترب المختار أكثر، وسأل زوجة الحاج حسن: «خبّريني يا أختي، هل الحاج حسن بخير؟».

أحضرت احدى النساء ماءً في صحن، أمسكت ننه خانوم بالصحن وقالت: «إشربي ماء، اشربي ماءً كي تقدري على الكلام».

نهضت زوجة الحاج حسن نصف نهوض وقالت: «أستطيع الكلام دون أن أشرب ماءً، أستطيع أن أقول أنّ مصيبة قد حطّت فوق رأسي».

قال إسلام يخاطب الرجال: «لا بدّ أن مكروهاً قد أصاب الحاج حسن».

هزّ الرجال رؤوسهم. ناولت ننه خانوم صحن الماء إلى أخت عباس وقالت متعجبّة: «أتستطيع الكلام وهي لم تشرب الماء؟ كيف تستطيع أن تتكلم دون أن تشرب ماءً؟».

– ٢ –

تحلّقت النساء حول زوجة الحاج حسن، وأحاط الرجال بهنّ في حلقة أخرى، ووقف الجميع ينتظرون.

صاح مشدي بابا من فتحة ما فوق الباب: «يا حاج إسلام، يا حاج إسلام، هل حدث شيء؟».

أشار له إسلام بيده كي يصمت. انحنى الجميع وتحدّبوا. جفّفت زوجة الحاج حسن دموعها بطرف عباءتها وقالت: «البقرة .. بقرة الحاج حسن ماتت في الليلة البارحة».

التفت الرجال مبهوتين ونظر بعضهم إلى وجوه بعضهم الآخر. هبّت ننه خانوم واقفة وقالت: «ماذا؟ ماذا قلت؟».

قالت زوجة الحاج حسن: «في الصباح، حين جئت أجلب لها الماء، وجدتها ممدّدة على الأرض كما امتدت قوائمها الأربع، وامتلأ فمها بالدّم».

التفت الرجال ينظرون إلى بيت الحاج حسن.

تهامست النساء، وقالت ننه فاطمة: «ياإمام الزّمان !».

قالت ننه خانوم: «عجبا! لماذا؟ فهل كان حدث لها شيء؟».

قالت زوجة الحاج حسن: «كلاّ، لم يحدث لها شيء. وفي المساء حين ذهبت إليها كانت على ما يرام. كانت جاثية تأكل».

قال بابا علي من بين الرجال: «وما الذي يدريكم أنها لم تُصبْ بالعين؟».

قال إسلام: «أصيبتْ بالعين؟ ومن يقدم على مثل هذا العمل؟».

قال بابا علي: «إنكم لا تعلمون. ليحفظ الله الجميع من عين السوء!».

تنهّدت ننه خانوم وقالت: «آمين يا ربّ العالمين».

سعل المختار، ثم خلع طاقّيته ومرّ بيده على رأسه وقال: «كيف نعرف أن حيّة لم تلدغها؟».

صاح مشدي بابا من فتحة ما فوق الباب: «إسلام، يا حاج إسلام، هل حدث شيء؟».

أشار له إسلام بيده أن يصمت.

فتحت الحاجة طوبا كفّيها وقالت متوسّلة: «والآن ماذا أفعل؟ أيّ تراب أحثوه على رأسي؟»

هتف ابن الحاج صفر: «إنّ أيّ شيء تفعلينه، من الآن إلى يوم القيامة، لن يعيدها إلى الحياة».

التفت المختار ونظر إلى ابن الحاج صفر. قالت زوجة الحاج حسن مرة أخرى: «طيّب، ماذا أفعل! فلو عاد الحاج حسن ورأى بقرته ميّتة لوقع من فوره في مكانه، ومات بالسكتة القلبّية».

التفت إسلام ونظر الى الدرب الخالي. وقال مشدي بابا الذي وصل

للتوّ يسأل إسلام: «هل حدث شيء؟ يا حاج إسلام، هل حدث شيء؟».

قال إسلام: «هوس .. أسكتْ!».

أعاد المختار طاقيته إلى رأسه، واستدار يواجه إسلام وقال: «إنها تقول الحقّ .. لو عاد الحاج حسن وعلم ان بقرته قد ماتت .. أتدري كيف يصير حاله؟».

قال إسلام: «ماذا نفعل له؟».

قال المختار: «لا أدري. إنك أخبر منّي».

مضى إسلام فصعد على حجر غسل الموتى الأسود وقال: «إن المختار قد أشار بأن لا يخبر أحد الحاج حسن حين يعود بأن بقرته قد ماتت».

قال ابن الحاج صفر: «إنّ أحداً لن يخبره، ولكنه حين يعود فَيَرى بنفسه أن بقرته غير موجودة، سيعرف أنها ماتت. أليس كذلك يا حاج إسلام؟ أليس كذلك يا مشدي بابا؟».

بُهت إسلام الذي كان واقفاً على حجر غسل الموتى وقال : «إن قوله حقّ يا مختار، فلو عاد ولم يجد البقرة فماذا علينا أن نفعل له؟».

قال المختار: «صحيح، ماذا علينا أن نفعل له؟».

قال إسلام يخاطب الجمع بصوت عال: «طلب المختار ألاّ يخبر أحد الحاج حسن بأن بقرته قد ماتت، وإن (عياله) سوف تقول له إن بقرته ...».

قال ابن الحاج صفر مقاطعاً كلام إسلام: «سوف تقول له إن بقرته

قد ماتت».

قال المختار: «يا حاج جعفر، هل تسمح وتدع الحاج إسلام يتحدث؟».

قال إسلام: (عياله) تقول له إن البقرة قد هربت، وأن إسماعيل قد ذهب ليمسك بها ويحضرها».

صمت الرجال. نزل إسلام عن الحجر وقال: «والآن ماذا نفعل يا مختار؟».

قال المختار: «أنا لا أدري ماذا نفعل».

استدار إسلام، وقال للرجال الذين كانوا ينظرون اليه مبهوتين: «المختار يدعو نفرا منكم لكي نذهب إلى بيت الحاج حسن فننظر ماذا يمكن أن نفعل بالبقرة».

حين سمع مشدي بابا ذلك مضى إلى ضفة البركة، وشرع بخشبة كانت بيده، في استخراج جثة الطير من الماء..

– ٣ –

ذهب إلى بيت الحاج حسن، إسلام والمختار وعباس وإسماعيل والحاج جبار وموسرخه، تتقدّمهم زوجة الحاج حسن وهي تبكي. كانت أشعة الشمس تنفذ من فتحة السقف، وتسقط على الدعامة الوسطى في الزريبة، وتضيء على فانوس سخّمه الدخان، وحبل ملوث قذر، كانت بقرة الحاج حسن ما تزال منطرحة في وسط الزريبة، وقد مدّت قوائمها الأمامية والخلفية، مثلما يتمدّد رجل منهك داهمه النوم. وقد تسمرت عيناها الواسعتان نصف المفتوحتين على

الثقوب في ركن الجدار. فمها مملوء بالدم، ويبدو أن حبلاً معقّداً قد انحشر في حلقها.

انحنى المختار وأخذ ينظر إلى عينْي البقرة. بينما جلس إسلام وإسماعيل إلى جانب الجثة. حرّك اسماعيل بقطعة خشب كانت في يده، حبال الدم البارزة من فم البقرة، فانبعث صوت من حلقها، وكأن حلق الحيوان قد انفتح وغاص فيه عدد من الحبال وهي تقرقر.

قالت زوجة الحاج حسن: «أترى يا مختار المصيبة التي حلّت بنا؟ أترى يا إسماعيل، أترى يا حاج إسلام، أترى سوء بختنا؟ أترى؟».

قال المختار: «الآن وقد تمّ الأمر، ماذا يستطيع المرء أن يفعل؟».

قال إسلام: " «نعم، لقد فات الأوان، الآن يجب أن نحرص على ألا يسبب الأمر صدمة للحاج حسن».

سعل إسماعيل وقال: «إن الحاج حسن، لن تقوم له قائمة بعد اليوم».

قال الحاج جبار: «الله يلطف ويرحم!».

جلست زوجة الحاج حسن وقد استندت بظهرها إلى الدعامة وراحت تبكي.

التفت إسلام ونظر إلى زوجة الحاج حسن، ثم قال يخاطب إسماعيل: «قل لها: لا تبكي، قل لأختك أن لا تفعل شيئاً يجعل الحاج حسن يعرف».

مضى إسماعيل وجلس قبالة الحاجة طوبا. استخرج غليونه، فعَمَّره، وقال: «يا أختي، إن الحاج إسلام يقول: لا تبكي، والمختار

كذلك يقول: لا تبكي. لا تفعلي شيئا يجعل الحاج حسن يشمّ رائحة الأمر. خذي هذا كي تعودي إلى حالتك الطبيعية».

ابتلعت زوجة الحاج حسن شهقاتها وتناولت الغليون من يد إسماعيل. عاد إسماعيل إلى الرجال. دار المختار حول جثة البق وقال: «ليت عدّة رجال آخرين جاؤوا معنا».

قال إسلام: «إلى أين تريد أن نحملها؟».

قال الحاج جبار: «نسلخ جلدها أولا ثم نحملها».

قال إسلام: «الحاج حسن متى يعود؟».

قالت زوجة الحاج حسن وهي تشهق: «اليوم يأتي. اليوم يأتي حتماً».

جلس إسلام بجانب الجدار، خلع قبعته وتحسّس رأسه وقال: «لن نسلخ جلدها .. سوف يصل على حين غرّة، وعندئذ تزداد الأمور سوءاً».

قال إسماعيل: «ما دمت أنت تقول ذلك، فلن نسلخها».

قال الحاج جبّار: «إلى أين نحملها؟».

قال المختار: «يقول حقاً».

قال عبّاس: «ننقلها إلى الوادي ، ونتخلص منها».

قال إسلام : «كلاّ، الوادي ليس مناسباً. سيذهب إلى هناك ويجدها».

سعل المختار وقال: «نعم، فالحاج حسن يعبر الوادي كل يوم ويذهب الى الحقل».

قال إسلام واسماعيل معاً: «كلاّ، لن نأخذها إلى هناك».

سعل المختار مرّة أخرى وقال: «يا حاج إسلام، أليس من الأفضل أن نأخذها إلى شور؟».

قال إسلام: «شور؟ تقصد القول أننا سنأخذها إلى هناك؟».

قال المختار: «نعم، أليس ذلك أفضل؟».

فكّر إسلام وقال: «كلاّ، أنت تعرف يا مختار، أن الأقاويل ستدور في كل مكان، وفي النهاية سيبلغ الخبر مسامعه»

قال المختار: «الآن، ماذا نفعل؟»

نهض إسلام، فأزاح الآجر الذي يسدّ فتحة جدار الزريبة انهمرت أشعة الشمس على مخزن التبن وجثة البقرة.

استقام حال زوجة الحاج حسن، لفت عباءتها حول وسطها، وسعلت.

قال إسلام: «سيدتي الحاجة، أين بالوعة بيتكم؟».

استدارت زوجة الحاج حسن وقالت: «في ذلك الركن». وأشارت إلى حيث مخزن التبن.

قال إسلام : «طيب جداً، سوف نلقي بها في بئر البالوعة».

ثم نهض فخلع طاقيته ووضعها فوق كومة التبن. كما نهض الرجال كذلك. قال إسلام لموسرخه: «أركضْ، اجلب المجرفة والفأس من بيت المختار».

انطلق موسرخه خارجاً كالريح. نهض الرجال جميعاً، وضعوا طواقيّهم فوق كومة التّبن ثم تحلّقوا حول الجثة.

كان ثمة شيء يصفر في حلِق البقرة. حين نظروا إليها، رأوا حبال الدّم التي برزت من جديد، قد ملأت فم البقرة.

– ٤ –

تكوّن من التراب الذي احتفروه تلّة تشبه جَملاً ضخما.

ألقى إسلام بحجر في بئر البالوعة. أنصت الرجال جميعاً، ثم نهضوا واتجهوا نحو الجثة.

قال إسماعيل: «هل نستطيع رفعها؟».

قال الحاج جبّار: «صحيح، ما يقوله، هل نقوى على رفعها؟».

قال إسلام: «لن نرفعها، سوف نسحبها كما هي وندنيها من حافة البئر»

أمسك الرجال الخمسة بالجيفة من ذيلها وقائمتيْها الخلفيّتيْن وجرّوها حتى حافة البئر. وقف إسلام وإسماعيل وموسرخه على طرف من حافة البئر، والمختار والحاج جبّار وعباس على الطرف الآخر. وضعوا ذيل الجيفة وقائمتيْها الخلفيتين فوق فتحة البئر.

قال إسلام: «انتبها كلاكما، وسوف أدفعها أنا وإسماعيل من فوق».

جلس المختار وعباس على حافة فتحة البئر، ووضعا أرجلهما على كفل الجيفة وانتظرا.

صعد إسلام وإسماعيل وموسرخه، ودفعوا الجيفة إلى أمام قليلاً.

قال إسماعيل: «حاذرا أن تقعا أنتما!».

خاف المختار وعباس وتراجعا قليلاً. تقدّمت الجيفة مرة أخرى.

دفعوا مؤخرتها بأرجلهم في البئر، وحين صار نصفها متدلّيا فيه، نهض المختار وعباس وانضمّا إلى إسلام وإسماعيل وموسرخه وانهمك الخمسة في العمل. وكلما تقدّموا تدلّت الجيفة في البئر بسهولة أكبر، وحين بلغوا حافة البئر أطلقوا القائمتين الأماميّتيْن. هوت البقرة في البئر وقائمتاها الأماميّتان مرفوعتان عالياً وعيناها مفتوحتان. انحنى الخمسة فوق فتحة البئر وأطلّوا في جوفه. تصاعد من العتمة صوت همهمة، تلاه صوت ماء يتدفق ويقرقر كما لو أن قربة ماء قد فتح فمها، فظلّت تدفق بالماء حتى فرغتْ.

— ٥ —

حين دخل الحاج حسن بيته كان عباس واخته جالسين عند زوجة الحاج، يتبادلون - ثلاثتهم - أطراف الحديث. وضع الحاج حسن خرجه على الأرض، وخلع نعليه وألقى بهما أمام النافذة. تبادل المجاملة مع عباس، ثم قال لزوجته: «هل سقيْت البقرة؟».

لم تجب الحاجة طوبا.

قال الحاج حسن: «إذا غبُت يوماً عن هذه الخاربة كان على الدابة ان تزهق روحها من العطش؟».

وتناول السطل الفارغ من على المصطبة وخرج مهرولاً إلى ضفّة البركة. كان إسلام قد فرغ من غسل عربته وانهمك في شدّ محاملها، حين أبصر الحاج حسن، فسلّم عليه وقال: «متى جئت يا حاج حسن؟».

قال الحاج حسن: «لقد جئت توا . المرأة الفاسدة لم تَسْقِ البقرة ..

إن دابة الله تلفظ أنفساها من العطش».

ترك إسلام العربة واتجه نحو الحاج حسن وسأل: «لم تَسْقِ البقرة؟».

قال الحاج حسن: «نعم .. إنها تلفظ أنفاسها».

قال إسلام: «أأنت رأيت البقرة؟».

قال الحاج حسن: «كلاً، لم أرها. ولكني أعلم في أية حالة هي».

قال إسلام: «فهل هي لم تقُلْ لك؟».

ملأ الحاج حسن السطل من ماء البركة وقال: «لم تقلْ لي ماذا؟».

سعل إسلام وقال: «على أية حال، لقد ذهب إسماعيل يبحث عنها».

قال الحاج حسن: «عمّن ذهب يبحث اسماعيل؟».

ثم مضى نحو بيته مستعجلاً. قال إسلام وهو يمشي بمحاذاة الحاج حسن: «عن البقرة .. أفهلْ لم تقلْ لك إنها قد هربت ليلة أمس؟».

توقف الحاج حسن وسأل: «من الذي هرب؟».

قال إسلام: «على أية حال لم يحدث شيء ذو بال .. فلا شك في أنها في هذه النواحي .. ومهما يكن فسوف يعثرون عليها».

قال الحاج حسن: «من الذي هرب؟ إسماعيل؟».

قال إسلام: «كلاً، البقرة، بقرتك هربت».

شرع الحاج حسن بالرّكض، والماء يندلق من حواف السطل فيبلّل قدميه وأطراف سرواله، ثم قال في صرخة متصلة: «هذا كذب. البقرة لم تهرب. إن بقرتي لا تهرب».

بلغا حافة الزريبة فوقفا. وضع الحاج حسن سطل الماء على الأرض، فكّر لحظات ثم تحسّس ساقيْ سرواله المبلّلتيْن بيده، ثم فتح باب الزريبة وأخذ يتشمّم الرائحة وعيناه مغمضتان، ثم قال: «لم تهرب. إن بقرتي لم تهرب. إنها هنا .. إنها هنا».

قال إسلام: «نعم يا حاج حسن، نعم لا تعكر صفو دمك، البقرة لم تهرب».

أدار الحاج حسن ظهره لباب الزريبة وقال: «نعم، إنها هنا، هل تشمّ رائحتها؟ إنها هنا. يا حاج إسلام، ألا تريد أن تقدّم لها هذا الماء؟».

تقدّم إسلام وقال: «بلى، بلى، سف أقدّمه لها». تناول سطل الماء ودلف إلى الزريبة. ظلّ الحاج حسن على وقفته تلك دون أن يجرؤ على الاستدارة والنظر إلى الزريبة. سمع وقع قدميْ إسلام وهو يتقدم من مخزن التبن، وسمع صوت البقرة وهي تمدّ خطمها داخل سطل الماء.

عندما خرج إسلام كان الحاج حسن ما يزال واقفاً وظهره إلى الباب وهو يبكي من الفرح.

– ٦ –

عند الغروب جاء إسلام والمختار والحاج جبّار وعباس وموسرخه إلى بيت الحاج حسن. وقفوا أمام الباب يتقدّمهم الكلب باباخ وعنزة إسلام السوداء. وحين أبصرتهم زوجة الحاج حسن عدَتْ نحو الباب حافية القدميْن.

قال إسلام: «جئنا نزور الحاج حسن. أهو في حالة طيّبة؟».

اقتربت منهم زوجة الحاج حسن وأشارت لهم أن يخفضوا من أصواتهم.

سأل إسلام ثانية: «ماذا يفعل؟».

قالت زوجة الحاج حسن: «لا شيء .. انه يقول إنّ بقرته ما ضاعت، يقول إن بقرتي لا تضيع، ولا تهرب، وهي هنا .. إنكم تكذبون عليّ».

سأل المختار: «أما دخل الزريبة؟».

قالت زوجة الحاج حسن: «كلا، لم يدخلها، وها هو جالس على سطح الزريبة، هل ترون؟».

نظر الرجال إلى سطح الزّريبة فرأوا الحاج حسن جاثماً هناك محتضناً ركبتيْه وظهره إليهم.

قال إسلام: «طيّب، ماذا نفعل الآن؟».

قال المختار: «نروح فنتحدّث معه».

قال إسلام: «نعم، نذهب ونقول له إن بقرته ليست هناك».

قالت زوجة الحاج حسن: «إنه دائم الجلوس هناك. يضحك تارةً ويبكي طوراً. ويقول : «بقرتي هنا .. إنكم تكذبون».

أشار إسلام للمختار. دخلت المجموعة باحة البيت، وصعدوا جميعاً تلّة التراب الماثلة في جوار الزريبة. اصطفّوا على حاشية السطح وهم يستطيلون بأعناقهم. استدار الحاج حسن وحين رأى صفّ الرؤوس داخله الخوف في البداية ولكنه عندما أمعن النظر فيها زحف متقدما بهدوء ثم جلس وهو مرتكز على يديه وركبتيْه وقال: «يا حاج إسلام،

إنك انســان سيّء. منذ متى وأنت تعاديني؟ ما هذه الفعلة التي فعلتها؟».

ثم التفت إلى المختار وقال: «يا مختار قل له هل يعاديني وهل قتلت أباه؟ اسأله هذا. إسأله لماذا كذب عليّ في وضح النهار؟ إنّني ما أسأت اليه حتى الآن. لقد قال لي عند البركة إن البقرة قد هربت وأنا أعلم أنه يكذب. يريد أن يخيفني. كيف تستطيع بقرتي أن تهرب؟ تهرب، إلى أين تستطيع أن تذهب؟».

قال المختار: «نعم يا حاج حسن. أنت تعرف أنّ الحاج إسلام لا يكنّ لك العداوة. إنه لا يكنّ العداوة لأحد. إنه يقول صدْقاً. لقد هربت بقرتك: ثم ألا تتساءل أين هي البقرة؟ ألا تسأل أين الحاج إسماعيل؟».

قال الحاج جبّار: «لقد ذهب الحاج إسماعيل يبحث عن البقرة ويعثر عليها».

قال عباس: «هيّا، ان كنت تريد، إذهب وطُفْ بالقرية كلها، إنّك لن تستطيع العثور على الحاج اسماعيل».

قال موسرخه: «لقد ذهب الحاج إسماعيل ليجد البقرة».

علت شهقات البكاء التي كانت ترسلها زوجة الحاج حسن وهي واقفة في باحة البيت.

تراجع الحاج حسن مذعوراً وقال: «كذب .. إن بقرتي هنا. بقرتي لم تهرب. إنني أعرف رائحتها. انها لم تخرج من هنا».

قال إسلام: «إذا كانت بقرتك لم تهرب، وإذا كانت في الزريبة

فلماذا لا تذهب إليها؟».

قال موسرخه: «اذهب إل بقرتك يا حاج حسن».

قال عبّاس: «إذهب إليها يا حاج حسن».

قال الحاج جبّار: «حقاً، اذهب، لماذا جلست هنا؟».

تراجع الحاج حسن وجلس عند الطرف القصيّ لفتحة السطح وقال: «إنني لن اهبط من هنا .. سوف أبقى هنا».

قال المختار: «لماذا لا تهبط؟».

قال الحاج حسن: «أخاف إذا هبطتُ و ...».

قاطع الحاج جبار كلامه قائلا: «ورأيت أن بقرتك غير موجودة ..»

صاح الحاج حسن: «كلاّ، كلاّ، البقرة موجودة. إنّي أعرف. إنّي أعرف».

قال عباس: «إذن فماذا جلست تفعل هنا؟».

اضطرب الحاج حسن أيّما اضطراب وقال: «لا شيء أبداً. لقد جلست هنا أنظر إلى ذاك .. إنكم ترون .. ها هو يصعد من بوروس».

استدار صفّ الرؤوس ونظر الرجال إلى القمر وهو يعلو فوق قرية بوروس مثل طيارة الورق.

ضحك الحاج حسن وقال: «نعم، ها أنا هنا. فامضوا، امضوا إلى شؤونكم. إنّي منتظر هنا إلى أن يعلو ذاك، فأنزل وأقدّم لها الماء».

هبط صفّ الرؤوس من على حاشية السطح، وتعالت شهقات (عيال) الحاج حسن في باحة البيت من جديد.

- ٧ -

في أواخر الليل، كان خوار بقرة لا يكلّ، يطوف حارات بَيَل ويحرم الجميع من هجعة الكرى.

كان عباس وأخته، وإسماعيل الذي كان مختبئا في بيتهما، قد أطلعوا رؤوسهم من النافذة وراحوا ينظرون إلى البركة ويطالعون السّوادة الصغيرة التي كانت تتنقّل على صفحة ماء البركة، كما كان البَيَلَيّون الآخرون قد اقتعدوا عتبات النوافذ وأخذوا ينظرون إلى البركة وإلى السّوادة الكبيرة التي كانت تعدو في الحارات وهي تخور خوار البقر.

عندما انبلج الصبح جاء الحاج حسن من الحقول يعدو وهو يتصبّب عَرَقاً ويخور خوار الأبقار، فاتّجه نحو بيته، ومضى من فوره إلى الزريبة ومخزن التّبن.

فتحت الحاجة طوبا النافذة، وصعدت إلى سطح الزريبة، وحين نظرت من فتحة سقفها رأت الحاج حسن قد غاص برأسه في مخزن التّبن وهو يضرب الأرض بقدميه ويخور مثل خوار بقرته عندما كان يعود بها من الحقول.

- ٨ -

جاء إسلام والمختار والحاج جبار وعباس وموسرخه إلى بيت الحاج حسن وباباخ في أثرهم. وعندما أبصرت زوجة الحاج حسن الجماعة فتحت الباب نصف فتحة وقالت: «لقد جاء ودخل في الزريبة، وهو يخور مثل البقر».

قال المختار: «كان الله في عونه».

قال عباس: «لنذهبْ وننظر ماذا يفعل».

قال إسلام : «الحقّ معه .. مهما يفعل الحاج حسن فالحقّ معه .. فقد انهار وتحطّم».

أخذت زوجة الحاج حسن بالبكاء. راح الرجال فتجمعوا عند باب الزّريبة وأخذوا ينظرون إلى الحاج حسن الذي كان واقفا فوق بئر البالوعة وقد أدخل رأسه في مخزن التبن وهو ينقّل قدميه على الأرض.

قال المختار: «يا حاج، يا حاج حسن انظرْ، أنظر ماذا أقول لك».

قال عباس: «أنظر يا حاج، ان المختار يقول إنه قد تم العثور على بقرتك».

قال إسلام: «تكلّموا على مهل، لا تتكلموا باستعجال، فأنتم ترون أنّ حالته ليست طبيعيّة».

قال عبّاس: «يا حاج حسن، المختار يقول إن إسماعيل قد عاد وأنّه قد عثر على البقرة وأحضرها».

أخرج الحاج حسن رأسه من مخزن التّبن، كان وجهه أحمر محتنقاً و عيناه الكليلتان المضطربتان تدوران في محجريْهما. وفمه مملوء بالعلف الذي كان يمضغه. نظر إلى الرّجال ودمدم دمدمة مكتومة ثم أعاد رأسه إلى داخل مخزن التّبن.

قال عباس: «على هذا النحو لا يمكن الحديث إليه».

قال الحاج جبار: «أما جرى له شيء يا حاج إسلام؟».

سعل المختار وقال: «لماذا يفعل هكذا يا حاج إسلام».

فكّر إسلام وقال: «أخشى على الحاج حسن أن يتلاشى. إنه آخذ في التّحول إلى بقرة بالتّمام والكمال».

خاف موسرخه فتراجع وتراجع وقال: «بقرة؟».

قال إسلام: «نعم، بقرة!».

قال المختار: «ماذا نفعل؟».

قال إسلام: «ماذا نفعل؟ ندخل، لعلّنا نستطيع أن نفعل له شيئا».

التفت عباس إلى موسرخه وقال: «لا تخفْ. إنّ الحاج حسن ذاته. مايزال هو ذاته، تعال، أدخلْ»

فتح إسلام باب الزريبة. دخل الرجال واحداً و احداً. صعدت زوجة الحاج حسن إلى السطح، جلست وأخذت من فتحة السطح تحملق بالرجال الذين جلسوا في صفٍّ واحد بجانب دعامة الزريبة في مواجهة الحاج حسن.

– ٩ –

كانت أخت عبّاس تنقّي القمح وقد جلس إسماعيل أمام النافذة ينظر إلى بيت أخته وينتظر عودة الرجال.

قالت أخت عباس: «هل تعتقد أنه سوف يتحسّن ويعود إلى حالته الأولى؟».

قال إسماعيل: «الله أعلم. ولكني أعلم أن الحاج حسن يحبّ بقرته أكثر من أختي بكثير».

قالت أخت عباس: «البيَليون كلهم هكذا».

قال إسماعيل: «لم أعدْ أطيق، لأنهضْ وأذهبْ. فما دام الحاج حسن لا يخرج من البيت ويتجول فكيف يعثر بي؟».

قالت أخت عباس: «الآن سوف أحضّر الهريس، فكل ثم اذهبْ».

ضحك إسماعيل وقال: «لن تدعيني أذهب حتى آكل الهريس؟»

قالت أخت عباس: «إذا أكلت الهريس أذنت لك بالذهاب».

ضحك إسماعيل ولم يقل شيئاً. كما لم تقل أخت عباس شيئا. وبعد أن أتمّت تنقية القمح ونهضت لتذهب سألت: «يا حاج إسماعيل، أنت متى تريد أن تتزوّج؟ فقد شاب شعرك».

قال إسماعيل: «تجمّلي بالصبر .. اليوم أو غداً سوف أرسل لك أختي».

احمّر وجه أخت عباس فضحكت وقالت: «إنّك تحبّ الهريس، أليس كذلك؟ وماذا عن بيض الدجاج؟».

- ١٠ -

عاد الحاج حسن فنظر إلى الرجال الذين اصطفّوا جالسين أمام دعامة الزريبة. كان القشّ المهشّم يتدلى من زوايا فمه.

سعل إسلام، وقال وهو يختار كلماته بعناية: «السلام عليكم يا حاج حسن، لقد جئنا نطمئنّ على أحوالك، هل أنت في صحّة جيّدة وعلى خير ما يرام؟».

قال الحاج حسن وهو ما يزال يمضغ العلف الذي اجترّه: «إني لست الحاج حسن. إنّي بقرة. أنا بقرة الحاج حسن».

خاف موسرخه وتراجع منسحباً.

قال المختار: «لا تقل مثل هذا الكلام يا حاج حسن. إنك الحاج حسن ذاته. ألسْتَ كذلك؟».

ضرب الحاج حسن الأرض بقدمه وقال: «كلاّ، لستُ كذلك. إنني بقرة الحاج حسن».

قال الحاج جبار: «يا حاج حسن لا تقل هذا الكلام، فلو درى به البوروسيّون لجاءوا وسرقوك».

ضحك عباس والمختار. أما إسلام فقد حدجه بنظرة صارمة. وتراجع موسرخه وتوارى يختبيء خلف إسلام.

مضغ الحاج حسن العلف الذي في فمه وقال: «كلاّ، كلاّ، إن البوروسيّين لا يستطيعون المجيء الى هنا، فالحاج حسن جالس هناك فوق السطح يحرسني».

قال المختار: «يا حاج حسن استحلفك الله أن تدع هذا، ... ما هذه المحنة التي خلقتها لأهل بَيَل؟ إنك لست بقرة، انك الحاج حسن!».

ضرب الحاج قدمه بالأرض وقال: «كلاّ. لستُ الحاج حسن، لقد ذهب الحاج حسن يشتغل في سيّد آباد. إني بقرة الحاج حسن».

قال المختار: «لا إله إلاّ الله. طيّب أيّ بقرة أنت يا حاج حسن، ماذا فيك من البقر؟ طيب أين ذنبك؟».

هبّ الحاج حسن ناهضاً فجأة، ومثل المجانين أخذ يعدو في الزريبة بقفزات واسعة، وبعد كل بضعة أقدام ينطح الجدار برأسه ويخور، حتى بلغ مخزن التبن فوقف وصدره يعلو ويهبط. ثم أدخل رأسه في مخزن التبن فملأ فمه بالعلف، ومضى ليقف فوق بئر

البالوعة، حيث كان إسلام قد نثر القشّ. ثم قال بصوت خرج من حلقه بصعوبة «ألا يمكن أن أكون بقرة إذا لم يكن لي ذيل؟ ألا تعترفون بي؟ ألست بقرة بدون ذنب؟ بدون ذيل لا تعترفون بي؟».

وشرع يضرب الأرض بقدميه.

قال إسلام: «يا بقرة الحاج حسن، استمعي، وتدبّري ما أقول:«فجر أمس وقبل أن تشرق الشمس جاءت زوجة الحاج حسن إلى ضفّة البركة فبكت وأعولت وقالت: إن بقرة الحاج حسن قد وقعت ميّتة. جئت أنا والمختار وإسماعيل وهذا الصبّي إلى هذا المكان الذي تقفين عليه، نفس المكان الذي أنتِ فيه تماماً، فحفرنا وألقينا ببقرة الحاج حسن فيه. فإذا كنت بقرة الحاج حسن فينبغي أن تكوني الآن في ذلك البئر، وإلاّ فأنت الحاج حسن ذاته. أليس كذلك؟».

شرع الحاج حسن من جديد يعدو داخل الزريبة، ولكن بسرعة وعصبيّة هذه المرّة. ثم بصق كل ما في فمه وانخرط في الصّراخ: «هاي يا حاج حسن .. هاي يا حاج حسن .. هاي يا حاج حسن! تعال إلى هنا! لقد انهال البوروسيّون ودخلوا إلى بوروس .. يريدون أن يذبحوني ويلقوا برأسي في البئر .. هاي يا حاج حسن .. هاي يا حاج حسن!».

نهض الرجال واقفين.

قال إسلام: «طيب، طيب، يا بقرة الحاج حسن .. ها نحن منصرفون. لسنا بوروسيّين. أنا إسلام وهذا أيضاً هو المختار، وهذان هما عباس والحاج جبّار. وذلك الصبي تعرفه .. ها نحن

ذاهبون فنامي أنت في الزريبة. هل تريدين شيئا أحضره لك؟».

هدأ الحاج حسن واغتبط واجترّ وقال: «أحضر لي علفاً، أحضر لي فصفصة، أحضر لي قشاً، أحضر لي ماء، ماء».

ثم انخرط في الخوار، الخوار الذي تطلقه الأبقار حين تكون عطشى.

- ١١ -

عند منتصف الليل خرج ثلاثة بوروسيّين من القرية، وقد ألقوا على ظهورهم حبالاً وشدّوا إلى أوسطاهم سكاكين.

قال البوروسي الأول: «إلى أية جهة نسير؟».

قال البوروسي الثاني: «نذهب إلى بيَل».

قال البوروسي الثالث: «نعم، نذهب إلى هناك. نذهب إلى بيَل».

قال الأول: «ولماذا نذهب إلى هناك. إنّنا لن نطال شيئا».

قال الثاني: «اليوم، كانوا يقولون في خاتون آباد أنّ بقرة الحاج حسن قد نفقت».

قال الأول: «وماذا نفعل لها؟».

قال الثاني: «نذهب فنسلخها».

قال الأول : «ألم يسلخوا جلدها، هم أنفسهم؟».

قال الثاني: «يقولون في خاتون آباد إنهم قد ألقوا بها بعيدا دون أن يسلخوا جلدها».

قال الأول: «لنذهبْ اذنْ، كي نبلغها قبل أن يقترب منها أحد الوحوش».

قال الثاني: «لنذهبْ فنبحث عنها ونعثر عليها».

قال الثالث: «تذكّرت: لقد أخبرني شخص في جاميشان بأن البقرة ما تزال في الزريبة».

قال الأول: «لا شيء أفضل من ذلك. لنذهب إذن».

قال الثاني والثالث كذلك: «لنذهب».

سار الثلاثة بحبالهم وسكاكينهم نحو بَيَل، وهم يجتازون الحقول تجنّبا للدروب المطروقة واختصاراً للمسافة.

– ١٢ –

حين وصل البوروسيون إلى بَيَل كان الليل حالك الظلمة. أشهروا سكاكينهم وتسلّلوا داخلين إلى القرية من جنب حديقة الإقطاعي. رفع باباخ – الذي كان نائما على سور الحديقة – رأسه وحين أبصر أشباحهم نبح ووثب هابطاً عن السور، ثم مضى حتى بلغ أمام بيت إسلام حيث أخذ يبحث ويخمش التراب.

أطلع إسلام الذي كان مؤرقاً، رأسه من فتحة المخزن الخلفي للبيت ونظر إلى سطح البيت المجاور. ثم نهض واقترب من النافذة. هزّ باباخ ذيله وصمت. سمع إسلام خشخشة البوروسيّين فتنحّى جانباً، ثم اختبأ خلف حافة النافذة. أخرج الحاج صفر رأسه من فتحة السقف وأخذ يطالع البركة. قام إسماعيل وأخت عباس اللذان كانامختبئين خلف جدار. كان البوروسيون مثل ثلاثة أبرا ج مظلمة. وهم يتقدمون من عند ضفة البركة.

قال إسماعيل: «هل ترين؟».

قالت أخت عباس هامسة: «من هؤلاء؟».

ابتلع إسماعيل ريقه وقال: «البوروسيون، البوروسيون!».

سألت أخت عباس مذعورة: «بوروسيون؟». ثم فرّت هاربة وهي تسير منحنية بمحاذاة الجدار، فذهبت إلى البيت، وراحت تهزّ عبّاس الذي كان نائماً بجانب النافذة وهي تقول: «عباس، عباس، لقد تقاطر البوروسيون على القرية».

نهض عباس وتطلّع. انعطف البوروسيون يدخلون الزقاق. وعندما بلغ عباس وإسماعيل الزقاق وهما يحملان العصيّ، كان إسلام وابن الحاج صفر قد جاءا متسللين وكل منهما يحمل ماسورة. كما ظهر الحاج جبّار ومشدي بابا. وهكذا سار البَيَليّون.

مضى البوروسيون وسكاكينهم في أيديهم حتى اقتربوا من بيت الحاج حسن ووقفوا هناك.

قال البوروسي الأول: «هنالك جلبة».

قال البوروسي الثاني: «نعم، هنالك صوت أنفاس بقرة».

قال البوروسي الثالث: «إذن فهي بقرة حيّة».

قال الأول: «حُلاّ الحبال. نكمم فمها ونسحبها خارجاً».

حل البوروسي الثاني والبورسي الثالث الحبال.

قال الأول: «ادخلا أنتما، وأنا سأتولّى المراقبة من هنا».

أشرع سكينه ووقف. استدار البوروسي الأول والثاني ونظرا خلفهما، فرأوا البَيَليّين وقد اصطفوا من خلفهم والعصيّ في أيديهم، أجفل البورسيان وتسمّرا في مكانيهما. كما استدار البوروسي الأول

حامل السكين ووقف هو الآخر.

هبّت زوجة الحاج حسن من نومها، وقد كانت نائمة فوق سطح الزريبة، واعتدلت جالسة. أخذ الحاج حسن يئنّ داخل الزريبة. هجم البَيليون والعصيّ في أيديهم . وثب البوروسيّون يصعدون تلة الأتربة القائمة خلف الزريبة ومن هناك إلى سطح بيت الحاج حسن، وقبل أن يبلغهم البيليّون ألقوا بالحبال ورفعوا السكاكين.

صاح إسلام: «لا تدعوهم يفلتوا».

هجم الرجال وهم يصرخون. صرخت زوجة الحاج حسن من الهلع. وقبل أن يبلغ الرجال السطح كان البوروسيون قد قذفوا بأنفسهم في حديقة الاقطاعي وحين بلغ البَيلَيّون طرف الجدار، كان البوروسيون قد انطلقوا كالريح من أطراف القرية واختفوا في البرّية.

خرج المختار يحمل فانوساً فرأى الرجال فوق السطوح والعصيّ في أيديهم. تقدم على عجل، وحين عثر على إسلام سأل بلهفة: «مالخبر، ماذا حدث يا حاج إسلام؟».

قال إسلام: «لا شيء، لا شيء .. كان البوروسين قد جاؤوا ليسرقوا الحاج حسن».

– ١٣ –

عندما ذرّت الشمس قرنها، برز إسلام بعربته المملوءة بالفصفصة من وراء حديقة الاقطاعي، في طريقه نحو ضفّة البركة.

كانت أخت عباس جالسة إلى جوار حجر غسل الموتى الأسود تشطف الأواني بالماء. كان النسيم الهادىء يهبّ فيحرّك أوراق الفصّة.

استخرج إسلام السطل من أسفل العربة، فملأه من ماء البركة وأدناه من فم الحصان. أخذ الحصان يعبّ الماء. أطلعت عنزة إسلام رأسها من النافذة وألقت نظرة ثم انثنت للداخل من جديد. علّق إسلام السّطل في أسفل العربة، ثم صعد على عجلة العربة وأخذ ملء حضن من الفصّة الطازجة التي كانت مرصوصة داخل سلّة كبيرة، وهبط إلى الارض. اجتاز الزقاق الأول حتى بلغ بيت الحاج حسن. كانت زوجة الحاج حسن جالسة فوق سطح الزريبة، وهي غافية وقد غطت وجهها.

نحّى إسلام باب الزريبة جانباً وقذف بالفصة إلى داخلها وانقلب راجعاً، كان خوار بقرة مشدي بابا التي صحت من النوم لتوّها يسمع آتياً من بعيد.

- ١٤ -

برز إسلام عند المغيب، بعربته الفارغة، من وراء حديقة الاقطاعي ماضياً نحو ضفة البركة. كانت النساء جالسات في مواجهة بيت بابا علي، وابن الحاج صفر يجذب جيفة طائر بعصا ليخرجها من البركة. قاد إسلام عربته إلى مقدّمة بيته. خرجت العنزة السوداء من البيت فنظرت إلى إسلام أولا ثم إلى العربة، ثم مضت نحو الحصان. أطرق الحصان برأسه وأغمض عينيه. خلص إسلام السطل الفارغ من الكلاّب القائم اسفل العربة ومضى به فملأه من البركة. اجتاز الزقاق الأول حتى بلغ منزل الحاج حسن. كانت زوجة الحاج حسن جالسة فوق سطح الزريبة وهي غافية وقد غطّت وجهها.

نحّى إسلام باب الزريبة جانباً ودخل. كان ثمّ نسيم بارد يهبّ من

داخل، فيحمل معه إلى الخارج أنّات بقرة هدّها التّعب.

- ١٥ -

كان إسلام والمختار والحاج جبار وعباس وموسرخه، جالسين في المقبرة بجانب صخرة كلسيّة.

قال المختار: «والآن ماذا سنفعل له؟».

قال عباس: «يجب أن نفعل له شيئاً».

قال الحاج جبار: «إنه ما عاد ينطق».

قال إسلام: «وحين تتحدث معه يُصدر خوار بقرة».

قال موسرخه: «ما أسرع ماتعلّم لغة البقر».

حدجه المختار بنظرة صارمة. لاذ موسرخه بالصمت وانسحب متراجعاً.

قال الحاج جبار: «وهو دائم التغذي على الفصّة والعلف».

قال اسماعيل: «أخشى أن تتقرح معدته وأمعاؤه».

سعل المختار من جديد وقال: «ماذا نفعل يا حاج إسلام؟».

قال إسلام: «نأخذه إلى المدينة».

قال إسماعيل: «ماذا نفعل من أجله؟».

قال إسلام: «يجب أن نأخذه إلى المستشفى. لقد أعيتنا الحيلة. أمّا هم فسوف يفهمونه أنه هو ذاته، ولم يصبح بقرة».

قال الحاج جبار: «بأيّة واسطة نأخذه؟».

قال إسلام : «بالعربة».

قال موسرخه: «إنه لا يمكن أن يركب العربة، فالبقرة مالم يُقطع رأسها لا يستطيع أحد أن يركبها في عربة».

التفت إسلام إلى موسرخه وقال له: «إذا لم يركب العربة، عندئذ نذهب راجلين ونأخذه».

قال الحاج جبار: «طيّب، أخذناه إلى المدينة، ورفض المستشفى استقباله، عندئذ ماذا نحن فاعلون؟».

ضحك إسماعيل وقال: «صحيح ما يقوله، فماذا لو قالوا لنا إنهم لا يستقبلون أبقاراً؟».

قال المختار: «الحاج إسلام أخبر منّا، وعلينا أن ننفّذ كل ما يقوله».

سعل الحاج جبار وقال: «إذا لم يتقبلّوه نرجعه إلى هنا».

قال المختار: «ما قولك يا حاج إسلام؟».

قال إسلام: «نعم، سوف يأخذه إلى المدينة ثلاثة أشخاص».

قال المختار: «أيّ ثلاثة أشخاص؟».

قال إسماعيل:: «ثلاثة أشخاص يستطيعون تدبّر أمره».

قال إسلام: «ليس مشدي بابا على وفاق معه، وهو لن يأتي».

قال المختار: «لا يَأْتِ مشدي بابا».

قال عباس: «أذكروا أسماء من سيأتون».

قال إسلام: «أنا والمختار والحاج جبار، نأخذه نحن الثلاثة».

فكّر المختار وقال: «أنا سآتي. ماذا عنك يا حاج جبّار؟ أتأتي أنت أيضا؟».

قال الحاج جبار: «آتي طبعاً. وتأتي زوجة الحاج حسن كذلك إلى بيتي كي لا تبقى (عيالي) وحدها».

قال عبّاس: «ما يقوله صحيح، إذ لا يجوز ترك العروس الجديدة بمفردها».

قال المختار: «أصبحت الأمور جاهزة إذن».

قـال إسـلام: «لننهض الآن فنحـضـر لنا ثلاثة حـبـال. وحين يـحلّ الظلام نتوجّه إليه».

قال المختار: «طيب جداً، حين يحل الظلام، نلتقي أمام الزريبة».

سعل الحاج جبار وقام. كما قام الآخرون كانت الشمس ما تزال ساطعة، وثمة وقت طويل قبل أن يحلّ الظلام.

- ١٦ -

عندما هبط الليل خرج ثلاثة رجال بَيَلَيِّين من بيوتهم بحبال ألقوها على ظهورهم، وصرر من الخبز تحت آباطهم.

عندمـا بلغـوا بيت الحـاج حـسن تعـرف بعـضـهـم على بعض في الظلام.

قال إسلام: «جئتم؟».

قال المختار: «نعم، جئنا».

قال الحاج جبار: «جئت أنا أيضاً».

استدار إسلام نحوه وسأله: «هل أخبرت زوجته؟».

قال الحاج جبار: «نعم، وتمّ الاتفاق على أن تذهب زوجته الى بيتي حالما نأخذه».

قال إسلام: «إذن فقد سارت الأمور على ما يرام، أليس كذلك؟».

فـتحت زوجـة الحـاج حسن النافذة ثم صـعـدت الى سطح الزريبـة وهـي تحمل فانوساً منيراً.

قال المختار: «سوف نأخذ الحاج».

شرعت زوجة الحاج حسن تشهق بالبكاء وجلست على السطح.

قال إسلام: «لنعبْر إلى الداخل».

فتح الحاج جبار باب الزريبة. دخل الثلاثة بحذر. دلّت زوجة الحاج حسن الفانوس من فتحة السطح إلى أسفل، وهي جالسة. أبصر الرجال على ضوء الفانوس الحاج حسن منطرحاً أمام مخزن التّبن مستغرقاً في النوم.

– ١٧ –

كان ثلاثة رجال يسيرون تحت جنح ظلام الوادي وهم يسحبون بقرة ربطوها بالحبال، متجهين نحو الجادة الرئيسية. أحد الرجال يتقدمهم وهو يسحب الحبل والرجلان الآخران يدفعانها من خلف. البقرة تقاوم بجثتها الصغيرة فتتعب الرجال.

كان ثلاثة رجال بوروسيين سكاكينهم على خصورهم يقفون عند قمة الجبل وقد انحنوا يطالعون المشهد الذي يجري في قاع الوادي.

– ١٨ –

عاد إسلام والمختار والحاج جبار إلى القرية مع بداية المساء. كان صوت الدّفوف يتصاعد من القرية.

الرجال جالسون عند ضفّة البركة يدخنون الغليون. عندما أبصر مشدي بابا العائدين نهض فتقدّم من إسلام وقال: «أين أنت يا حاج إسلام؟ أركضْ، أركضْ فأحضر مزمارك* وهيّا اذهب إلى بيت عباس».

* يتحدث الكاتب هنا عن آلة موسيقية تسمّى بالفارسية (ساز)، وهي نوعان: وترية ونفخ. والتي يقصدها هنا وترية. ولكّنا آثرنا ترجمتها بكلمة (مزمار) لسهولة التصرف بها، رغم ان المزمار آلة نفخ. فليعذرنا القارىء الكريم.

سأل إسلام: «ولماذا أحضر مزماري وأذهب إلى بيت عباس؟».

قال مشدي بابا: «إنه عرس إسماعيل، لقد تزوج بأخت عباس».

قال إسلام: «أنا لا شأن لي. لديّ شغل كثير، إني نعسان».

سأل مشدي باب متعجباً: «ماذا؟ ألا تريد أن تعزف المزمار؟ أتدري أنه فأل طيب للعروسين؟».

قال إسلام: «أدري، ولكني لن أعزف المزمار».

مضى مشدي بابا بضعة أقدام في أثر إسلام، ثم رجع وهو ينظر خلفه. افترق المختار والحاج جبار بعضهم عن بعض ومضى كلّ إلى بيته.

قال مشدي بابا: «آها، يا حاج إسلام، ماذا حلّ بالحاج حسن؟».

قال إسلام: «الحاج حسن؟ لم يبلغ المدينة ..»

لم يكمل كلامه. مضى إلى بيته، فاستلقى، ومن نافذة المخزن الخفي للبيت راح يحدّق بسطح الجيران.

خرجت عنزة إسلام السوداء من داخل المخزن. نظرت إلى إسلام، ثم خرجت من النافذة.

نهض باباخ الذي كان مقعياً تحت الصفصافة، ومرّ من بين الجماعة تصحبه عنزة إسلام ومضى إلى الزقاق الأول الذي كان غارقاً في الصمت خالياً من الناس. لم يكن هنالك سوى صوت بكاء زوجة الحاج حسن التي كانت جالسة على سطح الزريبة وحيدة مع فانوسها المضاء، وصوت الدفوف والتصفيق يقترب رويدا رويدا ويشتدّ، وخوار عاجز لبقرة في الزريبة.

القصة الخامسة

- ١ -

كان قد مضى وقت طويل على الظهيرة حين ودّع عبّاس كلاً من ستّار والحاج رحيم ومير حمزة، وخرج من خاتون آباد. كانت أشعة الشمس تسقط على حقول القمح، فكان عباس يتجنّب أشعتها بأن ينظر إلى مواطىء قدميه، وهو في طريقه إلى بَيَل، وحين قطع مئة قدم أحسّ أن أحداً يتبعه لاهثاً متقطع الأنفاس، فكّر عباس: «من هذا الذي يتبعني؟».

توقف واستدار فجأة فرأى كلباً كثيف الشعر ضخماً واقفاً خلفه بشدق مفتوح، ينظر إليه بعينيْن حانيتيْن ويبصبص بذيله.

أشار عباس بالعصا التي معه وصاح يزجره.

التفت الكلب ونظر إلى خاتون آباد، وحرّك ذيله من جديد. تقدم عباس. كان شعر الكلب ساقطاً في بعض المواضع وعلى عنقه أثر لجرح كبير. ورغم شيخوخته فقد كانت له أسنان سليمة قويةٍ وعينان لامعتان واسعتان.

أمسك عباس بأذنيْ الكلب وأدار رأسه نحو خاتون آباد، وضربه على ظهره بعصاه وزجره، وتابع سيره. مشى مئة قدم ثم استدار ونظر مرة أخرى، كان ذو الشعر الكثيف يتبعه بهدوء. وقف عبّاس، كما وقف الكلب. هزّ عباس عصاه وزجره.

عاد الكلب فتراجع عدة أقدام ثم جلس وأخذ ينظر إلى عباس، قال عباس: «ها؟ ما بك؟».

تقدّم الكلب وجلس. قال عباس: «تعال، تعال!».

جاء الكلب عدْواً وهزّ ذيله ثم أقعى على بعد عدة أقدام من عباس.

نظر إلى عباس بحذر أولاً، وحين ضحك عباس وضع الكلب خطمه على الأرض وحرك ذيله سريعاً وهو يثير الغبار.

تقدم عباس، فوضع قدمه على رأس الكلب وقال: «ماذا تريد؟ ها؟».

أغمض الكلب عينيه وهو يهرّ. قال عبّاس: «لماذا تفعل هكذا، أأنت مقبل على الموت؟».

ساط الكلب الأرض بذَنبه مرة أخرى.

أطلّ رأس أحد أهالي خاتون آباد من وراء سور حديقته، نظر إلى عباس والكلب وضحك.

قال عباس: « لمن هذه الجثة؟»

قال الخاتون آبادي «ليس لأحد؟»

قال عباس: «فلماذا يفعل هكذا؟مابه؟».

ضحك الخاتون آبادي وقال: «إنه يبحث عن صاحب. مضى عليه سنة وبضعة شهور منذ تركه مير حمزة. لقد ملّ المسكين من التشرّد، يريد أن يقيم علاقة مع أحد».

أمسك عباس رأس الكلب بكلتا يديه وقال: «لماذا تركه مير حمزة».

قال الخاتون آبادي: «لأنه بعد أن جُرح لم يعد قادراً على العدْو جيداً».

قال عباس: «وكيف جُرح؟».

قال الخاتون آبادي: «ذات ليلة جاء بضعة من أهل بوروس فدخلوا القرية وأخذوا يتسكعون فأرسل مير حمزة هذا الكلب في أثرهم فلم يقصّروا ومزّقوا عنقه بخنجرهم وهربوا».

قال عباس: «وطرده مير حمزة كذلك؟».

قال الخاتون آبادي: «نعم، ولم يعد له صاحب!».

تمدّد الكلب على الأرض ودسّ خطمه في التراب ورفع جفنيه. كان يطالع عباساً الذي غرق في التأمّل.

قال الخاتون آبادي: «خذه ان كنت تحبّ واحمله إلى بَيَل».

قال عباس: «آخذه ، ماذا أفعل به؟».

قال الخاتون آبادي: «خذه، واحتفظ به».

قال عباس: « أخشى أن لا تسمح له كلاب بَيَل».

قال الخاتون آبادي: «الكلاب تسمح له. فإذا لم يسمح له الناس، فاتركه وعندئذ يعود بنفسه ويأتي إلى هنا».

ضحك واختفى وراء الجدار. مشى عباس، فنهض الكلب بدوره ومشى. توقف عباس وزجره.

وضع الكلب خطمه على الأرض وهرّ ملتمساً. قال عباس: «انهض، انهض وامش معي يا قليل الحياء».

مشيا جنباً إلى جنب. حين بلغا شور كانت الشمس على وشك المغيب. جلس عباس على صخرة ضخمة وبسط منديله كي يأكل شيئاً. راح الكلب الخاتون آبادي بدوره فجلس على مرتفع وأخذ يرمق بَيَل.

- ٢ -

حين اقتربا من بَيَل توقف الخاتون آبادي وتطلع قدّامه بحذر، ثم انسحب واختبأ خلف عباس. قال عباس: «ما بك؟».

سُمع صوت باباخ قادماً من الجهة المقابلة. قال عباس: «لا تخفْ، لا شأن له بك».

وقفا معاً وانتظرا. جاء باباخ وتوقف على بعد عدة أقدام من عباس ونظر إلى عباس والخاتون آبادي. قال عباس: «لا تخفْ، إن هذا الوافد الجديد لا شأن له بك أبداً. هيّا، لنمشِ ..».

رجع باباخ وعدا نحو بيّل.مشى عباس والخاتون آبادي جنباً إلى جنب، حين بلغا بيّل كانت الشمس قد غابت. وكلاب القرية قد اصطفّت على جدار حديقة الاقطاعي يتقدّمها باباخ. وحين رآها الخاتون آبادي وهي جالسة من أول الجدار إلى آخره توقف ونظر إليها خائفاً.

قال عباس: «هيّا، لا شأن لها بك».

دخل الخاتون آبادي القرية بجانب عبّاس. وعندما بلغا الزقاق تقدّمت عنزة إسلام السوداء وتفحّصت بنظرها الوافد الجديد. مضى عباس والخاتون آبادي نحو حافة البركة فبلغا بيت بابا علي حيث كان الرجال مجتمعين يتجاذبون أطراف الحديث.

لمّا رأى مشدي بابا الجالس على كومة الحطب، عباساً قال: «جاء مشدي عباس».

التفت الرجال ونظروا إليه.

قال الحاج جبار: «انظروا إلى هذا».

قال موسرخة: «الكلب، الكلب».

نهض اسماعيل، تقدّم وقال: « من أين جلبت هذا يا عباس؟».

مشى عباس قّدام الرجال. ومشى الخاتون آبادي كذلك.

قال عباس: «لقد جلبت هذا من خاتون آباد».

قال عبدالله: «هل كان آكلو العيش قليلين في بيّل، كي تحضر هذا

أيضاً؟».

قال عباس: «لم يدعني وشأني، على الرغم من كل ما زجرته به وظلّ يتبعني باصرار».

انحنى مشدي بابا ونظر في عيني الخاتون آبادي وقال: «أليس هذا هو نفسه الذي أشبعه البوروسيون ضرباً في السنة الماضية؟».

قال عباس: «بلى، هو بعينه».

قال مشدي بابا: «أحضرته عبثاً. إنه لا ينفع أحداً».

قال عبدالله: «أتطلقه في القرية؟».

قال عباس: «كلاّ، سأخذه الى بيتي».

أطلع بابا علي رأسه من باب الحجرة الصغير وقال: «لو أنك جلبت معك امرأة من خاتون آباد، بدلاً من هذه الجثة لكانت أنفع لك».

قال مشدي بابا: «عباس خجول. هذا العمل ينبغي أن تقوم به خالته. إنّه يستطيع فقط أن يروح فيلملم الكلاب العاجزة عن العمل ويجلبها إلى بَيَل».

قال موسرخه: «حصل خير، نأخذه في الليل إلى المقبرة كي يحرس الأموات».

قال الحاج جبار: «ولد! لا تتدخل في شؤون النّاس!».

قال إسماعيل: «وقلّلْ من خفة دمك!».

خجل موسرخه وتوارى خلف الحطب.

قال عبدالله: «لقد قمت بعمل لا طائل تحته يا عباس».

قال الحاج بابا: «نعم، أحضرته دون جدوى».

قال عباس: «لم أرتكب إثما، ان لم استطع حفظه فسوف أعيده إلى

خاتون آباد».

قال الحاج جبار:« ثم هل يسمح باباخ والكلاب الأخرى لك بالاحتفاظ به؟».

قال عباس: «إنّها لا دخل لها به. إن سمحتم».

قال إسماعيل: «اصبر قليلاً، وسوف تمزّق الكلاب جلده بعد بضعة أيام».

جاء المختار الذي وصل توّاً، فجلس على الحطب وقال: «هل أحضرت هدية سفر يا عباس؟».

أقعى عباس بجوار الرجال وقال: «هذا التّعيس لم يستطع أن يدبّر لنفسه صاحباً معتبراً، فلازمني لا يفارقني».

قال المختار: «نبدأ العمل إن شاء الله في الشتاء».

وحدّق بالكلب وسأل: « أليس هذا لمير حمزة؟».

قال عباس: «بلى، هو بعينه».

جاء ابن الحاج صفر وجلس بجانب المختار. قال المختار: «صار عجوزاً، صار عجوزا جداً».

قال عباس: «أسنانه سليمة، أترى؟»

أمسك بخطم الكلب ورفعه وفتح شفتيه وأشار إلى أسنانه.

قال ابن الحاج صفر: «الأسنان ليست دليلاً على الشباب. فمشدي بابا له أسنان، افتح فمك يا مشدي بابا!»،

أمسك بذقن مشدي بابا وفتح شفتيْه. ضحك موسرخه من وراء كومة الحطب بصوت عال.

قال المختار: «يحسن بك يا عباس أن تخلي سبيله الآن ليذهب».

قال الحاج جبار: «يقول صواباً يا عباس، فنحن لا نطيق رؤيته».
قال المختار: «كأنّه معتوه أيضاً».
قال الحاج جبار: «ذلك واضح، فلو كان واعياً سليم الإحساس لما طرده مير حمزة».
قال المختار: «كأنّه يريد أن ينام».
قال: الحاج جبار: «حسناً، إنّه لم يعد يطيق تحمّل شيء».
قال إسماعيل: «دعوا كل ذلك جانباً، الخالة لا تسمح لك بإدخاله الى البيت».
قال المختار: «صحيح، فكيف تفتح بيتها لكلب نجس؟».
نهض عباس، ونهض الرجال وساروا متجهين خارج القرية. وحين بلغوا حافة الوادي قال ابن الحاج صفر: «ارفسه رفسة قوية على رأسه وتخلّص منه».
قال عباس: «لماذا أضربه، إنه لم يفعل شيئاً».
وأمسك بأذن الخاتون آبادي وجرّه الى الأمام بضع خطوات وهو يوجّهه نحو خاتون آباد، ثم زجره.
مشى الكلب بضع خطوات ثم توقف.
صرخ به عباس منتهراً.
قال الحاج جبار: «إنّه وقح جداً».
قال ابن الحاج صفر: «يمكن تصفية أمره برفسة واحدة».
قال المختار: «في ذلك إثم، لماذا يضرب الحيوان الأعجم؟»
كان الجوّ قد أظلم والخاتون آبادي واقف على بعد مئة قدم ينظر إلى الرّجال إذ ظهر إسلام.

قال المختار: «تأخرت يا حاج إسلام».

قال إسلام: «ما الخبر؟».

قال المختار: «ذهب عباس إلى خاتون آباد وجلب معه كلباً عجوزاً، وها نحن نطرده خارجاً».

تقدم إسلام، وانحنى ونظر إلى الخاتون آبادي وقال: «ليس عجوزاً جداً».

قفز مشدي بابا والحاج جبار وموسرخه وابن الحاج صفر إلى الأمام فجأة وانتهروا الكلب صائحين.

ألقى الخاتون آبادي بنفسه في لجّة الظّلام، وانفجر البَيْلَيّون بالضحك.

– ٢ –

حين استيقظ عبّاس من نومه في الصباح الباكر كانت الخالة قد خرجت إلى حيث البركة. تناول عباس صرّة غدائه وخرج. كما خرج إسلام كذلك وراح يتفقّد عربته.

قال عباس: «نهضت مبكراً يا حاج إسلام؟».

قال إسلام : «لم أنم حتى الصباح».

قال عباس: «لماذا لم تنم؟».

قال إسلام: «ظلّت الكلاب تنبح حتى الصباح فلم تدعني أنام».

قال عباس: «هل كان ثمة شيء؟».

قال إسلام: «كلاّ، لقد قمت مرتين أو ثلاثاً وطفت القرية كلها. لم يكن هنالك شيء أبداً. كانت الكلاب قد اصطفّت على جدار الحديقة ووجوهها نحو الحقول وأخذت تنبح».

قال عباس: «لم استيقظ أبداً. كنت متعباً مهدودا».

قال إسلام: «هنيئاً لك».

تابع عباس سيره نحو الحقول. ولمّا خرج من القرية طلعت الشمس فأضاءت التلال البيضاء بجانب شور.

خفض عباس بصره ومضى. فما كاد يبتعد حتّى أحسّ بواحد يتبعه بهدوء، وهو يلهث، تساءل عباس: «من هذا الذي يتبعني؟».

توقف وفكّر واستدار. كان الخاتون آبادي واقفاً خلفه. ينظر إليه بعينين حانيتّين خائفتيْن وهو يهزّ ذيله.

وقف عباس وقال: «ألم تذهب؟».

هزّ الخاتون آبادي ذيله وأدنى خطمه من الأرض.

تقدّم عبّاس وأمسك بأذني الخاتون آبادي ورفع رأسه، ونظر في عينيه. ضرب الخاتون آبادي الأرض بذيله كثيفة الشعر فأثار الغبار.

قال عباس: «ماذا تريد؟ ألا تريد العودة؟ أتريد أن تبقى عندي؟».

وضع الخاتون آبادي رأسه على الأرض ولعق حذاء عباس.

قال عباس: «انهض، انهض، إمشِ هيا بنا. لقد تأخر الوقت».

مشى كلاهما بخطى واسعة نحو الحقول جنباً إلى جنب.

– ٤ –

عند الغروب دخلا بَيَل. وحين بلغا حديقة الاقطاعي وقف الخاتون آبادي وأخذ ينظر فيما أمامه خائفاً. قال عباس: «هيا، إمشِ».

سُمعت أنفاس باباخ وهو يأتي من الجهة المقابلة لاهثا ويتوقف. زجره عباس.

استدار باباخ فجرى داخل القرية مرّة أخرى. عندما بلغ عباس

والخاتون آبادي حافة البركة جاءت الكلاب ووقفت أمام بيت إسلام وأخذت تتفرج على الوافد الجديد.

انتهرها عباس قائلاً: «هيا. هيّا، هذا ليس وقته».

صارا أمام بيت بابا علي وأبْصَرا الرجال جالسين يتجاذبون أطراف الحديث.

قال مشدي بابا: «أحضرته مرّة أخرى يا عباس؟».

قال الحاج جبار: «ألم تستطع إخلاء سبيله؟».

قال موسرخه: «عباس يحبّه جداً».

قال إسماعيل: «ماذا تريد أن تفعل به يا عباس؟».

تقدّم عباس وقال: «آخذه إلى بيتي واحتفظ به».

قال مشدي بابا: «خذه إذا كنت تحبه واحتفظ به».

قال عبدالله: «كأنك يا مشدي بابا، أنت أيضاً، لا تكره أن تصير صاحبه؟».

قال عباس: «كلاّ، لن أعطيه لأحد».

قال الحاج جبار: «حتى لي؟».

قال عباس: «حتى لك».

قال عبد الله: « وماذا عني؟».

قال عباس: «لا لأحد، لن أعطيه لأحد».

قال إسماعيل: «لن تعطيه لي أيضاً».

قال عباس: «أجل، لن أعطيه لك أيضاً».

قال المختار الذي وصل توّاً: «عَلامَ تتشاجرون؟».

قال بابا علي الذي أطلع رأسه من باب الغرفة الصغير: «يا مختار

إنّ عباس اشتطّ في رفع ثمن الخاتون آبادي، يريد أن يبيعه ويتزوج».

تواری موسرخه خلف كومة الحطب وانفجر ضاحكاً.

قال المختار: «يا عباس، لا تستمع لأحد. مادمت تحبه فخذه إلى بيتك».

قال إسماعيل: «ماذا تقول يامختار؟ قلْ له أن يطرده».

قال عباس: «من الآن فصاعداً، لن استمع لكلام أحد. لن أصغي لكلام أحد».

أطلّ بابا علي برأسه من الباب مرة أخرى وقال: «ألم أقلْ لك يا مختار؟ ألم أقلْ أن على مشدي بابا أن يعتني به؟».

استدار عباس ومضى نحو الخاتون آبادي الذي كان واقفاً وقد أدار ظهره للرجال وأخذ ينظر إلى الكلاب التي كانت مصطفّة بجوار حجر غسل الموتى الأسود تتفرج عليه.

— ٥ —

كانت الخالة قد جلست تطبخ حساء القمح وظهرها مستند إلى الجدار، والحطب يتصاعد منه الدخان. رفعت رأسها ونظرت بتعجب وهتفت: «ماذا تفعل يا عباس؟ إلى أين تأخذه؟» ونأت بنفسها بسرعة إلى الجهة القصيّة من الجدار وهي تحمل بيدها ملعقة خشبية ضخمة ملطّخة كلها بحبات القمح المهروس.

قال عباس : «لا شيء، هذا الخاتون آبادي، اشتريته».

قالت الخالة: «ماذا؟ اشتريته؟ دفعت نقودا وأخذت هذا؟».

قال عباس : «كلاّ، لم أشتره. كان مير حمزة مديناً لي بشيء، فأعطاني هذا بالمقابل».

قالت الخالة: «وقبلته؟».

قال عباس: «كلاً، لم أقبله. لقد أعجبني هذا كثيراً».

قالت الخالة: «أخْلِ سبيله، أخل سبيله ودعه يذهب».

قال عباس: «أخليَ سبيله؟».

قالت الخالة: «نعم أطلقه، ألا تدري أنه نجس؟».

قال عباس: «لن أخلي سبيله أبداً».

قالت الخالة: «إذن، أعود إلى هزوان عند ولدي».

قال عباس: «كلاً، لن أسمح لكِ بالذهاب».

قالت الخالة: «إما أنا، وإمّا هو».

قال عباس: «لا تزعلي يا خالتي، إنّ هذا لم يأت لكي يحتل مكانكِ».

قالت الخالة: «لقد أعذر من أنذر، اذهب وفكر في الأمر».

ذهب عباس والخاتون آبادي الى الفناء وعادت الخالة إلى الجهة الأخرى من الجدار. وضعت في الموقد حطباً جديداً، فتصاعد منه دخان كثيف.

– ٦ –

في الصباح، وقبل أن تطلع الشمس كان عباس والخاتون آبادي في طريقهما نحو الحقول، إذ ظهر ابن الحاج صفر الذي قال لعباس: «أتذهب إلى الحقول؟».

قال عباس: «نعم، أنا ذاهب إلى الحقول».

قال ابن الحاج صفر: «وجدتَ رفيقاً لك».

قال عباس: «نعم، وهو خير من كثيرين».

قال ابن الحاج صفر: «نعم، وهو يشبهك كثيراً».

قال عباس: «صحيح، احمد الله أنه لا يشبهك، وإلاّ كنت مضطراً أن أحطم رأسه بحجر أو ألقيه في البركة».

قال ابن الحاج صفر: «أريد أن أقول لك شيئاً يا عباس».

قال عباس: «قلْ».

قال ابن الحاج صفر: «أريد أن أقول : لا تبالغ في الترحيب بهذا الخاتون آبادي وتدليله، فإذا ازداد وقاحة فأنا أعرف ما أفعل به. إني لا تعجبني الكلاب الأجنبية».

قال عباس: «جيد جداً».

قال ابن الحاج صفر: «أفهمت؟».

قال عباس: «نعم، فهمت، وأريد بدوري أن أقول لك شيئا : إذهب، إذهبْ إلى الحاج صفر واطلب منه أن يسيطر على لسان ابنه. إذا ازداد وقاحة وصلفاً، وتدخّل في شؤون الناس، فإنّ في هذه القرية شخصاً اسمه عباس، يأتي ويستلّ لسانه ويلقيه لكلب أجنبيٍ أحضره من خاتون آباد».

قال ابن الحاج صفر: «جيّد جداً».

قال عباس: «أفهمت؟».

قال ابن الحاج صفر: «اسمعْ واحفظ ما أقول: إني أمهلك أسبوعاً، اسبوعاً بالضبط أن ...»

ظهر إسلام راكباً عربته، واقترب منهما. ثم قفز مترجّلاً عن العربة وقال : «ماذا؟ مالخبر؟».

قال عباس: «لا شيء».

ضحك ابن الحاج صفر وقال: «كنت أسأل عن أحوال رفيقه».

قال إسلام لعباس: «اركب لنذهب».

صعد عباس العربة وجلس بجانب إسلام الذي انتهر الحصان فتحركت العربة والخاتون آبادي من ورائها. حين انعطفوا من جانب حديقة الاقطاعي علا نباح الخاتون آبادي. قفز عباس مترجّلاً. كان حجر حادٌ قد أصاب الكلب في رجله بينما انطلق ابن الحاج صفر يهرب من جانب البركة مثل الريح.

- ٧ -

دخل عباس والخاتون آبادي بيّل رفعت الخالة التي كانت جالسة وراء الجدار تطبخ الحساء وألسنة النار والدخان تتصاعد من الموقد، رأسها وأبصرت عباساً ومضت نحو الجهة الأخرى من الجدار. كان في يدها ملعقة خشبية كبيرة غطّتها حبات القمح المهروسة.

قالت الخالة: «أأحضرته مرة أخرى؟».

قال عباس: «نعم، وهل كان مفروضاً أن لا أحضره؟».

قالت الخالة: «عجبا، كم مرة أقول لك انه نجس؟».

قال عباس: «ليكن، ليكن نجسا».

قالت الخالة: «كنت قد قلت لك دعه يذهب».

قال عباس: «لن أدعه».

قالت الخالة: «إذن أعود إلى هزوان عند ابني».

قال عباس: «اذهبي متى شئتِ».

قالت الخالة: «أتعلم أنني لو ذهبت فسوف يكون عليك مثل إسلام أن تدبّر شؤونك بنفسك؟».

قال عباس: «لست بعد الآن مكلّفة بأن تشفقي عليّ».

قالت الخالة: «طيب جداً، من الآن فصاعداً أنت تعرف، إذهبْ ودبّر أمورك».

وقفت الخالة ونظرت إليه وذهبت وراء الجدار وانحنت.

أضافت إلى الموقد حطباً جديداً فتصاعد الدخان الكثيف. توجّه عباس والخاتون آبادي نحو إسلام. فتح عباس النّافذة ودخل. أخذ سلطانية مطلية بالمينا وذهب إلى البركة، شمّر ردنيْه وأخذ يغسل الخاتون آبادي.

جاء باباخ وعنزة إسلام السوداء أولاً، ثم كلاب بَيَل الأخرى، وأخيرا ابن الحاج صفر ، واصطفّوا وأخذوا يتفرّجون على عباس والخاتون آبادي.

– ٨ –

كان الرجال قد تجمعوا في الباحة الصغيرة الواقعة خلف بيت الحاج صفر وجلسوا على الحطب.

قال الحاج جبار: «ماذا تفعل به؟»

قال مشدي بابا: «أجل، ينبغي منذ الآن أن نجد له حلاًّ».

قال عبدالله: «إن حاله تسوء يوماً بعد يوم».

قال الحاج جبار: «الآن وقد اشتدّ الحرّ فإنه لا يأخذه إلى الحقول».

قال مشدي بابا: «هو نفسه لا يذهب إلى الحقول إلاّ ساعة أو اثنتيْن».

قال عبدالله: «مهما يكن الأمر، فإنّه ينبغي إقصاء شرّ هذا الخاتون آبادي عن بَيَل».

قال عمّو زينال الذي كان قد جاء على عكازتيه وجلس بجانب

الحطب: «لنذهبْ ولنسأله أن يخلي سبيله». انخرط موسرخه بالضحك من وراء الحطب.

قال الحاج جبار: «لن يخلي سبيله، يجب ان نجد فكرة أخرى».

قال عبدالله: «إن كان يبيعه، اشتريناه منه».

قال ابن الحاج صفر: «ليس هنالك أحد على استعداد لأن يبدّد نقوده. أنا لست مستعداًّ».

التفت الحاج جبار إلى إسلام وقال: «لا أدري، إني أقبل كل ما يقوله إسلام».

قال إسلام الذي كان مقطب الجبين: «لا تتدخلوا في شؤونه، مادام مبسوطاً بهذا الكلب، فدعوه يكن مبسوطاً».

قال الحاج جبار ومشدي بابا معاً: «ماذا؟ لا نتدخّل في شؤونه؟».

قال ابن الحاج صفر للحاج جبار ومشدي بابا: «حسن جداً، أنا أقول لكم ماذا نفعل به»

نهض إسْلام وانصرف. كما سار كذلك عمو زينال بعكّازيه متجهاً نحو عَلَمْخانه. كان وقت الآذان قد حان.

- ٩ -

أدخل عباس الخاتون آبادي في الحجرة وأجلسه أمام النافذة. أشعلت الخالة المصباح وجلست في الركن القصيّ من الحجرة.

تناول عباس عشاءه من الطاق وعاد إلى النافذة. أكل نصف الحساء ووضع الباقي أمام الخاتون آبادي.

قالت الخالة: «أدخلته في الحجرة أخيراً؟».

قال عباس: «لقد غسلته تواًّ».

قالت الخالة: «إنه نجس، ولن يطهر، سواء غسلته أم لم تغسله».

قال عباس: «ماذا أفعل به كي لا يصير نجساً؟ هل آخذه فأسحق رأسه تحت حجر فيطهر؟».

عندما انتهى العشاء صعد عبّاس والخاتون آبادي على سطح البيت. حين قامت الخالة لتنام، أخرجت رأسها في فتحة منتصف السطح ونظرت للخارج. كان عباس قد نام، والخاتون آبادي مقْعٍ عند رأسه يطالع النجوم.

- ١٠ -

كان إسماعيل والحاج بابا وعبدالله والحاج جبار وموسرخه وابن الحاج صفر والخالة جالسين في الباحة الصغيرة خلف بيت الحاج صفر بجانب الحطب.

قال ابن الحاج صفر للخالة: «حسناً، في أيّ حال هو؟».

قالت الخالة: «الأمر واضح، ترك أشغاله وأعماله وتفرّغ لكلبه».

قال عبدالله: «ولا يذهب للحقل؟».

قالت الخالة: «مضى أكثر من أسبوع دون أن يذهب».

قال مشدي بابا: «إنّه يجلب شقاءه بيده».

قال ابن الحاج صفر: «ماذا يهمني أن كان يسعي إلى شقائه بيده أم لم يكن، إني لا أحبّ هذا الكلب أصلاً. ولا أطيق أن أراه».

قال الحاج جبار: «وأنا لا أحبّ أيضاً».

قالت الخالة: «وهو فوق ذلك نجس. إنني حين عجزتُ سوّيت لنفسي ببعض الحصير مكاناً خلف البيت أصليّ فيه وأنام فيه».

قال اسماعيل: «إنّ أي تدبير تهتدين اليه سوف يكون في صالح

عباس نفسه، كما سيكون في صالح بَيَل إذ نخلص من شرّ هذا الكلب».

قال موسرخه: «عباس رآني اليوم وطلب إلى أن أذهب في النهار وأعتني بكلبه».

قال مشدي بابا: «أيريد أن يسخّر لهذا الكلب الشريد خدماً يخدمونه؟».

قال إسماعيل: «والله لقد فرّ العقل من رأسه!».

قال ابن الحاج صفر: «لم يكن في رأسه عقل أصلاً».

قال الحاج جبار لابن الحاج صفر: «حسن جداً، قل لي ماذا ينبغي أن نفعل الآن؟».

جلس ابن الحاج صفر في المنتصف، وتحلّق الآخرون من حوله وكلهم آذان صاغية.

قال ابن الحاج صفر لاسماعيل: «يجب أن تقدم أنت على الخطوة الأولى».

ظهر إسلام راكباً العربة مملوءة بالفصّة. توقف أمام الجمع ونظر إليهم وقال: « ماذا تفعلون؟ هل تدبّرون مكيدة لضيف عباس؟».

– ١١ –

عند الظهيرة كان عباس قد أخذ الخاتون آبادي إلى جوار البركة وأخذ يغسله، إذ ظهر إسماعيل.

قال عباس: «ماذا تفعل يا إسماعيل في القرية في هذا الوقت من النهار؟».

قال إسماعيل: «أنت نفسك ماذا تفعل؟ لماذا لم تذهب إلى الحقل؟».

قال عباس: «أردت أن أنظّف هذا الحيوان».

قال إسماعيل: «أتركت كل أعمالك وتفرغت لهذا الحيوان؟».

قال عباس: «ماذا أفعل؟ إن لم أعتنِ به فمن يفعل؟ الخالة لا تعتني به».

قال إسماعيل: «حسن جداً، هل تفرغ من عملك حتى المساء؟».

قال عباس: «نعم، بل أفرغ قبل ذلك».

قال إسماعيل : «حسن جداً، تعال الليلة إلى بيتي. وقد ذهبت اختك تخبر الخالة. أتأتي؟».

قال عباس: «وهذا، ماذا أفعل به؟».

قال إسماعيل: «أطلقه في الخارج وتعال».

قال عباس: «كلاّ، لا أستطيع أن أتركه. إن كل أهل بَيَل سيَتّون معه. يمكن أن يُنزلوا به شراً».

قال إسماعيل: «حسن جداً، دعه في الفناء وأقفل الباب وتعال».

قال عباس وهو ينظّف أنني الخاتون آبادي: «هذه فكرة جيّدة، سأفعل ذلك».

جلس موسرخه الذي وصل لتوّه بجانب عباس وشرع يغسل الأذن الأخرى للخاتون آبادي.

– ١٢ –

حلّ الليل، فذهب عباس إلى بيت إسماعيل. كانت أخته قد أشعلت النّار خلف الجدار وأخذت تطبخ الحساء. رأت عباساً فجاءت من وراء الجدار وفي يدها ملعقة خشبية ضخمة غطتها حبات القمح المهروسة.

قالت الأخت: «أريد أن أقول لك شيئا يا عباس».

قال عباس: «حسناً، قولي».

قالت الأخت: «أقول لك أقبَلْ كل ما يقوله لك الرجال».

قال عباس: «ماذا يريد الرجال أن يقولوا لي؟».

قالت الأخت : «لا أدري».

قال عباس: «ألم يقل لك إسماعيل شيئا؟»

قالت الأخت: «لقد حضر الجميع، وهم في انتظارك».

فتح عباس باب الجدار الصغير. أدخل رجليه أولاً وأتبعهما بجذعه، ثم رأسه أخيرا. كان إسماعيل ومشدي بابا والحاج جبار وعبدالله جالسين حول سراج صغير مشتعل موضوع في منتصف الحجرة.

قال إسماعيل: «تأخرت يا عباس؟».

قال مشدي بابا: «أجل، تأخرت كثيرا».

قال الحاج جبار: «لا بدّ أنك كنت مشغولاً؟».

قال عباس لإسماعيل: «أردت أن آتي عند حلول الظلام، ألم تقل لي أن آتي في الليل؟».

قال إسماعيل: «بلى، إنك تقول الصّدق، والآن تعال اجلس».

راح عباس فجلس بين عبدالله ومشدي بابا، في مواجهة السراج.

قال عبدالله: «كيف الحال وما الخبر؟».

قال عباس: «أليس المختار وإسلام هنا؟».

قال مشدي بابا: «أولئك الاثنان مشغولان فلم يحضرا».

قال عباس: «حسن جداً، هل لكم معي شغل؟».

قال مشدي بابا: «أجل، نريد أن نتحدث معك».

قال عباس: «تتحدثون عن ماذا؟».

قال الحاج جبار: «نعم، نريد أن نرتّب أوضاعك في حياتك».
قال عباس: «يعني ماذا تريدون أن تفعلوا؟».
قال مشدي بابا: «نتناول لقمة من الخبز أولا ثم ..»
قال الحاج جبار: «حقاً يا إسماعيل، ألم يجهز الحساء؟».
نهض إسماعيل ليخرج من الغرفة، فدخلت الخالة وأخت عباس بالسفرة وإناء الحساء، وجلستا بجانب الرجال.
كان صوت موسرخه يأتي من الباب الصغير نصف المفتوح، وهو يغنّي بعيداً.

- ١٣ -

كان إسلام جالساً بجانب البركة ينظر إلى ظلّ الصفصافة في الماء، عندما ظهر ابن الحاج صفر وهو يمشي بمحاذاة الجدران، ثم اتجه نحو بيت المختار، تطلّع فيما حوله، ثم قفز إلى الجهة الأخرى من الجدار.
كانت بَيَل هادئة ساكنة. وصوت مشدي بابا وعبدالله يُسمَع قادماً من بيت اسماعيل، خلع إسلام طاقيّته وانحنى ونظر إلى ظلّه المعتم في الماء.
تسلّق ابن الحاج صفر الجدار وفي يده مجرفة، ثم قفز هابطاً عنه واختفى في الظلام.

- ١٤ -

خرجت المرأتان بعد أن جمعتا السّفرة. قال مشدي بابا لعباس: «يا حاج عباس جئنا إلى هنا كي نضيف عقولنا بعضها إلى بعض، ونرتب لك أوضاع حياتك».

قال الحاج جبار: «نعم، فمنذ أن انتقلت أختك إلى بيت إسماعيل تغيّرت أحوالك».

قال عبدالله: «احمد الله على أن الخالة كانت موجودة وانّها اعتنت بأمورك أخيراً».

قال مشدي بابا: «وانّه من فرط إحساسك بالوحدة ذهبت وأحضرت إلى بَيّل هذا الكلب الخاتون آبادي».

قال عبدالله: «ثم لو كان كلباً معتبراً لما تكلّمنا».

قال الحاج جبار: «إن باباخ بَيّل أحسن كثيرا من كلبك هذا الخاتون آبادي».

قال عبدالله: «بالطبع أحسن. فكلبك إلى الآن لم يَصرْ شيئا».

قال مشدي بابا: «نعم يا مشدي عباس. لقد جئنا إلى هنا وتحدثنا واستمعنا. نريد أن نزوّجك».

قال الحاج جبار: «لن ننتظر الشتاء كذلك. وسوف نشرع في العمل اليوم أو غدا».

قال إسماعيل: «أجل يا عباس. فكّر في الأمر الآن، وأعطنا الجواب».

طأطأ عباس رأسه وغرق في التأمّل. أشعل مشدي بابا والحاج جبار غليونيهْما وجلسا يتأمّلان عباساً.

– ١٥ –

وقف ابن الحاج صفر عندما بلغ بيت عباس. نظرت الخالة من طرف الحصير ورأته وبيده صحن الحساء. مرّ شخصان واتّجها نحو الفناء، عند الخاتون آبادي الذي كان ينتظر وهو يبْصبص بذيله.

تقدّمت الخالة ووضعت صحن الحساء على الأرض. شمّ الخاتون آبادي الصحن دون شهية. نظر إلى الخالة وابن الحاج صفر، والمجرفة التي كانت بيد هذا الأخير. وضع هذا المجرفة وراء ظهره واختبأ.

تقدمت الخالة من الكلب وأخذت تشجعه ليأكل.

انحنى الخاتون آبادي وشرع يلعق الحساء.

قال ابن الحاج صفر: «تعالي أنت إلى هذه الجهة».

راحت الخالة فوقفت وراء ابن الحاج صفر.

قال ابن الحاج صفر: «روحي انتظري في الخارج».

خرجت الخالة، ووقفت على التراب وراء الجدار وأخذ ترقب الخاتون آبادي الذي كان مطأطئاً رأسه يلعق الحساء متردّداً.

تقدّم ابن الحاج صفر خطوة أخرى وتوقّف. رفع المجرفة بيديه كلتيْهما وأهوى بها بسرعة البرق على وسط الخاتون آبادي. علا صوت أولا، مثل صوت سقوط شجرة. تبعه نباح عاجز انفجر فجأة وعلا وتعالى حتى غدا صراخاً مخيفاً عجيباً عصف بالقرية كلّها.

جلست الخالة، بجانب الجدار حائرة مبهوتة. رفع ابن الحاج صفر المجرفة مرة أخرى وأهوى بها، فخمد النّباح.

هبّ إسلام واقفا - وقد كان جالساً عند حافة البركة - وأصغى مبهوتاً لصدى أنين الخاتون آبادي. هرع أهل بَيَل خارجين من بيوتهم. ألقى ابن الحاج صفر بنفسه في غمرة الظلام واختفى.

- ١٦ -

حين بلغ عباس داخل الفناء كان الخاتون آبادي منطرحاً على

الأرض دون أن يصدر أنيناً. أشعلت الخالة السراج وأحضرته. انحنى عباس ونظر. كان رأس الجثة واقعاً في صحن الحساء، وجذعها منْثنياً من وسطه مثل شجرة كسرت من منتصفها، تجمّع أهل بيل على الجدران. كان الحاج جبار ومشدي بابا وعبدالله وموسرخه في جانب، والمختار واسلام في الجانب الآخر وأهل بَيَل من على الجدار المقابل، كلّهم يحدّقون في الخالة التي جلست بجانب الجثة تندب وتعول، وفي عباس الذي كان يطالعهم مبهوتاً واحداً واحداً.

هتف المختار: «من قام بهذا العمل؟».

لم يجب أحد.

قال المختار مرة أخرى: «ليجب أحدكم: من الذي كسر ظهر هذا الحيوان الأعجم؟».

سعل إسلام ولم يقل شيئا. صرخ عباس الذي كان واقفا عند رأس الجيفة فجأة: «إني أعرف من قام بهذا. أعرف من كسر ظهر هذا الحيوان الأعجم سوف أنتقم منه على الفور سوف أكسر ظهره».

خرج من الفناء ومضى نحو بيت المختار بسرعة خاطفة.

قفز عن الجدار ثم خرج بعد ذلك بلحظات والمجرفة في يده، وذهب نحو البركة. نظر إلى بيت الحاج صفر الذي ران عليه السكون والعتمة، ثم جرى نحو بداية الزقاق الأول.

ظهر موسرخه وقال: «حاج عباس، يا حاج عباس، لقد هرب باتجاه هزيوان ، ذهب نحو هزيوان».

جرى عباس يخرج من الزقاق مزمجرا بفم مزبد، مشى بمحاذاة

الوادي متجها نحو هزيوان.

أمسك المختار برأس موسرخه وصاح: «لماذا قلت له؟ الآن يمسك به ويقتله».

خلّص مشدي بابا وعبدالله، موسرخه من قبضة المختار.

قال الحاج جبار: «لم يذهب، لم يذهب إلى هزيوان، إنه في بَيَل، في بيته».

التفت المختار فرأى إسلاماً يجرّ جيفة الخاتون آبادي نحو حديقة الاقطاعي، والخالة تتبعه باكية والفانوس في يدها.

القصة السادسة

- ١ -

حين جاء الحاج جبّار من المدينة كان البَيْليّون جالسين بعضهم حول بعضهم الآخر في الباحة الخلفية لبيت الحاج صفر وهم يتجاذبون أطراف الحديث.

عندما أبصر المختارُ الحاجَّ جبّار قال: «ها يا حاج جبّار .. ما الأخبار في المدينة؟».

قال الحاج جبّار: «ليس في المدينة من أخبار».

قال مشدي بابا: «هل جئت راجلاً؟».

جلس الحاج جبّار إلى جانب إسلام، وقال وهو يخلع نعليْه: «من حافّة الشارع الرئيسي إلى هنا، نعم».

قال إسلام: «ومتى بلغت حافة الشارع الرئيسي؟».

قال الحاج جبار: «بعيد الظهيرة».

قال المختار: «وهل أمضيت كل هذا الوقت في الطريق؟».

قال الحاج جبّار: «نعم، لقد صادفت في الطريق شيئا فتأخرت».

قال ابن الحاج صفر: «ما هو؟».

قال الحاج جبار: «لم أعرف».

قال المختار: «لم تعرف؟! كيف لم تعرف؟».

اقترب الرجال وتحلّقوا حول الحاج جبّار، الذي تناول غليون إسلام وسحب منه عدة أنفاس وقال: «كان شيئاً ضخماً لم أعرف ما هو».

قال مشدي بابا: «عجيب .. كيف هو؟».

قال الحاج جبّار: «شيء ضخم .. مثل بقرة، لم أستطع تحريكه».

قال عبدالله : «كيف هو؟ هل له رأس وأذنان؟ أليس له؟ كيف هو؟».

فكّر الحاج جبار قليلاً وقال: «لم أستطع أن أعرف .. ليس له عيون وآذان».

قال المختار: «ماذا عن الأيدي والأرجل؟».

قال الحاج جبّار: «أيد وأرجل؟ كلاّ، ليست له أيد وأرجل كذلك .. وقد كان ثقيلا جداً».

فكّر الحاج جبّار مرة أخرى وقال: «كيف أقول؟ إنّه ليس مثل عربة الخيل».

قال مشدي بابا: «لقد سبق أن قلت إنه مثل البقرة».

قال الحاج جبّار: «نعم، إنّه بحجم البقرة .. بحجم بقرتك».

قال المختار: «أنت قلت إنه لا يملك أيدي وأرجلاً؟».

قال الحاج جبّار: «نعم .. وأكرّر ذلك .. ليس له أيدٍ وأرجل أو عيون وآذان».

قال إسماعيل: «يشبه ماذا؟».

فكّر الحاج جبّار، سرّح بصره في الرجال وفي البيوت ثم سعل بضع مرات وقال: «لم يكن يشبه شيئاً. إنه شيء عجيب .. إنه مثل الجمل».

قال عبدالله: «كيف كان يمشي؟».

قال الحاج جبّار: «لم يكن يمشي. ليس له رأس ورقبة وأشياء من هذا القبيل. إنه شيء عجيب .. مثل بيت صغير .. تخيّلوا بيت بابا علي وقد رُكّبتْ له أزرار ضخمة هنا وهناك».

قال إسلام: «مصنوع من ماذا؟».

قال الحاج جبار: «من الصفيح والحديد على نحو ما».

قال إسلام: «أليس سيارة متآكلة؟».

قال الحاج جبار: «لا يا عمّي .. ليس له عجلات وأشياء من هذا القبيل .. كان ثقيلاً جداً».

سأل المختار: «في أيّ النواحي رأيته؟».

قال الحاج جبّار: «تماماً، فوق منطقة شور ببضعة أقدام، في طريق بورروس».

قال إسلام: «ها .. الآن فهمت».

نظر الرجال جميعاً إلى إسلام. قال المختار: «ما الشيء الذي فهمته يا حاج إسلام؟».

قال إسلام: «كل ما يحدث فهو من تدبير البورسيّين .. إنه شيء سرقوه وألقوه في عرض الطريق».

قال الحاج جبار: «كلامه صحيح، فالبورروسيّون وراء كل المشاكل».

غرق الرجال جميعاً في التفكير.

قال مشدي بابا: «طيب، ما قولكم فيما سنفعله؟».

قال ابن الحاج صفر: «واضح .. نقوم ونذهب إليه».

نظر إسماعيل إلى السماء وإلى نواحي بركة الماء وقال: «ولكن الظلام بدأ يخيّم، وأوشك الليل أن يحلّ».

قال مشدي بابا: «لا تحمل همّ الليل».

قال المختار: «ما قولك يا حاج إسلام؟».

قال إسلام: «لنذهب .. لنذهبْ ونَرَ ما هو».

قال المختار لابن الحاج صفر: «هل تستطيع، يا حاج جعفر، أن تحضر لنا فانوسين؟».

نهض ابن الحاج صفر وقال: «ولماذا لا أستطيع؟!».

وانصرف. قال إسلام: «نعم، نذهب ونرى ما هو. فإن كان نافعاً أحضرناه إلى بَيَل».

قال مشدي بابا: «بأية واسطة نذهب يا حاج إسلام؟».

قال إسلام: «نربط الحصان إلى العربة ثم نسوقها ونذهب».

قال المختار: «طيب جداً .. انهضوا كي لا نتأخر».

نهض الرجال. كان الوقت قبيل الغروب. والقمر الباهت الكبير يطل من المشرق.

- ٢ -

بعد أن تناولوا العشاء جاؤوا وتجمعوا عند حافة بركة الماء.

ربط إسلام الحصان وأحضر العربة تحت شجرة الصفصاف إلى جانب حجر غسل الموتى الأسود. اقترب اسماعيل وابن الحاج صفر من الرجال ومعهما فانوسان. وضعا الفانوسين على العربة.

قال المختار: «لماذا أشعلتما الفانوسين؟».

قال الحاج جبار: «أنت طلبت ذلك».

قال المختار: «لا حاجة لذلك، ألا تريان القمر؟».

وأشار بيده إلى البركة، فالتفت الرجال ورأوا القمر على صفحة مائها.

قال ابن الحاج صفر: «أنت بنفسك طلبت منّي أن أحضر فانوساً، ألم تفعل؟».

قال الحاج جبّار: «الفانوس ضروري. بدونه لن نعرف ماهيّة الشيء».

ناحت عنزة إسلام السوداء من مكانها في مؤخرة البيت، وعلا صرير الجداجد وصراصير الليل.

قال المختار: «إلى أن نصل شور يكون نفطهما قد نَفِد .. فالطريق تستغرق ما يزيد على الساعة».

قال مشدي بابا يخاطب ابن الحاج صفر: «أطفئهما ... وعندما نبلغ شور نشعلهما».

خفض الحاج جبار فتيل كل منهما ونفخ، فانطفأ الفانوسان. هتف إسلام الذي كان جالساً على جذع شجرة: «طيب، من الذين سيأتون؟».

قال المختار: «الحقّ معه، فليس الجميع قادرين على الذّهاب».

قال مشدي بابا: «أنا أقول .. الشباب يذهبون. أولا لأنهم أقوى. وثانياً إذا صادفهم البوروسيون يستطيعون الفرار على الفور، وإذا ضُبِطوا يستطيعون التغلب عليهم».

قال المختار: «الشباب ، يعني من؟».

قال مشدي بابا: «يا مختار، أنا وأنت تجاوزنا هذه الأمور. الشباب هم الحاج إسماعيل، والحاج جبار، والحاج جعفر، وعبدالله كما يجب أن يذهب الحاج إسلام كذلك».

قال إسلام: «تريد أن تقول إنك لن تأتي؟».

قال مشدي بابا: «والله أنا ..»

قال المختار: « عيب يا مشدي بابا .. قم واركب».

نهض مشدي بابا. توجّه الرجال نحو العربة. كانت بيّل هادئة ساكنة، وليس يبلغ الآذان سوى خوار بقرة مشدي بابا يتصاعد من

زريبتها. أبرز الحاج صفر رأسه من فتحة السقف ينظر إلى الخارج، وأخذ يطالع ظلال الرجال وهم يركبون العربة، والقمر الباهت يتماوج على صفحة بركة الماء وصورته تضيق وتتسع.

- ٣ -

حين انصرف الرجال، ظهرت ننه خانوم و ننه فاطمة حيث إجتازتا الزقاق الأول خارجتين من بَيَل في طريقهما إلى تلّة (النبي آغا) .

كانت الليلة ليلة الجمعة. وكانت العجوزان ذاهبتين إلى (النبي آغا) تجلبان التراب لشفاء المرضى.

- ٤ -

كان ضوء القمر يغمر الحقول، والحصان يعدو متقدّماً بالرجال الذّين كانوا جالسين في العربة وقد ضمّوا ركبهم إلى صدورهم. وإسلام يلوّح بالسوط من فوق رأسه ويصرخ بالحصان: «هاي، هاي،» ويسمع الحصان أزيز السوط فيزيد من سرعته.

كان إسماعيل يجلس محاذياً لإسلام وقد انطلق بالغناء. الرجال متساندون بعضهم إلى بعض. والحاج جبار يحتضن الفانوسين المطفأين. والمختار الذي كان قد أخذ غليون ابن الحاج صفر انطلق يملؤه ويفرغه.

كانوا يهبطون المنحدرات وكأنهم يهوون في بئر. الحصان وظلّه يبدوان أكبر من أي وقت مضى. إسلام يرنو إلى الحقول ساهماً. والجميع على الاجمال يلفّهم السرور، سوى مشدي بابا الذي كان يبدو منطفئاً وقد ألقى رأسه فوق ركبته وراح يغالب النعاس.

- ٥ -

قبيل أن يبلغوا شور جذب إسلام لجام الحصان، فوقفت العربة.

قال المختار: «هل وصلنا؟».

قال إسلام: «لقد اقتربنا ... حسناً، أين رأيته يا حاجّ جبّار؟».

قال الحاج جبّار: «فوق هذا المكان بقليل، وفي ذلك الشريط الضيّق الذي يقود إلى بوروس».

قال إسلام: «هل نصعد؟».

قال مشدي بابا: «كلاّ، يا حاج إسلام، إلى ناحية بوروس لا تتجّه. أستحلفك الله أن لا تورّطنا».

ضحك الرجال. رفع إسلام السوط. وانطلقت العربة من جديد. وحين بلغوا شور لفّهم الصمت. ولم يعد صوت العجلات وحوافر الحصان يبلغ الآذان. ولم يكن ثمة صوت آخر. كان الحاج جبار يضغط الفانوسين المطفأين إلى صدره.

قال مشدي بابا يسأل عبدالله هامساً: «إلى أين يريدون أن يذهبوا؟».

ضحك إسلام وقال ابن الحاج صفر: «ذاهبون إلى بوروس ذاتها».

قال مشدي بابا: «لا تمزح، إن الحاج إسلام لا يمكن أن يفعلها».

قال إسلام: «لا تخف يا عمّي الحاج. حتّى لو ذهبنا إلى بوروس فإنّ البوروسيّين لن يفعلوا لك شيئاً».

قال مشدي بابا: «ولكن خير لنا أن لا نذهب. أليس كذلك يا مختار؟».

ضحك إسلام. وحين وصلت العربة إلى طريق بوروس، ظهر ثلاثة

بوروسيّين على الخيل، مرّوا قريباً من العربة، وانطلقوا في الخلاء بسرعة البرق. اختبأ مشدي بابا وراء الآخرين. كبح إسلام العربة. ووقف البَيْليّون يرقبون البوروسيين المنطلقين باتجاه ميشو.

قال مشدي بابا: «ألم أقل لكم؟ أما قلت يا إسلام؟».

ضحك إسلام، وقال ابن الحاج صفر: «لنذهب يا حاج إسلام».

سارت العربة وقال إسلام: «يا حاج جبّار، عندما نبلغ المكان أخبرنا».

قال الحاج جبار: «كأنه كان في هذه النواحي».

كبح إسلام العربة. أخذ البَيْليون يتلفّتون من حولهم.

قال المختار: «أين هو؟».

قال الحاج جبار: «لنهبط من العربة .. لنهبط منها».

ترجّل الرجال جميعاً. أشعل ابن الحاج صفر أحد الفانوسين وناوله إلى الحاج جبار واحتفظ بالفانوس المطفأ. وسار الجميع.

قال إسماعيل: «إلى أين نحن ذاهبون؟ إذا كنّا سنتقدم فلنركب العربة من جديد».

وقف الحاج جبار مبهوتاً وأخذ يتلفّت حواليه وهو يقول: «لقد كان في هذه النواحي».

قال ابن الحاج صفر: «ألم نخطيء المكان؟».

قال الحاج جبار: «كلاّ، لم نخطيء المكان. لقد كان في هذه الأنحاء».

رفع الفانوس وانحنى وأخذ يتفحص الأرض. انفجر ابن الحاج صفر بالضحك، كما ضحك إسلام. قال المختار: «عن أي شيء تبحث

يا حاج جبّار؟ أما قلت إنه ضخم جداً ولا يمكن زحزحته؟».

ضحك الرجال جميعاً. ولم يحر الحاج جبار جواباً. وظلَّ منحنياً على الأرض يبحث عن الشيء.

– ٦ –

كانت ننه خانوم و ننه فاطمة جالستيْن على رصيف عتبة (النبي آغا) تنتظرن أن تهدأ الجلبة، وأن ينقطع دخول وخروج الناس إلى المزار ومنه لتدخلا. المجرفة تحت أقدامهما. والحديقة تنبسط في مواجهتهما، والبركة الضخمة تبدو بين البيوت في ضوء القمر وكأنها عين ميت ترنو إلى السماء.

حين خفّت الجلبة نهضت ننه خانوم وفتحت باب المزار ودلفت إلى الداخل يلفّها الظلام. أشعلت شمعة بحذر. وحين أبصرت الفئران الشمعة (اندفعن) نحو الضريح، ومن ثقوب الصندوق (تسرّبن) إلى الداخل. قالت ننه فاطمة التي كانت تقف أمام الباب بصوت خاشع «يا الله، أيتها الحضرة، يا علي، يا محمد، يا حسن يا حسين، السلام عليك، يا الله أيها الحضرة يا علي يا علي يا محمد يا حسين يا حسين، جئنا نأخذ تربة الشفاء، أيتها الحضرة، يا إمام، يا علي، يا الله منّ على مرضى بيّل بالشفاء، اشفهم أنت ذاتك».

– ٧ –

كان الحاج جبّار منحنيا يتفحّص الأرض، والرجال من ورائه يسيرون على مهل.

قال إسماعيل: «ألا يكون الحاج جبّار قد جرى له شيء؟».

قال ابن الحاج صفر: «لم يجر له شيء .. إنه يتحامق».

قال إسلام: «يا حاج جبار، يا حاج جبار، مالك؟».

جلس الحاج جبار على الأرض وهتف فجأة: «ها هو، وجدته، وجدته».

تحلّق الرجال حول الحاج جبّار وانحنوا على الأرض. أشار الحاج جبار إلى الأرض وهو يقول: «هل ترون؟ لقد كان هنا تماماً، وقد أخذوه. هل ترى يا إسلام؟ هل ترى يا مشدي بابا؟»

قال إسلام: «الحقّ معه، فهذا الأثر المحفور في الأرض يدلّ على أن شيئاً كان هنا».

قال المختار: «فما الذي حلّ به؟».

قال ابن الحاج صفر: «لا بدّ أن البورسيّين أخذوه. جاؤوا على عجل وأخذوه».

تقدّم الحاج جبار وهو ما يزال منحنياً، حتى بلغ حافة الوادي ثم ركع ورفع الفانوس إلى أعلى ونظر إلى الوادي ثم صاح: «ها يا حاج إسلام .. ها يا مختار .. ها هو، في الوادي».

تقدم البَيَليّون من حافة الوادي، وانحنوا. كان ثمة في قعر الوادي صندوق معدني ضخم ملقى في ناحية وهو يلتمع تحت ضوء القمر.

قال إسلام: «أهو ذاته يا حاج جبّار؟».

قال الحاج جبار: «نعم، هو بعينه».

هبط الحاج جبّار منحدر الوادي، وتبعه الرجال، ثم أخذ يدور من حول الصندوق وهو يردّد: «نعم، هو ذاته».

جلس ابن الحاج صفر على الأرض، ثم أخذ الفانوس المطفأ من اسماعيل. أشعله وتقدّم. دار حول الصندوق ثم جلس إلى جانب

الرجال، ووضع الفانوس أمامه.

قال إسلام: «من الذي ألقاه هنا؟».

قال الحاج جبار: «حين رأيته أول مرّة لم يكن هنا. كان فوق».

قال المختار: «إنها فعلة البوروسيّين».

قال إسماعيل: «حسن، أننا وجدناه».

أخرج مشدي بابا غليونه وعلبة تبغه وقال: «ما هو هذا الشيء يا حاج جبار؟».

قال عبدالله: «مجرّد صندوق. صندوق من الصفيح».

قال مشدي بابا: «وماذا بداخله؟».

نهض عبدالله، دار حول الصندوق وقال: «إنه ليس له باب، فكيف أعرف ما بجوفه؟».

قال اسماعيل: «إذا لم يكن له باب، فليس له جوف، ليكون مملوءاً أو خالياً».

قال عبدالله: «ألا يكون سيارة انقلبت فغدت على هذا النحو؟».

قال إسلام: «ليس سيارة. لو كان سيارة فأين عجلاته؟».

قال المختار: «ألا يمكن أن يكون حمّاماً؟».

قال إسلام متعّجباً: «حمّام؟».

قال المختار: «نعم، مثل ذلك الذي رأيناه في المدينة على سطح بيت الحاج السيد عنايت».

قال إسلام: «كلاّ. ذاك كان مجوّفا وقد صبّوا فيه ماء. ولم يكن على هذا النحو».

قال ابن الحاج صفر: «إن هذا ليس أي شيء. وكله من حديد».

قال مشدي بابا: «وما الفائدة منه؟».

قال ابن الحاج صفر: «يمكن أن تصنع منه القدور والأواني».

قال إسلام وهو يحملق في الصندوق مفتوناً به: «كلاّ، إن هذا ليس حديداً. إنه ليس شيئاً بسيطاً. هل ترون جدرانه؟ هل ترون شبكاته؟ هل ترون أزراره؟».

قال المختار: «إن الحاج إسلام على حق. إن هذا لا بدّ أن يكون شيئا متفرّدا بذاته».

قال ابن الحاج صفر: «كائناً ما كان، فإنّه لا فائدة فيه».

قال عبدالله : «لو كان منه نفع لما ألقى به البوروسيّون بعيداً».

قال إسلام: «لعلّهم لم يقدروا عليه».

قال المختار: «حاج إسلام .. انهض واعرف لنا ما هو».

نهض إسلام وتقدّم من الصندوق. تحسّسه بيده وتفحّصه. جلس بجانبه وأخذ يعبث بأزراره. كان ضوء القمر يسقط على الصندوق فينعكس على وجه إسلام الذي كان يردّد في سرّه: «ما هو؟ ماذا يمكن أن يكون؟».

مدّ عنقه حتى لامس وجهه الصندوق، ثم وضع أذنه عليه وراح يصغي. ثم اعتدل فجأة ونهض بسرعة. فنظر الرجال اليه.

قال إسلام: «انهضوا .. تعالوا واستمعوا .. تعال يا مختار. تعال يا مشدي بابا .. تعال يا إسماعيل!».

نهض الرجال وتقدموا، ووضعوا آذانهم على جسم الصندوق.

قال إسلام: «هل تسمعون؟»

قال المختار: «نعم، نعم».

قال ابن الحاج صفر: «إنّي لا أسمع شيئا».

قال إسلام: «أصْغ جيداً».

ثم جلس هو الآخر إلى جانب الآخرين ووضع أذنه على جدار الصندوق، وقال من جديد: «هل تسمعون؟».

قال مشدي بابا: «إنّي لا أسمع أي شيء».

قال إسماعيل: «إنه على حقّ .. ثمة أشياء في الداخل».

قال ابن الحاج صفر: «إني لا أسمع شيئا».

قال إسلام: «هل تسمع يا مختار؟».

قال المختار: «إنه كما لو أن ريحاً تهبّ بداخله».

قال مشدي بابا: «هنالك صوت ماء».

قال إسماعيل: «ألا يكون بداخله حفنة من النحل والذباب؟!».

قال ابن الحاج صفر: «إني لا أسمع أي شيء».

رفع إسلام رأسه وقال: «كلاّ، لم يعد هنالك صوت شيء .. هنالك صوت بكاء بداخله .. صوت بكاء ونحيب».

الصق الرجال آذانهم به، ثم نهضوا خاشعين.

قال المختار: «نعم ، هنالك صوت بكاء».

قال مشدي بابا: «أتقصد أن تقول إنّ هنالك شخصاً بداخله يبكي وينتحب؟».

قال إسلام: «ليس بداخله أي شخص يبكي وينتحب. إنّ هذا لضريح .. ضريح أحد أحفاد الأئمة. ألا ترون شكله؟ أما سمعتم صوت العويل؟».

قال ابن الحاج صفر: «أنا لم أسمع».

تراجع الرجال وجلسوا على الأرض.

قال المختار: «والآن .. ماذا نصنع يا حاج إسلام؟».

قال إسلام: «نحمله إلى بيَل».

قال مشدي بابا: «نحمله .. ماذا نفعل به؟ نأخذه ونلقي به إلى جانب أمثاله في العَلْمخانة؟».

قال إسلام: «نأخذه الآن، ثم أخبركم فيمابعد ماذا نصنع به».

جاء صوت صهيل حصان إسلام، الذي كانوا قد خلّفوه على الطريق. فصعد اليه ابن الحاج صفر على عجل. كان هنالك بوروسي يحمل سيفاً ويتسكع حول العربة، وهو لا يكفّ عن مراقبتهم.

– ٨ –

حين اقتربوا من بيَل كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل. كانت ننه فاطمة و ننه خانوم ومعهما الفانوسان المضاءان قد عادتا وجلستا عند الحديقة.

الطقس بارد والقمر قد مال نحو الغرب. إسلام ممسك بلجام الحصان يسحبه من أمام، والرّجال قد ترجّلوا من العربة وراحوا يدفعونها من وراء والصندوق محمول عليها.

نهضت ننه خانوم و ننه فاطمة واقتربتا. كبح إسلام العربة وبسط الرجال أيديهم واصطفوا متجاورين.

قالت ننه خانوم: «ما هذا يا حاج إسلام؟».

قال إسلام: «هذا .. ضريح يا حاجّة».

قالت ننه فاطمة: «ماذا؟ ضريح؟».

قال إسلام: «نعم، هذا ضريح، هذا حفيد إمام».

اقتربت ننه خانوم مهرولة ورفعت الفانوس إلى أعلى وأخذت تنظر إلى الصندوق في دهشة، ثم ضربت صدرها وقالت: «يا غريب الغرباء! يا إمام الزمان!».

قالت ننه فاطمة: «السلام عليك يا محمد، أيتها الحضرة، يا فاطمة، يا علي!».

قال إسلام: «السلام عليك يا ثأر الله!».

قال المختار: «السلام عليك يا إمام الغرباء!».

اقترب الرجال وتحلّقوا حول العربة، وجلست العجوزان في مواجهتها. صعد إسلام إلى العربة وقبّل الصندوق وبكى، فانخرط الرجال والنساء في البكاء والنحيب.

أخذ إسلام يتلو نواحّية بصوت عال، نهض الرجال وراحوا يضربون صدورهم ويردّدون النواحيّة.

استيقظ الحاج صفر من نومه، أخرج رأسه من فتحة منتصف السقف ونظر، فرأى البَيَليّين وهم يخرجون من بيوتهم ويهرعون نحو الحقول.

- ٩ -

عندما أشرق الفجر أحضروا العربة وأوقفوها أمام بيت إسلام.

جلست العجائز في حلقة حول العربة، بينما راح المختار وإسلام والحاج جبّار يبحثون عَنْ مكان للصندوق.

قال الحاج جبار: «إنّي أقول أن أفضل مكان هو خلف بيت الحاج صفر».

قال إسلام: «ليس هذا أفضل الأمكنة .. ينبغي العثور على مكان

يليق بالمقام».

قال المختار: «قوله صحيح .. إنّه لا أحد يمرّ من الساحة حيث بيت الحاج صفر».

قال الحاج جبّار: «إذن أين نضعه؟».

قال إسلام: «عالياً عند العَلَمْخانة أفضل بكثير».

قال المختار: «بارك الله فيك يا حاج إسلام .. نطقت خيراً».

قال الحاج جبّار: «جميل جداً .. نحمله إلى جوار العَلَمْخانة».

استداروا وعادوا مرة أخرى إلى حيث بيت إسلام فأخذوا العربة، من مدخل الزقاق الأول، واجُتازوا من وراء بيت المختار إلى أن بلغوا العَلَمْخانة.

قال مشدي بابا: «ماذا ستفعلون؟ هل ستدخلونه إلى العَلَمْخانة؟».

قال إسلام: «كلاّ، سنأخذه إلى ذلك المرتفع، فنبني من حوله جدراناً، وفي الخريف نسقفها بالدعائم الخشبيّة».

قال المختار: «إنها لفكرة طيبة يا حاج إسلام. بارك الله فيك».

قال إسلام: «اليوم لن يذهب أحد إلى الحقول، ما لم ننجز هذا العمل ونفرغ منه».

قال المختار: «طبعاً، لن يذهب أحد. كما أن اليوم هو الجمعة».

نزع إسلام قبعته ووضعها على العربة، ثم التفت إلى موسرخه وقال: «اركضْ .. اجلب المجرفة والمعول».

رسم المختار خطّاً حول المرتفع بقطعة من رخام وقال:

«هل سنبني أربعة جدران يا حاج إسلام؟».

قال إسلام: «نعم، سنبني أربعة جدران».

قال مشدي بابا: «كم يوماً سيستغرق؟».

قال إسلام: «اليوم سوف ننهيه».

قال مشدي بابا: «من سيذهب ويجلب الماء؟».

قال المختار: «الجميع .. إن في هذا العمل ثواباً كثيراً. ومن يعمل ينل أجره من الامام الحسين».

قال إسماعيل: «أنا أجلب الماء، وأجلب الطين، وأعمل كل شيء آخر تطلبونه».

قال عبدالله: «وأنا أيضا أجلب الماء».

قالت ننه فاطمة: «سوف يكون ضريحا معُتبراً لسيِّد .. سنرفع الأعلام عالياً، ونجلب الشمعدانات والمخمّسات».

قالت ننه خانوم: «أيها الإمام الحسين!».

قال إسلام: «سوف نضع الضريح في الوسط ثم نقيم الجدران من حوله».

اتجه الرجال نحو العربة. وظهر موسرخه وقد أحضر المجرفة والمعول. وسارت النساء نحو العَلَمْخانة. وجاء الحاج زينال بعكازتيْه وجلس أمام العَلَمْخانة. وضحت الشمس وانتشر ضياؤها ولم يذهب أحد من البَيَليِّين إلى الحقول.

– ١٠ –

حين انقضت الظهيرة كانوا قد فرغوا من إقامة أربعة جدران. توجّه الرجال بعد ذلك إلى البركة، فغسلوا أيديهم وأرجلهم وجلسوا

في الظلّ مترادفين. وكانت النساء قد أقمن إلى جانب حجر غسل الموتى الأسود قِدراً كبيرة، راح الحساء المنذور لله يغلي بداخلها ويفور ويُصاعد البخار.

قال المختار: «أرأيتم السّرعة التي تمّ فيها؟».

قالت ننه خانوم: «إنّ هذا من فضل الله، كما أن أولياء الأنبياء يمنحون المدَد».

قالت ننه فاطمة: «ما أحلاه وما أحسنه! سوف نجلب إليه كل المرضى المزمنين».

قال المختار: «تعلمون أنه يلزمه من يقوم على خدمته».

قال بابا علي الذي كان يطل برأسه من نافذة بيته: «إن الحاج زينال مناسب جداً لهذا العمل».

التفت الرجال وأخذوا ينظرون إلى الحاج زينال.

قال إسلام: «لو كان لدينا أحد الأسياد* لكان أفضل بكثير».

قال ابن الحاج صفر: «هل نذهب ونحضر شخصاً من سيّد آباد؟».

قال الحاج زينال: «إن أمّي كانت سيّدة ، وإن ننه خانوم تعرف ذلك».

قالت ننه خانوم: «نعم .. رحم الله السيّدة فاطمة يوم كانت تطوف تشحد في الحارات».

قال المختار: «نحمد الله على أن هذا قد ثبتت صحّته بالبرهان».

قال ابن الحاج صفر: «إنّي أكاد أموت من الجوع».

---

* السيد: الشخص الذي يعود نسبه الى رسول (صلى الله عليه وسلم)

أحضرت النساء الصحون النحاسية الكبيرة. دَعَتْ ننه فاطمة دعاء ثم بسطت النساء الصحون والأواني على الأرض. ثم شمّرت ننه خانوم كميّها وتوجهت إلى قدر الحساء.

- ١١ -

عند الغروب دخلت ننه خانوم و ننه فاطمة إلى العَلَمْخانة. أخرجتا الصورة الضخمة. ثم أخرجتا الأعلام، فالمخّمسات فالشمعدانات.

أخذتا الصورة وأسندتاها إلى الجدار المقابل للضريح. نَصَبتا أربعة أعلام في أركان الضريح الأربعة. وضعتا المخمسات في الشمعدانات ثم صفّتا الشمعدانات على الصندوق، وأنارتا الشموع.

لفّ إسلام عمامة خضراء حول رأس الحاج زينال. ثم تقدّم الحاج زينال بعكازتيْه وجلس عند عتبة الضريح وشرع في تلاوة القرآن.

راحت العجائز يبحثن عن المرضى في بَيَل. ثم عدن وهنّ يرفعن ابن الحاج أكبر المريض، وأخت عبدالله على الأكفّ، وأدخلنهما إلى الضريح. ربطت ننه خانوم سلسلة في عنق كل من المريضيْن، ثم عقدت السلسلة على أزرار الصندوق الضخمة، وقالت: «ابكيا، تنالا الشفاء».

تمدّد المريضان على التراب وشرعا في النحيب. جاءت ننه فاطمة التي كانت على وضوء ووقفت أمام عتبة الضريح وقالت بصوت جهير: «يا الله، أيها الحضرة، يا علي، يامحمد، يا حسن، يا حسن، السلام عليك يا الله، يا حضرة، يا علي، يا محمد، يا حسن، يا حسين.

جئنا نريد الشفاء. أيتها الحضرة، يا إمام، يا نبي، يا علي يا الله، اشف مرضى بَيَل. لتجُدْ ذاتك عليهم بالشفاء».

كان البَيَليّون مصطفّين وراء ننه فاطمة وقد رفعوا أيديهم عالياً، وراحوا يردّدون وراء كل عبارة وبصوت واحد: «آمين».

- ١٢ -

كانت شاحنتان ضخمتان تطوفان في المنطقة كلها. ذهبتا أولاً إلى بوروس، وقام من فيهما بدخول كل بيت ونظروا في كل بئر. ثم توجّهوا إلى سيد أباد، وخاتون آباد، وملك زاده، وينكيجه، وميشو، وطافوا فيها بكل بيت، ولكنهم لم يذهبوا إلى بَيَل. كانت بَيَل صغيرة .. صغيرة جداً..

وحين بلغوا مرتفع شور قادمين من هزيوان، توقفت الشاحنة الأولى. ثم توقفت الثانية. ترجّل من الشاحنة الأولى ضابط أمريكي ونظر إلى بَيَل بمنظار مقرّب ثم أشار بأن يذهبوا إلى هناك. قال ضابط كان واقفا خلف الضابط الأمريكي: «ليس هنالك من شيء».

أشار الأمريكي، وسارت الشاحنتان نحو بَيَل.

كان الوقت قبيل الغروب. وكان الرجال جالسين خلف بيت الحاج صفر يتجاذبون أطراف الحديث. وعندما سمعوا صوت الشاحنتين نهضوا ثم هرولوا نحو الحقول. توقفت الشاحنتان. ترجل الأمريكي أولاً، ثم تبعه الجنود الذين انطلقوا ينتشرون في القرية. نظروا إلى البيوت الطينيّة بسقوفها الواطئة. لم يعثروا على شيء. سار الأمريكي نحو العَلَمْخانة. شرع الحاج زينال الذي كان جالساً بباب الضريح

في تلاوة القرآن. تقدم الأمريكي وحين أطلّ بداخل الضريح أطلق هتافاً عالياً. جرى الجنود ونظروا. أشار الأمريكي، ففتح أحد الجنود حقيبة كانت معه. دخل الأمريكي. نزع السلاسل عن عنق كل من ابن الحاج أكبر وأخت عبدالله. تقدمت العجوزان وأخذتا المريضين إلى الخارج. نظرالأمريكي من حوله في دهشة ثم ألقى بالشمعدانات والمخمسات أرضاً. اخرج سلكين من الحقيبة ووصلهما إلى زرّين من أزرار الصندوق، ثم أخذ السلكيْن وربطهما إلى حقيبة معدنية أخرى لها عدة مصابيح ضخمة، ثم راح ووقف خلف الصندوق. تجمع البَيَليون بدورهم داخل الضريح في حلقة حول الصندوق، وأخذوا ينظرون مبهورين. وضع الأمريكي قدمه على دواسة صغيرة وضغط. انطلق من الصندوق صوت أزيز، وأنارت المصابيح في الوقت ذاته. خاف البَيَليون وتراجعوا.

زمجر الأمريكي فانطلق الجنود ودمّروا الجدران. تقدمت إحدى الشاحنتيْن من التلّة، فرفع الجنود الصندوق ووضعوه فيها.

ثم عادوا فطوّقوا البَيَليّين.

قال الضابط قصير القامة: «من أين أحضرتم هذا؟».

قال المختار: «وجدناه في الطريق».

قال الضابط: «أي طريق؟».

قال المختار: «كان ملقى في طريق بورُوس».

قال الضابط: «من منكم أحضره؟».

قال إسلام: «كلّنا».

أشار الضابط إلى الجنود وقال: «أركبوهم في الشاحنة كلهم».

هتف ابن الحاج صفر الذي كان واقفاً وراء الجميع: «إن الحاج جبار هو الذي أحضره .. لم نحضره كلنا .. الحاج جبار أحضره».

قال الضابط: «مَن فيكم هو الحاج جبّار؟».

أخذ الضابط ينظر إلى الرجال، فقال ابن الحاج صفر: «هو ذاك». وأشار إلي الحاج جبار الذي كان واقفاً إلى جوار مشدي بابا وإسلام. تقدّم الجنود منه واقتادوه إلى الشاحنة. صعد الأمريكي إلى الشاحنة. ثم أركب الجنود الحاج جبار فيها .. وأطلقوا بعض الشتائم وركبوا. استولى الخوف على البَيَلَيّين فتراجعوا شيئاً فشيئاً وتواروا يختبؤون وراء الجدران.

وحين سارت الشاحنتان قال موسرخه لعبدالله: «هنيئاً للحاج جبار .. فهو يذهب إلى المدينة مرة أخرى!».

- ١٣ -

حين ابتعدت الشاحنتان تقدمت ننه فاطمة و ننه خانوم وقامتا بجمع الأعلام والمخمسات والشمعدانات وادخالها إلى داخل العَلَمْخانة.

قال إسلام والمختار وسائر البَيَلَيّين بتنحية الأتربة جانباً، واخراج الصّورة. وعندما حلّ الليل تجمع البَيَلَيّون عند بركة الماء. كما جاءت النساء وجلسن خلف الجدار.

وصعد إسلام على حجر غسل الموتى الأسود وأخذ يتلو الروضة.

وانطلق البَيَلَيّون في النحيب والعويل.

القصة السابعة

- ١ -

أحضر إسلام ومشدي بابا وابن الحاج صفر، موسرخه إلى ضفّة البركة. كان إسلام يحمل تحت إبطه كيساً من الخبز اليابس، وكان يقطّعه ويضع القطع في فم موسرخه، فيمضغه هذا بنهم ويبتلعه. جاء إسماعيل وعبدالله والمختار أيضاً، وجلسوا.

قال مشدي بابا: «تقولون ماذا نفعل له الآن؟».

قل المختار: «إنّ عقلي عاجز عن الفهم. لقد رأيت في زماني كل شيء، ولم يبق عليّ سوى هذا».

قال ابن الحاج صفر: «كيف لا ينفجر؟».

سعل عبدالله وقال: «كيف صارت سحنته؟! أترون عينيه؟ أترون فمه؟».

أخرج إسماعيل من جيبه حبّتيْن من البطاطا وضعهما في فم موسرخه وقال: «يداه ورجلاه أيضاً تغيّر شكلها».

أمسك ابن الحاج صفر بيد موسرخه ونظر وقال: ««غدتْ كفّ دبّ، كفّ دبّ معتبر».

قال إسلام: «إنّه يأكل كل شيء، شهر آخر ولن يبقى في بَيَل شيء يؤكل».

صاح موسرخه الذي خلا فمه من الطعام: «إنّي جوعان، إني جوعان».

قال مشدي بابا: «لتنفجرْ، كم تأكل؟».

وضع إسلام قطعة من الخبز في فم موسرخه. بلع هذا الخبز كاملاً وصاح مرة أخرى: «جوعان».

وضع إسماعيل في فمه حبّتيْن أخريين من البطاطا وقال: «ذهب الليلة البارحة إلى بيت ننه فاطمة وأكل كل البصل الذي عندها».

قال ابن الحاج صفر: «قبل ثلاث ليال أيضاً جاء عندنا وابتلع مقداراً من القمح كان عند والدي».

قال عبدالله: «جاء إلى بيتنا أيضاً ولكنّي أسقطته عن الجدار بالنّبّوت».

وضع إسماعيل حبة أخرى من البطاطا في فم موسرخه وقال: «زوجتي من الخوف خبّأت كل ما كان لدينا».

ابتلع موسرخه حبة البطاطا وصاح: «جوعان. جوعان».

قال المختار: «بالله عليك يا إسلام، لا تعطه طعاماً لنرى ماذا يفعل».

صرخ موسرخه بصوت أعلى: «جوعان، جوعان، جوعان».

قال مشدي بابا: «كفى، لقد خرقت آذاننا».

وضع إسلام في فمه قطعة خبز وقال له: «طيب، لا تصرخ».

قال المختار: «ماذا نفعل به؟».

قال إسلام: «أحسب الأمور فأرى أننا بعد شهر ينبغي أن نشحد كي نستطيع إشباع بطن هذا».

قال مشدي بابا: «أأنا أذهب لأشحد وأطعم هذا؟».

قال إسلام: «ألا تراه؟».

وضع إسماعيل حبة بطاطا أخرى في فم موسرخه وقال: «إذا كان الأمر كذلك، فينبغي التفكير فيه منذ الآن. إنّي لا أطيق الاستجداء».

قال المختار: «أليس الأفضل أن نطعمه علفاً بدلاً من الخبز وهذه الأشياء؟».

قال ابن الحاج صفر: «إنّ هذه الأشياء لا تنفعه. ليس له سوى طريقة واحدة».

نظر الرجال إلى بعضهم، قال عبدالله: «أية طريقة؟».

قال ابن الحاج صفر: «أن نتخلص منه».

صاح موسرخه: «جوعان، جوعان».

وضع إسماعيل حبّتيْن من البطاطا في يد موسرخه: «في ذلك إثم، في ذلك إثم كبير».

قال إسلام: «لن أسمح بأن تفعلوا ذلك».

قال ابن الحاج صفر: «اذن ماذا ستفعلون به؟».

فكّر إسلام وقال: «أقول، نطرحه في مكان ما ونغلق عليه الباب، ونضع له خبزاً وماء».

قال إسماعيل: «سوف يهلك من الجوع».

قال إسلام: «ليته يهلك، فإن لم يحدث ذلك، نقلّل له الماء والخبز بالتدريج يومياً، حتى يعود إلى المعدل الطبيعي».

قال عبدالله: «أين نضعه؟».

سرّ المختار فضحك وقال: «بارك الله فيك يا إسلام، بارك الله يا حاج إسلام، يا لها من فكرة طيبة!».

فرح الرجال، وراحوا وتفحصوا طاحوناً مهجورة كانت تقع في طريق جاميشان عندما نهضوا أخذ موسرخه يصيح:«جوعان، جوعان».

- ٢ -

عندما انفتح الباب هربت الفئران واختبأت تحت تابوت قديم. دخل إسلام ودفع مشدي بابا والحاج صفر، موسرخه، أمامهما ثم دخل الجميع. لم تكن المطحنة ضخمة واسعة. سقفها منهار، وأشعة الشمس تسقط على جدرانها التي كانت ماتزال بيضاء من بقايا الطحين.

أعطى إسماعيل إبريق الماء الذي كان في يده لعبدالله، وأخرج من جيبه حبّتي بطاطا وضعهما في فم موسرخه وقال: « ولكنّ هذا المكان لا سقف له يا حاج إسلام».

قال إسلام: «الجدران عالية، لا يستطيع أن يهرب».

وضع ابن الحاج صفر صفيحة الحساء بجانب شوال الجزر، وأسند ابريق الماء على سطل الحساء. اختبر المختار الباب المكسور وقال: «يا حاج إسلام، ليس لهذا الباب مشبك أو قفل يعتمد عليه، فماذا ستفعل به؟».

قال إسلام: «سوف نصلحه، فلا تحمل همّه».

راح المختار فأخرج بضع قطع من الخبز وقبضة من الجزر،

وضعها على التابوت أمام موسرخه، فشرع هذا بالأكل، تفرّج عليه الرجال وخرجوا. رفع إسلام الباب للأمام وقال: «نغلق الباب بالمسامير، ماذا بوسعنا أن نفعل؟».

قال إسماعيل: «وغداً نكسره وندخل؟»

قال إسلام: «نحضر سلّماً نضعه على الجدار من هذه الجهة وكلما أردنا ادخال شيء صعدنا على السلم، وألقينا بما نريد من عليه».

قال إسماعيل : «كم يوماً يبقى هنا يا حاج إسلام؟».

فكّر إسلام وقال: «لا ندري، الله أعلم. لعله يتحسن بسرعة فنخرجه».

قال المختار: «هل تظنّه يتحسّن؟».

قال إسلام: «يمكن أن يتحسن، ويمكن أن لا يتحسن، الأمور بيد الله».

قال ابن الحاج صفر: «إن لم يتحسّن فلا ينبغي أن نسمح له بالتنقّل في القرية».

صرخ موسرخه الجالس على التابوت وفمه ملآن: «جوعان ،جوعان».

– ٣ –

حلّ الليل فخرجت الفئران من تحت التّابوت واقتربت بهدوء، وتحلّقت حول موسرخه الذي كان قد أنهى أكل سطل الحساء وأخذ يأكل الجزر. نهض موسرخه حين رأى الفئران وراح يرفسها ويدوسها وفمه محشوّ بالجزر. هجمت الفئران وتزاحمت داخل

السّطل. حمل موسرخه كيس الجزر وكيس الخبز ووضعهما على التابوت وجلس بجانبهما. طلع القمر فأضاء داخل الطاحون.

توقف موسرخه عن المضغ وأصغى. لم يكن يسُمع صوت سوى صوت الفئران التي كانت قد دخلت في السّطل وأخذت تلعق جدرانه.

– ٤ –

بعيد منتصف الليل هبّ إسلام من نومه. كان هنالك شخص غير واضح واقعاً في البركة وهو يتخبّط في الماء.

ركض إسلام وخرج من النافذة. وخرج رجال آخرون. رأوا موسرخه غاطساً في الماء إلى حنجرته يطارد الأسماك على ضوء القمر.

نظر المختار متعّجبا. أحضر مشدي بابا فانوساً مضاءاً وقال: «أعوذ بالله، ماذا نزل يفعل هناك؟».

هتف المختار : «ها .. يا ولد .. ماذا نزلت تفعل هناك؟».

كان موسرخه يخبط الماء بيديه ورجليه ويهجم على السمك.

قال إسلام: «تعال إلى الخارج! تعال إلى الخارج!».

قال المختار: «ماذا نزلت تفعل هناك؟».

قال موسرخه: «جوعان».

قال إسماعيل: «هل أكل كل الطعام؟».

قال المختار: «لا شك في أنه أتى على الطعام كله فخرج».

قال ابن الحاج صفر: «وكيف خرج؟».

قال المختار:« تعال، اخرج، تعال!».

قال موسرخه: «أنا جوعان».

وهجم على السمك. قال إسماعيل: «لماذا يفعل ذلك؟».

قال الحاج بابا: «ألا ترى؟ يريد أن يصيد الأسماك ويأكلها».

قال إسماعيل: «كيف يريد أن يأكلها؟ إنّها مسمومة. دعه يأكلها فينفجر في مكانه».

قال ابن الحاج صفر: «ذلك أحسن. دعه يأكلها وينفجر».

أخذ المختار الفانوس من يد مشدي بابا، وهزّه وقال: «أخرجْ يا ولد، أخرجْ!».

قال إسلام: «بهذه الطريقة لن يخرج يا مختار. دعنا نريه طعاماً وعندئذ يخرج على الفور».

قال إسماعيل: «الآن أحضر طعاماً».

ذهب وعاد برغيفين. أخذهما إسلام وأراهما لموسرخه وقال: «ها .. يا ولد، تعال، خبز، خبز. ألا تأكل خبزاً؟».

خرج موسرخه من البركة على عجل وركض نحو إسلام، فقطع هذا الخبز وحشاه في فم موسرخه. قال المختار لإسلام: «ماذا تفعل به الآن؟».

قال إسلام: «نحتاج إلى حبل، أحضروا حبلاً فنربطه، فلا يستطيع الفرار».

قال إسلام: «نربطه على نحو لا يستطيع معه الفكاك».

قال المختار: «ونعيده إلى الطاحون؟».

قال إسلام: «أجل، فلو بقي في القرية لأثار الفوضى فيها. نعيده ونأخذ له طعاماً».

أحضر إسماعيل حبلاً. مضى الرجال جميعاً نحو الطاحون يتقدّمهم مشدي بابا وبيده الفانوس كي ينير لهم الطريق.

أطلع الحاج صفر رأسه من ثقب سطح البيت، وتفرّج على الرجال وهم سائرون باتجاه جاميشان».

— ٥ —

عندما دخلوا الطاحون هربت الفئران واختبأت تحت التّابوت. تقدّم مشدي بابا وبيده الفانوس، دفع إسلام وابن الحاج صفر، موسرخه أمامهما. دخلوا جميعاً. كان القمر فوق رؤوسهم تماماً، فكانوا يرون «الخردوات» المهجورة داخل الطاحون بشكل واضح.

قال عبدالله: «إذن فقد حطّم الباب وهرب».

قال ابن الحاج صفر: «الحقّ على إسلام الذي لم يغلق الباب بإحكام».

قال إسلام: «ظننت أنه سوف يأكل حتّى ظهر غد. لقد وضعنا له كل ذلك الطعام، ولن يستطيع أن ينهيه».

ركل ابن الحاج صفر الصفيحة الخالية بقدمه وقال: «انظروا، أكل كلّ ما فيها ولم ينفجر».

وضع إسماعيل صرّة الخبز والبصل على التابوت وقال: «لن يمضي نصف ساعة حتى يكون قد أكل هذا وأنهاه وخرج من جديد».

قـال ابن الحـاج صـفـر: «على هذا المنوال، لن يكون في بَيّل بعـد يوميْن شيء يؤكل».

قال المختار: «أخشى أن يعصف بالمحاصيل فيأكل القمح وينهيه».

قـال ابن الحـاج صـفـر: «خـيـر لنـا أن نذهب ونحـضـر له قليـلاً من الفصّة».

قال إسلام: «طيّب. والآن من يجيد الربط والعقد؟».

قال ابن الحاج صفر: «أنا».

قال إسلام: «على نحو لا يستطيع معه أن يحلّ الحبل».

قال ابن الحاج صفر: «سأعقده عقدة لا يستطيع حلّها في سنتيْن».

قال إسماعيل : «سأذهب أنا وعبدالله نحضر الفصّة».

وذهبا. جلس الرجال حول موسرخه. وكان هذا مشـغولاً بابتلاع الطعام عندما أمسك إسلام برجله اليمنى ورفعها عالياً.

جعل ابن الحاج صفر الحبل حلقتيْن ألبسهما لقدمي موسرخه مثل خلخاليْن. قرّب مشدي بابا الفانوس. عقد ابن الحاج صفر الحبل عقدة ضخمة عجيبة أضحكت المختار والحاج إسلام. نهضوا، فأخذوا الطرف الآخر للحبل وربطوه بحجر الطاحون الضخم الذي كان ملقى في ركن في الغرفة. وقفوا ينتظرون ويطالعون موسرخه. ظهر إسماعيل وعبدالله ومعهما رزمتان من الفصفصة. أهالوا الفصفصة على التابوت. التقط مشدي بابا الفانوس، وخرجوا جميعاً. كان ظلام الليل قد ولّى، وأخذ يرتفع في المشرق شريط عريض حليبّي اللون.

- ٦ -

في المساء عندما رجعوا من الحقول وجدوا موسرخه أمام بيت بابا علي وقد تجمعت حوله النّساء ونثرن أمامه البطاطا والجزر فراح يأكل بنهم. قال المختار: «من أخرجه؟»

قالت ننه خانوم: «لم يخرجه أحد. خرج بنفسه».

قال إسلام: «كيف خرج بنفسه؟ لقد كنّا ربطنا قدميه».

تنحّت النّساء جانباً. تقدم إسلام ونظر إلى قدمي موسرخه والحبل المقطوع. كانت العقدة التي عقدها ابن الحاج صفر حول قدميه كالخلخال مدلاّة مع عدة أشبار من الحبل الذي تجمع تحت فخذه كالأفعى الرابضة. أمسك إسلام بالحبل وجذبه. استدار موسرخه وفمه مفتوح ونظر.

انحنى المختار وقال: «كيف قطعته؟».

لم يقل موسرخه شيئاً. ابتلع ما كان في فمه والتقط جزرتين أخريين. قال المختار: «ماذا نفعل بك؟».

لم يقل موسرخه شيئا. راح الرجال وتجمّعوا قدام بيت إسلام.

قال إسلام: «هذه أيضاً لم تنفع. فلنفكر بفكرة أخرى»

قال ابن الحاج صفر: «لا فائدة في الأفكار الأخرى. لقد قلت لكم منذ اليوم الأول. كان ينبغي يومئذ أن نتخلّص منه».

قال المختار: «تقصد أن نقتله؟».

قال ابن الحاج صفر: «عجباً، كلاّ. بل نأخذه إلى الصحراء ونطلقه

هناك».

قال مشدي بابا: «يعود، يعود قبلي وقبلك».

قال ابن الحاج صفر: «أمره هيّن، نأخذه ونسيّبه حوالي سيّد آباد أو خاتون آباد، فإذا أراد العودة إلى بَيَّل مات من الجوع فيضطر إلى أن يدخل تلك القرية».

قال إسلام: «ليست فكرة سيئة».

قال المختار: «متى نفعل ذلك؟».

قال ابن الحاج صفر: «الآن فوراً. ولن نتأخّر».

نهض الرجال. كانت حاشية الغروب الحمراء تنسحب رويداً رويداً عندما ذهب بضعة نفر وأحضروا موسرخه. ذهب إسلام كذلك وأحضر العربة. حمل عبدالله وابن الحاج صفر موسرخه ووضعوه داخل العربة، ونثروا قدامه الجزر والخبز. جلس إسلام في مكان الحوذي، وركب الرجال الآخرون وانطلقوا.

قال إسماعيل: «ليتنا أحضرنا معنا فانوساً».

قال المختار: «كلاّ، الظلام أفضل. يستحسن أصلاً أن لا يرانا أحد».

قال إسلام: «في القرى الأخرى ألا يعرفون هذا الطفل؟».

قال عبدالله: «حتى وإن لم يعرفوه ، فهو نفسه سوف يقول من أين هو».

قال إسلام : «أسفاً على موسرخه، كان يُنتفع منه كثيرا.

أتذكرون؟».

قال إسماعيل: «أجل، كان مثل الكبار».

قال ابن الحاج صفر: «لقد انتهى. لا تفكروا فيه. كأنّه لم يكن. كأنّه مات وراح».

قال المختار: «كلّهم يسقطون، كلهم يضيعون».

ضربوا في الصحراء دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة.

بزغ القمر من جهة المشرق بدراً. كانت ثمة عربتان تعبران متجهتين من خاتون آباد نحو ميشو وكلتاهما مملوءتان بالبطاطا والجزر وصرر كبيرة. حين عبرتا من قدّام البيليّين عبقت رائحة الخبز وملأت الصحراء.

– ٧ –

وقفت العربة في مكان لا طريق فيه. أنزل إسلام والمختار ومشدي بابا وإسماعيل وابن الحاج صفر، موسرخه ودخلوا به في الظلام. كانت قرية سيّد آباد نائمة. مضى البَيَلِيّون بهدوء حتى بلغوا حقل فصّة. أفرغ إسماعيل الشوال المملوء الذي كان في يده على الأرض. جلس موسرخه وانهمك بالأكل. عاد البَيَلِيّون على رؤوس أصابعهم. جلس إسلام في مقعد الحوذي. وركب الرجال بهدوء ودون ضجيج. وعندما مشوا كان عويل موسرخه يملء الصحراء.

– ٨ –

وجد أهل سيد آباد موسرخه جالساً بين محاصيلهم يأكل القمح، ظنّوا في البداية أن حيواناً غريباً حلّ بقريتهم، وحين اقتربوا، رأوا

موسرخه وقد رُبطت قدماه بحبل.

تجمع السيد آباديّون وأخذوا يتفرجون.

قال السيد آبادي الأول: «من أين جاء؟».

قال السيد آبادي الثاني: «ليس من أهل سيد آباد، هل جاء من قرية أخرى؟».

قال الأول: «هل تعرفه؟».

اقتربوا ودقّقوا النظر. لم يتعرف أي منهم على موسرخه، جلس الأول بجانب موسرخه الذي راح يأكل دون كلل وعيناه مثقلتان متعبتان. أمسك الثاني بالحبل المربوط بقدميه وجذبه. امتدّت رجل موسرخه ولم يقل شيئاً.

قال الثالث: «من أي بلد أنت؟».

قال موسرخه وفمه مملوء: «جوعان، جوعان».

قال الثالث: «من أين جئت؟».

قال موسرخه: «جوعان».

غضب الثالث وقال: «ما إسمك؟ من أي قرية أنت؟ ومن أين جئت؟».

لم يقل موسرخه شيئاً، ملأ فمه وانهمك بالأكل. نظر السيد آباديون إلى بعضهم.

طلعت الشمس، وتلألأ المحصول مثل الذهب. كان موسرخه منكباً على تلة القمح، يملأ فمه بشراهة ونهم مثل من يعانون المجاعة.

قال الأول: «ليذهبْ أحد يخبر السيّدة الشحاذة بأن شخصاً قد دخل القرية وهو يلتهم كل شيء. ماذا نفعل به. وليذهب شخص آخر أيضا يحضر له بصلاً وخبزاً».

ذهب اثنان من السيد آباديّين وعادا بعد بضع دقائق. أفرغ الأول كيس الخبز والبصل كله أمام موسرخه، أما الثاني فقد قال لاهثاً:

«السيدة الشحاذة تقول لا تسمحوا له بالدخول إلى القرية. أطردوه. إنّه مصيبة. لا تدعوه يدخل سيد آباد».

كان السيد آباديون ينتظرون. وعندما فرغ موسرخه من الأكل، أركبوه حماراً وساروا نحو حسن آباد.

– ٩ –

لم يكن لموسرخه شيء في حسن آباد. أحاط به الأطفال وأخذوا ينظرون إليه خائفين. كان يدبّ على أربع ويسحب الحبل على الأرض وراءه. جاءت العجائز وانحنيْن ورحن ينظرن اليه. كان شعره ملتصقاً ببعضه، وعيناه وارمتيْن متصلتين ببعضهما، ويداه وقدماه قد تغيّر شكلهما. جاءت العجائز متصدّقات بالخبز والبصل، وموسرخه يلتهم كل شيء.

قال المختار عندما رآه: «هذا ليس بشراً. من أين جاء؟ ما اسمه؟ من أحضره إلى هنا؟».

جثمت العجائز قدّام موسرخه وأخذن يتوسّلن إليه: «هيّا، اذهب من هنا، من أجل الله والرسول. هيّا أخرج من حسن آباد».

تمدّد موسرخه على الأرض مثل ضفدعة. كان يحاول جاهداً أن

يفتح عينيْه فلا يقدر. جاء الرجال واصطفّوا خلفه، يخطّطون كيف يمسكون به ويخرجونه من القرية. كانوا جميعاً خائفين من موسرخه.

- ١٠ -

جاء إلى بَيَل حيوان عجيب هاجم المحاصيل. لم يكن يشبه شيئاً. خطمه طويل مثل خطم الفأر. وأذناه صغيرتان مثل أذني فأر. ولكنّ يديْه وقدميه لها حوافر. وذيله القصيرة والمثلثة قائمة مثل ذنب العنز. وتحت الأذنين يشاهد قرنان صغيران على وشك أن يبرزا من تحت الجلد. وحين يبذل جهده ينفتح جفناه وتظهر عيناه من تحت قرنيه وهما تنظران إلى أعلى مثل عينيْ ضفدعة. كان جالساً يأكل القمح.

قال مشدي بابا: «ما هذا - الآخر؟ هل تعرفه؟».

قال ابن الحاج صفر: «إني لم أشاهد حتى الآن شيئا كهذا».

قال إسماعيل: «ألا يكون ضبعاً؟».

قال المختار: «كلاّ، لقد كنت رأيت الضبّع ثلاث مرات أو أربعاً، ولم يكن في أي واحدة منها مثل هذا».

قال ابن الحاج صفر: «أقول ألا يكون موسرخه وقد عاد إلى القرية؟».

نظر إليه المختار ومشدي بابا حائرين. قال المختار: «كلاّ يا أخي، موسرخه لم يكن هكذا».

قال مشدي بابا: «نعم، لم يكن في وجهه شعر».

قال ابن الحاج صفر: «لا أدري. ليكنْ من يكون، ينبغي التخلّص منه».

قال المختار: «أنا لا أستطيع».

قال مشدي بابا: «وأنا أيضاً لا أستطيع».

قال ابن الحاج صفر: «أنا أستطيع».

وذهب فأحضر من خلف كومة المحصول حجراً ضخماً.

أدار المختار ومشدي بابا وإسماعيل ظهورهم لابن الحاج صفر وأخذوا ينظرون إلى الطاحون المهجورة والريح تصفق بابها المحطم. رفع ابن الحاج صفر الحجر عالياً. وضع إحدى قدميه عند إحدى جهتي الحيوان وقدمه الأخرى عند الجهة الأخرى وأفلت الحجر. انطرح الحيوان على الأرض دون أن يصدر صوتاً. فار من فمه دم أصفر لزج. ذهب المختار ومشدي بابا وراء كومة المحصول ليحفروا للجثة حفرة يوارونها فيها.

- ١١ -

سُحب موسرخه إلى خارج ميشو. ألقاه ثلاثة ر جال أشدّاء في عربة، وألقى رجل ثالث بكمية من العشب وقشر الشمندر أمامه.

تمدّد موسرخه فوق العربة. عيناه لا تنفتحان. الأطفال تجمعوا حوله يحصبونه بالحجارة. وهو يلتفت بعينيه المغلقتيْن وفمه المملوء ويغطّ كالنائم. يضحك الأطفال ويهربون.

سارت العربة وخرجت من القرية. غربت الشمس وأظلم الجوّ. كان موسرخه لم يفتح عينيه منذ عدة أيام، فلم يعرف أن الشمس غابت وأن الظلام قد حلّ.

- ١٢ -

رأى ابن الحاج عنايت وهو عائد من الحقل، موسرخه مملوء الفم يزحف في حقل الفصّة ويجرجر نفسه نحو خاتون آباد. تقدم على مهل ونظر. انحنى وأخذ الحبل المربوط برجل موسرخه وجذبه إلى أعلى. كبا موسرخه وارتطم رأسه بالأرض. ركض ابن الحاج عنايت بسرعة يدخل القرية. عاد مع والده ومير حمزة واثنين آخرين من أهل خاتون آباد.

قال ابن الحاج عنايت: «ذاك هو يا أبي. من أين جاء؟».

انحنى مير حمزة وقال: «أليس من أهل خاتون آباد؟».

جلس الحاج عنايت على الأرض وفتح بيده عيني موسرخه ونظر.

قال أحد الخاتون آباديّين قال: «أتعرفه يا مختار؟».

انحنى الحاج عنايت ونظر مرّة أخرى. انطبقت جفون موسرخه الثقيلة على بعضها.

قال الحاج عنايت: «نعم، نعم، عرفته. كنت رأيت هذا الفتى ذات يوم في بَيَل».

قال مير حمزة: «ومن أحضره إلى هنا؟».

حدّق ابن الحاج عنايت بقدميْ موسرخه ويديه المتورمة وجسمه الذي تغيّر شكله وقال: «لا شك في أنهم بأنفسهم ضربوه وأخرجوه من القرية».

قال الحاج عنايت: «أنا أظنّ ذلك أيضاً».

قال مير حمزة: «طيب، ماذا نفعل به؟ إذا كانوا هم أنفسهم لم يحتفظوا به، فلن نسمح بالقاء هذا العبء على عاتقنا».

قال ابن الحاج عنايت: «لنأخذه ونلْقِه في بَيَل».

قال الحاج عنايت: «كلاّ، هذا عمل سيّء، مهما يكن. فقد أكلنا معاً عيشاً وملحاً».

قال ابن الحاج عنايت: «إذن لماذا لم يرعوا حرمة العيش والملح، فأحضروا هذا وأطلقوه هنا؟».

قال الحاج عنايت: «حسناً، ما هكذا تعالج الأمور. اصبروا، حتّى يحلّ الليل، فنأخذه ونطلقه في تلك الأنحاء». قال ابن الحاج عنايت: «وإلى أن يحلّ الليل، ماذا نفعل به؟».

قال مير حمزة: «نأخذه إلى ميدان القرية».

أخذوا موسرخه إلى ميدان خاتون آباد. علم الأطفال فجاءوا. نظروا إليه مبهوتين في البداية. ولمّا هدأ روعهم تقدّموا منه. قال ستار للحاج عنايت: «ما هذا البطن الذي يملكه؟! إنّه يلتهم كل ما تصل إليه يده».

قال الحاج عنايت: «إنّه من بَيَل».

قال ستّار: «واضح من أي مخروبة هو!».

أحاط به الأطفال. كانوا ينبشون الزبالة بجوار الميدان ويقدّمون إليه كل ما يعثرون عليه، فيتناوله ويبتلعه على الفور. كان الخاتون آباديّون ينظرون إليه وينفجرون ضاحكين.

قرابة الظّهر، وجدوا موسرخه خلف المحاصيل بجانب الطاحون. غدا خطمه مستطيلاً مثل خطم الفأر، وقد تداخل شعر رأسه وشعر وجهه. يداه وقدماه متورمة قذرة، وكأنّه نبت لقدميه حافران. الحبل المربوط بقدمه قذر واقف عمودياً مثل ذنب العنز. ويجاهد كي يفتح عينيه فلا يستطيع.

أول من عثر عليه هو ابن الحاج صفر. أخبر الرجال، جاءوا جميعاً.

قال مشدي بابا: «ما الخبر؟».

قال ابن الحاج صفر: «ها قد جاء واحد آخر منهم».

قال مشدي بابا: «وماذا ستفعل له؟».

قال ابن الحاج صفر: «أنا ذاهب لأحضر حجراً».

انحنى إسلام، فنظر وقال: «كلاّ، إنّ هذا هو موسرخه .. ابن قريتنا».

سمع موسرخه صوت إسلام فقال في أنين خافت:

«جوعان، جوعان».

قال ابن الحاج صفر: «ألا أحضر حجراً؟».

قال المختار: «ماذا تقول؟ تريد أن تقتل نفساً؟».

قال إسماعيل: «ما هذه السّحنة التي يحملها هذا المسكين!».

قال إسلام: «لم يبق من عمره شيء».

قال ابن الحاج صفر: «أتريد أن تقول، إنّ علينا ترك أعمالنا

والتفرغ لرعاية هذا؟».

قال إسلام: «كلا، لا تحمل همّاً. لن أسمح أبداً أن يبقى في بَيَل».

قال المختار: «أتريد أن نأخذه إلى سيِّد آباد أو قرية أخرى؟».

قال إسلام: «لا تتدخّلوا أنتم في أمره. سوف آخذه أنا والحاج إسماعيل إلى المدينة».

قال مشدي بابا: «ومن ثمّ؟».

قال إسلام: «ومن ثمّ يرتاح بالكم!».

وجلس بجانب موسرخه، فتح منديله وأخرج رغيفيْن وضعهما أمامه. فتح موسرخه جفنيه كي ينظر إلى إسلام. كانت عيناه مثل عينيْ ضفدع، تنظران إلى أعلى.

- ١٤ -

موسرخه، في الميدان الرئيسي في المدينة، يدبّ على أربع، ويتقدّم ساحباً خلفه الحبل المربوط بمعصمي قدميه. تجمّع حوله خلق كثير، ينظرون إليه متعجبّين كيف يجرّ نفسه على الأرض ويتقدم مغمض العينيْن. الأطفال يلقون أمامه بقشور الفاكهة والخبز والأوراق المرميّة، وهو يبتلعها كلها.

قال شابّ طويل كان يقف في وسط الجمع: «لقد رأيته، رأيته بنفسي بعينيّ هاتين، وهو يخرج من مياه المجاري. تعلمون، من نفس ذلك المكان الذي أمسكوا فيه ذات يوم حيوانين ضخميْن قالوا إنّهما قندسان».

قال الرجل الذي كان واقفاً بجانبه: «حسناً، ماذا نفعل به؟».

قال الشّابّ الطويل: «نستدعي حارساً يعيده إلى المجاري».

جـاء رجل سـمين أحدب. نـحّى الجمع وتقدّم، وحـين بلغ مـوسرخـه انحنى. كان في يده مـصيدة فئران كبيرة، تدلّت من حجراتها الأربع، أربع جيف لفئران عجفاء ذيولها طويلة جافة وهي تتأرجح.

القصة الثامنة

- ١ -

برز إسلام وهو يستقلّ عربته من الباحة الخلفية الصغيرة لبيت الحاج صفر، وتوجّه نحو البركة. ترجّل وحلّ سيور العربة وتناول الدلو من تحت العربة، ثم انحنى يملأ الماء، فسمع صوت مشدي بابا يجلجل: «يا حاج إسلام! ها ياحاج إسلام».

استدار إسلام فرأى مشدي بابا الذي أطلّ برأسه من الفتحة الواقعة فوق الباب وهو يناديه. وضع الدلو على العربة، ثم وضع كفّيه حول حافّتيْ فمه، وصاح وهو ينظر إلى مشدي بابا: «ها يا مشدي بابا!».

قال مشدي بابا وهو في مكانه ذاك: «لقد جاء شخصان، وهما الآن يبحثان عنك».

قال إسلام: «عنّي؟».

قال مشدي بابا: «نعم، شابّان من أهل سيّد آباد. ألم ترهما؟».

قال إسلام: «ماذا يريدان؟».

قال مشدي بابا: «لقد بعثهما إليك شاه تقي. وحين لم يعثرا عليك توجّها إلى الحقول. ألم ترهما؟».

ثم سحب رأسه من الفتحة وغاب داخل بيته. قال إسلام يحدّث نفسه: «مالذي يريده شاه تقي مني؟».

عاد إلى عربته، إذ ظهر ابن الحاج صفر مع الشابّيْن السيّد آباديّيْن وهم يخرجون من الزقاق الثاني.

قال ابن الحاج صفر: «ها هوالحاج إسلام».

تقدّم السيّد آباديّان، ووقف ابن الحاج صفر وراءهما.

قال ابن الحاج صفر: « ياحاج إسلام، لقد جاء هذان من سيّد آباد يبحثان عنك».

قال أحد الشابّين: «لقد أرسلنا شاه تقي».

سأل إسلام: «ماذا يريد منّي؟».

قال الشاب الثاني: «لقد قال شاه تقي، أن تحضر مزمارك وتأتي معنا إلى سيّد آباد».

قال إسلام: «من أجل ماذا؟».

قال الشاب الأول: «لزفاف ابنه ... قال أحضِرْ مزمارك وتعال».

قال إسلام: «وأشغالي. ماذا أفعل بها؟».

قال ابن الحاج صفر: «الأشغال دعْك منها».

قال الشاب الثاني: «عندما ينتهي العرس تعود إلى شغلك».

قال إسلام : «وكم يوماً يستغرق العرس؟».

قال الشاب الأول: «لن يستغرق أكثر من ثلاثة أيام. لقد أصرّ شاه تقي على أن نُحضرك».

فكّر إسلام وقال: «إذنْ، أمرّ بالمختار، ثم أعود».

مضى إسلام عبر الزقاق الثاني، بينما مشى الشابان فجلسا على صخرة غسل الموتى السوداء.

قال ابن الحاج صفر: «إنّ بيت المختار قريب. وسرعان ما يعود إسلام».

قال الشاب الأول: «سنجلس هنا إلى أن يعود».

قال الشاب الثاني يخاطب ابن الحاج صفر: «ماذا عنك؟ ألا تريد أن تأتي؟».

قال الشاب الأول: «حقاً .. تعالْ! سوف تقضي وقتاً ممتعاً».

قال ابن الحاج صفر: «ألا يزعل شاه تقي؟».

قال الشاب الأول: «أولاً إن شاه تقي لا يزعل ثم إنّ الضّيوف كثيرون. كما أن شاه تقي لا يفرّق بين أحد وآخر».

قال الشّاب الثاني: «هل ستأتي؟».

قال ابن الحاج صفر: «سآتي .. فلأذهبْ إلى البيت أخبرهم وأعود».

ثم مشى إلى بيته. وحين عاد إسلام كان عديدون قد جاؤوا وتحلقوا حول العربة.

قال إسلام: «بوسعنا أن نذهب».

قال الشاب الأول: «انتظر قليلاً حتى يأتي الحاج جعفر».

قال إسلام: «ماذا يريد أن يفعل؟».

قال الشاب الثاني: «سنأخذه معنا هو الآخر إلى العرس».

قال إسلام: «سأحضر مزماري وأعود».

ثم شقّ طريقه بين الجماعة متوجهاً نحو بيته. فتح النافذة ودخل. كانت العنزة السوداء جاثمة أمام باب غرفة المخزن الخلفية تنظر خارجاً. وحين أبصرت إسلاماً نهضت وتقدّمت نحوه.

تناول اسلام مزماره من على المسمار وخرج من النافذة . فخرجت العنزة كذلك في أثره. مشى الإثنان حتى بلغا العربة.

قال الشاب الأول: «أي مزمار ضخم يملكه هذا الحاج إسلام!».

قال إسماعيل: «إنّه مثل بندقية».

ضحك إسلام ولم يعلّق. علّق مزماره على جنبه، وتناول السّطل من

على العربة وعلّقه بالخطاف أسفل العربة، ثم قال لإسماعيل: «خذ العنزة إلى بيتكم واحتفظ بها إلى أن أعود».

تقدّم إسماعيل وأمسك بقرن العنزة. جلس إسلام على مقعد الحوذيّ، ثم التفت إلى الشابين وابن الحاج صفر الذي كان قد جاء وجلس إلى جانبهما. قال إسلام يخاطبهم: «حسناً، هيّا اركبوا ولنتحرك».

قال الشاب الأول: «ألا تمهلنا لكي نعمّر الغليون؟».

ضحك الشاب الثاني وقال: «إن الحاج إسلام مستعجل أكثر مني ومنك».

استخرج كيس تبغه وناوله إلى إبن الحاج صفر الذي كان قد أخرج غليونه ليعمّره. ترجّل إسلام عن العربة ومضى فجلس عند حافة البركة وقد أدار ظهره للناس، وقال: «عندما تفرغون ممّا أنتم فيه، أخبروني».

وراح يتأمل صورته المنعكسة على سطح الماء، وقد برزت يد المزمار من فوق كتفه مثل البندقية.

غمز ابن الحاج صفر بعينه، فضحك الشابان أولاً، ثم تبعهم في ذلك جماعة الناس المتحلقون حول العربة.

– ٢ –

كان إسلام جالساً على مقعد الحوذي ينتهر الحصان والحصان يقترب من سيد آباد. الشابان جالسان إلى جوار إسلام، وابن الحاج صفر جاثم في منتصف العربة وقد احتضن ركبتيه وضمهما إلى صدره. لاحت سيد آباد من بعيد، فرج إسلام العقدة بين حاجبيه

ونظر إلى الشابين. انفرجت أسارير السيد آباديينْ اللذين كانا يظنان إسلام زعلان، استدار ابن الحاج صفر ونظر إلى الرجال الثلاثة. غمز له الشاب الأول بعينه.

قال إسلام: «حقاً، أيّ ولد من أولاده زوّجه شاه تقي؟».

قال الشاب الثاني: «إن شاه تقي ليس عنده أكثر من ولد».

قال إسلام: «أعرف. ما إسمه؟».

قال الشاب الثاني: «يدعونه الحاج شفيع».

هزّ ابن الحاج صفر رأسه وقال: «الحاج شفيع، الحاج شفيع».

ضحك الشابان. قال إسلام: «ابنة من التي أخذها؟».

قال الشاب الثاني: «ماذا تريد أن تفعل؟».

قال الشاب الأول: «يريد أن يعرفها».

قال ابن الحاج صفر: «هل تريد أن تعرفها ياحاج إسلام؟».

هزّ إسلام كتفيه وقال: «ماذا يدريني».

قال الشاب الأول: «لا تزعل يا حاج إسلام. لقد أخذ ابنة عمّو زينال».

قال إسلام: «أي عمّو زينال؟».

قال الشاب الأول: «ذاك الذي وقع في البئر السنة الماضية ومات، البنت عند الحاجة رقيّة، تلك المرأة السمينة. إنك تعرفها، أليس كذلك؟».

هزّ ابن الحاج صفر رأسه وقال: «الحاجة رقيّة؟».

قال الشاب الثاني: «الحاجه رقية نفسها، كثيراً ما يطلبها الخاطبون، ولكنها لا تريد أن تتزوج».

قال إسلام: «ألم تتزوّج؟».

قال الشاب الثاني: «بلى. كانت قد تزوجت ومات زوجها، فلم تتزوج من بعده. وهي ليس لها أولاد؟».

قال ابن الحاج صفر: «فليأخذها شاه تقي لنفسه».

قال الشاب الأول: «إن شاه تقي لديه زوجته وأطفاله. كما أن الحاجة رقية عازفة عن الزواج».

قال ابن الحاج صفر: «لا شك في أنّها تطمح إلى الزواج من رجل ثري».

قال الشاب الأول: «تريد ثرياً من أجل ماذا؟ لقد ذهبت مؤخراً إلى السيدة الشحاذة وأقسمت عندها أن لا تتزوج».

قال ابن الحاج صفر: «لماذا فعلت ذلك؟».

قال الثاني: «لكي يدعها الرجال وشأنها. إنها تملك كل ما تحتاج إليه: البيت، والمزرعة، والبقرة، والحصان،والعربة. فلماذا تحتاج إلى زوج؟».

قال ابن الحاج صفر: «إن الحصان والبقرة لا يقومان مقام الزوج».

ضحك الشابان، كما انفجر ابن الحاج صفر بالضحك كذلك. بلغ إسلام مشارف سيد آباد، فأوقف العربة، وعقد ما بين حاجبيْه، ونظر إليهم وقال: «علام تضحكون؟ ها؟».

نظروا إلى إسلام وحين رأى السيد آباديّان أن إسلام معتكر المزاج كفّا عن الضحك.

قال ابن الحاج صفر: «إنّنا لم نضحك عليك ياحاج إسلام. لقد ضحكنا على الحاجة رقيّة».

أخذ الشابان يضحكان من جديد.

- ٣ -

كان بيت شاه تقي في أوّل القرية، وبيوت سيّد آباد الأخرى وراءه متراكب بعضها-فوق بعض. شاه تقي جالس فوق سطح منزله وبيده عصا يخيف بها الغربان التي تغير على الأرز. و الحاج شفيع أمام بيته يكسّر الحطب، وهو يرتدي قميصاً أخضر وصدارة صفراء. وأمّه وعدة عجائز أخريات قد أخرجن صندوقاً خشبياً كبيراً من المخزن، وأخذن يبحثن عن شيء ما بين الخردوات والأشياء القديمة التي فيه. وأهل سيد آباد مشغولون فوق سطوح المنازل، يروحون ويجيئون. وبيت السّيدة الشحاذة خال وعلى سطحه علم أسود صغير يرفّ بهدوء. بيت العروسة بعده بعدة منازل. ومن سطح بيت شاه تقي يقطع المرء ثلاث زرائب فيصل إلى بيت عمّو زينال، ثم إلى بيت الحاجة رقية الذي أحيط سطحه بعدد من الأكياس المهترئة. الحاجة رقية جالسة فوق سطح بيتها على حجر الرحى، تنقيّ الأرز، وقد دلّت رجليها من فتحة السقف إلى حجرة المخزن.

العروسة جالسة في حجرة المخزن وقد فرطت حبات سبحة وأخذت تخيطها على حاشية ثوبها، وهي تنظر بين الحين والآخر إلى ظلّ رجليْ عمتها الساقط على الجدار، معتما حجرة المخزن. وحين خاطت آخر حبّة سحبت العمّة رجليها من فتحة السقف وهي تشتم غراباً كان يتسكع فوق السطح بإلحاح. طار الغراب وحطّ على حافة سطح بيت شاه تقي ومطّ عنقه وأخذ يحّدق في الأرزّ. قذف شاه تقي بعصا نحو الغراب ، فسقطت في الصندوق الذي كانت أم الحاج شفيع

الغراب يبحثُ فيه.

هتفت أم الحاج شفيع: «ما الخبر؟».

استدار الحاج شفيع ونظر. نهض شاه تقي فرأى عربة إسلام فخفّ مسرعاً وانحنى وهتف: «جاؤوا. لقد أحضروا الحاج إسلام».

استدار ونظر إلى بيت العروسة، فرأى الحاجة رقية التي اقتربت من حافة السطح وظلّلت عينيها بيدها وهتفت: «جاؤوا، جاؤوا».

استدارت الحاجة رقيّة ومشت مسرعة، فأدخلت رأسها من فتحة سقف المخزن وقالت: «جاؤوا .. جاؤوا».

وضع الحاج شفيع الساطور وراء الباب، ودخل المطبخ. اقتربت أمّه والعجائز من الباب ونظرن إلى الخارج. من بعيد سُمع صوت ضحكات السيد آباديّين وابن الحاج صفر.

– ٤ –

بعد الغداء، نادى شاه تقي على إسلام فخرج شخصان.

قال شاه تقي لإسلام: «من هذا الذي جاء معك؟».

قال إسلام: «ابن الحاج صفر».

قال شاه تقي: «أأنت أحضرته»؟.

قال إسلام: «بل جاء بنفسه. أنا لم أحضره».

قال شاه تقي: «عليك يعتمد نجاح معظم الأمور».

قال إسلام: «وهو كذلك».

فكر شاه تقي وقال: «تعرف يا حاج إسلام، الليلة عرس الحاج شفيع، وأريد منك أن تتولى كل شيء في العرس. فأنا ضعيف البصر، وأخشى أن تضطرب الأمور».

قال إسلام: «كن مطمئناً».

فتح شاه تقي الباب القصير ودلف منه، ثم أشار بيده إلى إسلام. صعد كلاهما الدّرج حتى بلغا باباً صغيراً متخذاً في السقف. فتحا الباب. جرّ شاه تقي جسمه صاعداً عبر الباب، ثم تلاه إسلام. وصلا إلى حجرة كبيرة ذات نوافذ منخفضة جداً.

نظر إسلام. كان أمام النافذة حائط مرتفع، دُقّ فيه مسمار ضخم، مربوط به حبل قصير. صعد شاه تقي على سطح الحجرة وفتح باباً قصيراً آخر. دلف منه وتبعه إسلام. كانت حجرة مربْعة بدون نوافذ، ومن فتحة منتصف سقفها ينسلّ ضوء الغروب. إلى جانب الجدار كان ثمة برميل ضخم رُكن على خاصرته سلّم قصير. كما كان هنالك علبتان من الصفيح. أدخل شاه تقي يده في البرميل وقال: «أتراه؟»

ضحك إسلام.

قال شاه تقي: «اصعد وآملأ إحدى الصفيحتيْن».

صعد إسلام وفتح غطاء برميل الخمر، وناوله شاه تقي إحدى الصفيحتيْن.

حين هبطا الدرّج وضعا الصفيحة وراء الباب. مسح إسلام فمه، ثم خرجا، واقفل شاه تقي الباب. هبّت على إسلام نسائم السُكر، فأحسّ في رأسه دواراً لذيذاً.

تناول مزماره ودخل مع شاه تقي الحجرة الكبيرة. كان الضيوف قد وصلوا، وغصّ بهم المكان فجلس بعضهم فوق المصاطب.

وكان صوت النساء قادماً من الحجرة المجاورة. سحب شاه تقي السّتارة، وفتحت النساء الباب. تقدّم إسلام إلى صدر الحجرة

مترنّحاً، وجلس على كرسيّ ضخم كان موضوعا هنالك من أجله، واحتضن بطن المزمار، وضع أصابعه على الأوتار ثم قال: «يالبركة وسلامة العروسة والعريس».

علا صوت ضحك ابن الحاج صفر والشابين السيد آباديّيْن من الركن المقابل للحجرة.

أنصت إسلام للضحك مبهوتاً بضع لحظات، ثم هبطت أصابعه الخمس فجأة على الأوتار. وحين علا صوت المزمار ماج الحضور، وصفّقوا بأيديهم .. وبدأ العرس.

— ٥ —

غنّى، غير إسلام، ثلاثة أشخاص آخرين، ولكن أحداً لم يكن غناؤه في حسن غناء إسلام. ولكن في كل مرّة كان يعلو فيها صوت إسلام، كان ضحك ابن الحاج صفر والشابّين السيّد آباديّيْن يملأ الحجرة. حلّ الليل فازداد صخب العرس. وصعد إسلام والحاج حيدر خال الحاج شفيع الدّرج عدّة مرات ليعودا كل مرّة بالصفيحة مملوءة. كان شاه تقي جالساً على المصطبة مدلّياً رجليه ويضحك مقرقراً. وكانت النساء قد أزحن الستّار وأخذن يرحن ويجئن من بين الرجال.

وبعد مدّة شقّت أم الحاج شفيع طريقها نحو إسلام، فوقفت بجانبه وهمست في أذنه قائلة: «لقد حان الوقت».

مضى إسلام خلف أم الحاج شفيع بين النّساء، حيث أعلنت هذه بصوت عال: «سوف نذهب ونحضر العروس».

ضجّ الحضور، وهتف إسلام قائلا: «بالبركة والسلامة».

وشرع يعزف مزماره. تقدمت ثلاث عجائز ووقفن إلى جانب أمّ

الحاج شفيع، فقالت الأخيرة: «لا تتأخرن، واذهبن إلى فناء الدار».

قال إسلام: «لماذا تذهبين بهنّ إلى فناء الدار؟».

قالت أمّ الحاج شفيع: «يجب أن نذهب إلى بيت العروس».

قال إسلام: «أنا لا شأن لي بالآخرين. سأذهب إلى الفناء وحدي».

استدار ليذهب، فرأى ابن الحاج صفر والشابّين رفيقيْه يرقبونه من غرفة الرّجال. لم يعد إسلام إلى غرفة الرجال بعد ذلك، بل هبط على الدرج الخشبي الواقع أمام النافذة. لم يكن في الفناء أحد. وكانت هنالك كتلة خشبية ضخمة ملقاة أمام المطبخ. وكان داخل المطبخ معتماً، وثلاث عجائز جالسات أمام المواقد. جلس إسلام على قطعة الخشب. كانت السماء تغصّ بالنجوم. ومن الحقول يتصاعد نور أخضر مبهم.

هتفت أم الحاج شفيع من داخل الغرفة قائلة: «يا حاج إسلام .. يا حاج إسلام».

نهض إسلام عن الخشبة ومرّ بأصابعه على الأوتار. وحين ارتفع صوت المزمار انهمر الرجال عن الدرج الأيمن والنساء عن الدرج الأيسر نحو فناء الدار. خرجت العجائز من المطبخ، وعاد إسلام إلى الخشبة. خلت الحجرات. هتف شاه تقي الذي لم يبق سواه جالساً على المصطبة: «يا حاج إسلام .. يا حاج إسلام».

قال إسلام بصوت عال: «لبيك يا شاه تقي».

قال شاه تقي: «أين أنت يا أخانا، هل انقطع نفسك؟».

ضحك ابن الحاج صفر والشابّان. قفز إسلام هابطا عن الخشبة، وهتف وعزف المزمار. وتوجه الجمع نحو الزقاق مهلّلين.

- ٦ -

ازداد الصــخب والزحــام حين أخـرجت العروس من بيت الحـاجـة رقيّة. سـارت النسـاء في الأمام والرجـال في أعقابـهن. كانت العروس تسيـر بين بضع عجـائز وأمـام النسـاء. سـار بضـعة أطفال يحـملون الفـوانيس ويضـيـؤون الدّرب. كـان يظهـر بين النسـاء رجـلان، الحـاج شـفيع بثـيـاب العريس، وإسـلام المتـرنح وهو يعـزف المزمـار ويغنّي، وكانت الحاجة رقيّة تسير بين الحـاج شـفيع وإسـلام، والرجـال الذين كان عددهم قليلاً - سـاروا وراء النسـاء.

كـان آخـر من خـرج من بيت الحـاجـة رقيـة جـارتها العـجـوز التي أغلقت البـاب وقفلتـه. وحين هدأ البيت بدا ضـوء مـصبـاح الزريبة أشـدّ إنارة. خـرجت الفـئـران من المطبـخ وأخـذت تتلصّص، وحين ابتـعـدت ضـوضـاء الجمـع، اندفعت الفئّران خارجة، وهجمت نحو الدّرج.

عند منعطف الزقـاق جـاءت عجـوز وانتـحـت بالحـاج شـفيع جـانبـاً وقالت له: «تعال - أنت - وأدخل البيت. من قال لك أن تخرج؟».

قال الحـاج شفيـع: «لقد خرجوا كلهم فخرجت».

قالت العجوز: «أنت يجب أن تستقبل العروس بالمصباح».

شـقت العـجـوز الحـاج شـفيـع طريقـهمـا من وسط الجـمـع، وهـبطا راكضين.

حين ذهب العريس قطع إسلام غناءه. فقالت الحاجة رقية: «أتعبت يا حاج إسلام؟»..

أسبل إسلام يديه وقال: «لقد تعبت. لقد تعبت على نحو سيّء».

قالت الحاجة رقية: «أتغني وتعزف وحدك؟».

ضحك إسلام وقال: «أن أحداً لا يريد أن يساعدني».

قالت الحاج رقية: «ولا يدعونك مع ذلك تستريح قليلاً».

قال إسلام: «ماذا ينبغي أن أفعل!».

قالت الحاجة رقية: «كل الحقّ على هذا الشاه تقي، الذي لم يستدعك من قبل بيوم أو يومين».

قال إسلام: «لا بأس».

قالت الحاجة رقية: «بماذا جئت إلى هنا؟».

قال إسلام: «جئنا بالعربة».

قالت الحاجة رقية: «عربة من؟».

قال إسلام: «لقد جاء إليّ شابّان ، فركبنا العربة وجئنا».

قال الحاج رقية: «أسألك عن العربة. عربة من هي؟».

قال إسلام: «إنّ قرية بَيَل ليس فيها سوى عربة واحدة وهي لي».

قالت الحاجة رقية: «وحصانها كذلك لك؟».

قال إسلام: «وماذا إذن؟».

قالت الحاجة رقية: «كم حصاناً عندك؟».

قال إسلام: «حصان واحد. وعربة واحدة. وعنزة واحدة».

قالت الحاجة رقيّة: «وماذا عندك أيضا؟».

قال إسلام: «عندي كذلك بيت واحد. وراء البركة. وعندي هذا».

وأشاره إلى المزمار. قالت الحاجة رقيّة: «أنا أيضاً، عندي بيت، وعربة وثلاث بقرات وحصانان».

ضحك إسلام وقال: «جميل».

قالت الحاجة رقيّة: «ولكنّ أحد حصاني مريض، وأخشى أن يموت».

قال إسلام: «ما له»؟

ازدادت همهمة الجمع. قالت الحاجة رقية: «لا أدري ماذا حلّ به».

قال إسلام: «لا شك في أنه سوف يتحسّن».

قالت الحاجة رقية: «لم يستطع أحد في سيّد آباد أن يعرف مرضه».

قال إسلام: «دعك من أهل سيّد آباد».

قالت الحاجة رقية: «لقد جاء عدة أشخاص، وعاينوه. جاء في البداية الحاج رضا، ولم يعرف شيئاً، كما جاء عدّة أشخاص، وأشعلوا في الزريبة تبناً، وأشعلوا خرقاً قديمة ولم يُجْدِ ذلك شيئا».

قال إسلام: «إذا مرض الحصان يجب أن يربط إلى العربة ويؤخذ إلى الحقول».

قالت الحاجة رقيّة: «حصاني دائماً فمه مفتوح، والدّم يسيل من أشفاره. كما أنه لا يستطيع أن يتناول شيئاً غير الماء».

قال إسلام: «دم؟ ولماذا ينزل الدّم؟».

قالت الحاجة رقية: «ويا له من دم. إنه لا ينقطع دقيقة واحدة. أتستطيع أن تفعل له شيئا؟».

قال إسلام: «ولماذا لا أستطيع؟ طبعاً أستطيع».

قالت الحاجة رقية متوسلة: «حاج إسلام، متى تريد أن تفعل ذلك؟».

قال إسلام: «عندما تشائين».

قالت الحاجة رقيّة: «نحن الآن في شغل. دع الأمر حتى نفرغ قليلاً».

ضحكت، وضربت إسلام على ذراعه وقالت: «لقد وصلنا إلى بيت العريس».

احتضن اسلام وعاء المزمار، وشرع يغني وهو يضرب الأوتار بقوة. علتْ همهمة النساء اللواتي هبطن المنحدر يتقدّمن الجمع. رأى إسلام الحاج شفيعاً يحمل مشعلاً ويصعد المنحدر لاهثاً، وهو يتقدم نحو الجمع.

– ٧ –

حين انصرف الضيوف، صعد إسلام والحاج حيدر الذي كان يحمل بيده فانوساً، صعدا الدرج حتى بلغا باباً صغيراً متخذاً في منتصف السقف. فتحاه ودلفا منه داخلين. النوافذ ضيقة والظلام حالك. فتح الحاج حيدر الباب المنخفض الكائن عند أسفل الجدار. وضع إسلام مزماره عند أسفل الحائط، وناول الصفيحة للحاج حيدر الذي كان يملص جسده من البويب خارجاً، ثم دخل هو نفسه، وضع الحاج حيدر الفانوس على الرف بجانب البرميل، ثم صعد وفتح غطاء البرميل، وأخذ يملأ الصفيحة بوعاء كان مربوطاً إلى البرميل.

قال إسلام: «لا ينبغي ملؤها يا حاج حيدر، فلن يشرب أحد بعد ذلك».

قال الحاج حيدر: «كيف لا يشرب أحد؟! أنا سوف أشرب، وأنت

سوف تشرب، وشاه تقي سوف يشرب».

قال إسلام: «لقد أُخذ شاه تقي الى بيت الجيران وهو الآن يغطّ في النوم».

قال الحاج حيدر: «فماذا عنك أنت؟ إنك لم تنم».

قال إسلام: «أنا وأنت أيضاً سوف نشرب هنا ثم ننزل».

قال الحاج حيدر: «نشرب هنا، ونأخذ منه معنا حين ننزل». وملأ الوعاء وناوله لإسلام من مكانه فوق السلّم.

جلس إسلام على الأرض. قال المشهدي حيدر: «أعطني الوعاء».

قال إسلام: «إصبر فأنا أشرب رويداً رويداً. فهنا مكان مستور مريح».

قال الحاج حيدر: «لقد أضعت صوابك من كثرة ما صرخت».

قال إسلام: «إن شاه تقي نفسه قال ذلك. سأشرب الآن فتنصلح الأمور».

وعبّ ما في الوعاء وأعاده إلى الحاج حيدر قائلا: «اشرب، اشربْ، ولنهبط إلى أسفل».

قال الحاج حيدر: «سوف أظل هنا. فأنا لست ممّن يهبطون إلى أسفل».

قال إسلام: «إني ذاهب».

قال الحاج حيدر: «نعم، فأنت تشتهي دائماً أن تتسكع بين النّساء. كلا؟ إذن اصعد واشرب كأسا. أتدري أن هذا العلوّ يروق للنفس؟».

قال إسلام : «سوف تقع في البرميل وتختنق فيه».

ضحك الحاج حيدر وقال: «ذلك أفضل».

لم يقل إسلام شيئاً وهبط الدرج كان البيت قد خلا، ولم يبق فيه سوى ساكنيه الذين تفرقوا هنا وهنالك. وكانت أم الحاج شفيع نائمة على الصندوق وقد ضمّت ركبتيها إلى بطنها.

وضع إسلام مزماره تحت إبطه وهبط الدرج الخشبي القائم أمام النافذة ودخل فناء الدار، حيث جلس على كتلة الحطب. وحين ارتفع صوت مزماره تراقصت الحجرات والأضواء أمام ناظريه.

– ٨ –

عندما تصاعد صوت مزمار إسلام هبطت الحاجة رقية الدرج الخشبي أمام النافذة، وقالت لإسلام: «يا حاج إسلام».

قال إسلام: «ماذا هنالك؟».

قالت الحاجة رقية: «كنت ابحث عنك».

قال إسلام: «تبحثين عنّي؟».

قالت الحاجة رقية: «نعم، بحثت عنك في كل مكان».

قال إسلام: «ها أنا هنا».

قالت الحاجة رقيّة: «نعم، أقول نذهب الآن فترى حصاني».

قال إسلام: «الوقت الآن ليل. والجوّ مظلم. ولا يمكن رؤية شيء».

قالت الحاجة رقية: «نأخذ مصباحاً. فليس الآن من أحد، وغدا يزدحم الناس من جديد».

نهض إسلام دون أن يقول شيئاً. وضع مزماره إلى جوار كتلة الحطب. ذهبت الحاجة رقية وأخرجت الفانوس من المطبخ. صعدا

درجات السلّم حتى بلغا سطح البيت.

قال إسلام: «لماذا جئنا إلى هنا؟ ألسنا ذاهبين إلى بيتك؟».

قالت الحاجة رقيّة: «كلاّ، تعال من هنا. ما عليك أنت».

مشيا على سطوح الزرائب حتى بلغا سطح بيت العم زينال، نوّصت الحاجة رقية الفانوس، ثم قفزت داخلة في حجرة مربعة. وقفز إسلام كذلك. وضعت الحاجة رقية الفانوس بجانب الجدار، وفتحت الباب الصغير الواقع عند أسفل الجدار، فخرج ضوء قرمزي. أدخل إسلام رأسه. كانت زريبة كبيرة، فيها فانوس معلق على وتد، وثلاث بقرات رؤوسها في المنود، وجوال فارغ ملقى على وتد يبدو كأنه جثّة. وكان حصان أعجف واقفاً في وسط الزريبة. أدخلت الحاجة رقية رأسها هي أيضا من الباب نفسه. نادت على الحصان فجاء ووقف أمامهما. أمسك إسلام بالحصان من أذنيْه وجذب رأسه خارجاً. كانت عينا الحصان مغمضتين، وخيط من الدّم الغليظ يتدلّى من فمه نصف المفتوح.

قالت الحاجة رقية: «أتراه؟».

مسح إسلام دموع الحصان بيده وقال: «أحضري قبضة من تراب».

اعتدلت الحاجة رقية، وذهبت، وأحضرت قبضة تراب من على السطح، وضعتها أمام إسلام.

أمسك إسلام بطرف شادور* الحاجة رقية، ولفّه حول يده اليسرى وفتح فم الحصان، ثم حشا قبضته بين فكّي الحيوان.

---

* «شادور»: عباءة

رفعت الحاجة رقية الفانوس عالياً، فأضاء حلق الحصان المعتم. تناول إسلام التراب بيده اليمنى ونثره في فم الحصان. أغمض الحصان عينيْه، وأبقى على فمه مفتوحاً. نثر إسلام قبضة أخرى من التراب في تجويف حلق الحصان المعتم، ثم سحب يده خارجاً. تراجع الحصان وسعل. أخرجت البقرات رؤوسها من المذود ونظرت إلى الحصان.

قالت الحاجة رقية: «كيف أصبح؟».

قال إسلام: «لقد تحسّن، ولن يبصق دماً بعد الآن».

أغلقت الحاجة رقية الباب الصغير. حلّ إسلام شادور الحاجة رقية عن يده اليسرى وألقى به على أرض الحجرة. وحين نهض تراجعت ظلال ثلاثة أشخاص عن الجدار، وعلتْ قهقهات.

خافت الحاجة رقية، وسألت مذعورة: «من هؤلاء؟»

قال إسلام: «ابن الحاج صفر والشّابان».

-٩-

انحنى إسلام وأدخل رأسه من ثقب السطح وقال بصوت خفيض: «يا حاج حيدر!».

لم يجب أحد. فقال مرة أخرى: «يا حاج حيدر».

أضاء نور الفانوس جسم البرميل ودرجات السلّم.

قال إسلام: «يا حاج حيدر، أأنت لا تجيب أم إنك هبطت نازلاً».

جاء صوت الحاج حيدر يقول: «ماذا تريد؟».

ثم زحف على الدرج، فأضاء الفانوس وجهه.

قال إسلام: «أتراني؟».

قال الحاج حيدر: «ألا تريد أن تدخل؟».

قال إسلام: «أريد أن أقول لك شيئا».

قال الحاج حيدر: «ماذا تريد أن تقول لي؟».

قال إسلام: «إنني ذاهب غداً. سوف أتحرك غداً قبل شروق الشمس».

قال الحاج حيدر: «ماذا حدث؟ ألم يعد أحد يطلب منك أن تغنّي؟»

قال إسلام: «لقد حان وقت الذّهاب».

قال الحاج حيدر: «حسناً، ماذا تريد أن تفعل الآن؟».

قال إسلام: «إملأ الكأس وارفعه إليّ».

ملأ الحاج حيدر الوعاء وصعد به درجات السلم متمهّلاً.

وضع إحدى قدميه على فوهة البرميل، وتعلق بيده اليسرى بحافة الثقب، ورفع الوعاء بيده عبر الثقب الضيّق.

- ١٠ -

كان الوقت ظهراً حين وصل إسلام إلى جوار البركة. وكانت القرية خالية، وبضع كسفٍ من الغيم ألقت بظلالها على سطح ماء البركة.

ترّجل إسلام عن العربة. وضع مزماره عليها وجلس على حجر غسل الموتى الأسود. ذهبت أخت عباس التي كانت عند العين ونقلت الخبر إلى إسماعيل. فخرج هذا مع العنزة السوداء، وتقدم من إسلام. أخرج الحاج صفر رأسه من ثقب السطح ونظر إلى الخارج، فرأى إسلام جالساً على الحجر. قال إسماعيل بصوت عال: «مرحباً

يا حاج إسلام».

التفت إسلام. قطعت العنزة السوداء الشجيرة الصغيرة التي كانت نابتة من تحت الحجر الأسود وابتلعتها.

قال إسماعيل: « لقد عدتَ سريعاً ياحاج اسلام».

قال إسلام: «ما الاخبار في بَيَل؟».

قال إسماعيل: «ليس ثمة من أخبار».

قال إسلام: «كيف المختار؟».

قال إسماعيل: «كما رأيته أمس».

قال إسلام: «اجلس، واخرج غليونك».

جلس إسماعيل. وأخرج كيس تبغه وغليونه. قال إسلام: «من أهال هذه الحجارة خلف بيتي؟».

قال إسماعيل: «لا أدري».

قال إسلام: «ألم يقصدوا سوءاً؟».

قال إسماعيل: «كلاّ، لم يقصدوا سوءاً».

لم يقل إسلام شيئاً. نظر إلى بيوت وسطوح بَيَل . كان رأس الحاج صفر البارز من ثقب السطح، يبدو مثل قرعة مغبّرة.

قال إسماعيل: «ماذا تطالع؟».

لم يحر إسلام جواباً. مدّ يده وتناول الغليون من يد إسماعيل.

– ١١ –

عندما نهض إسلام من النوم، كانت أشعة الشمس قد نفذت من ثقب سقف المخزن الخلفي وانتشرت في الغرفة. والعنزة السوداء

وقفت أمام النافذة وأخذت تنظر الى الخارج. نهض إسلام وجلس. كان قد نام طوال الليل بلباسه وطاقيّته.

همهمة النساء عند البركة تبلغ سمعه. نهض وراح ينظر من ثقب المخزن الخلفي نحو الخلاء الواقع خلف البيت، ونحو حصانه المربوط إلى جذع شجرة يابسة. كان الحصان في الظلّ، مطرقاً ولعاب كثيف يسيل من فمه. قال إسلام يحدث نفسه: «عسى أن لا يكون قد أصابه مكروه. ألم يشرب الماء في سيد آباد؟».

تناول الوعاء المطلي بالمينا ودخل الحجرة. فتح النافذة وخرج.

كانت النساء قد أحطن بالبركة وانهمكن في غسل الأواني والثياب. وحين أبصرن إسلاماً بترن أحاديثهن ونهضن وتفرقن في الأزقة راكضات. نظر إسلام اليهن مبهوتاً ثم تقدم من البركة، فانحنى ونظر إلى صورته على صفحة الماء. ثم ملأ الوعاء ومضى إلى ما وراء البيت. أدار بابا حجرياً، ودخل الخلوة. استدار الحصان ونظر إليه. أدنى إسلام الوعاء من فم الحصان. ولكن هذا لم يشرب.

سكب إسلام الماء على الأرض وألقى الوعاء بجانب الجدار. ثم رفع رأس الحصان ونظر في عينيه. انبسط ظلّ رجل على أرض الخلوة، وجاء صوت مذكّر خفيض من على سطوح الجيران، قال: «ماذا تفعل؟».

قال صوت آخر: «واقف بجانب الحصان».

قال ثالث: «لا شك في أنّه يفكر في أن يأخذ العربة ويعود إلى سيد آباد».

ضحك الثاني وقال: «إذن، ما يقوله الحاج جعفر صحيح».

رفع إسلام رأسه. كانت بضعة أزواج من العيون تنظر إليه عبر مزراب سطح الجيران.

- ١٢ -

كان إسلام جالساً خلف النافذة في الظلام. حزمة من ضوء القمر تنسل إلى داخل المخزن عبر ثقب السقف. صوت نباح الكلب باباخ يأتي من خارج القرية. بضعة أشخاص يتجولون بجانب البركة. انحنى اسلام ونظر، فرأى مشدي بابا وإسماعيل وابن الحاج صفر يمشون على مهل وقد تدانت رؤوسهم بعضا من بعضها الآخر وأخذوا يتهامسون ويضحكون.

- ١٣ -

في صباح اليوم التالي جاء مشدي بابا إلى إسلام الذي كان قد توجّه نحو العربة يبغي تركيب عجلاتها.

قال مشدي بابا: «يا حاج إسلام، أريد أن أقول لك شيئاً».

قال إسلام : «ماذا تريد أن تقول لي؟».

قال مشدي بابا: «أتدري أن الشائعة قد ملأت البلد؟».

قال إسلام: «حول ماذا؟».

قال مشدي بابا: «حول كونك سوف تتزوج في سيد أباد».

قال إسلام: «ذلك ليس إثماً».

قال مشدي بابا: «يقولون إنكما قد شوهدتما، أنت والحاجة رقية، نائمين معاً فوق أحد السطوح».

قال إسلام: «من قال ذلك؟».

قال مشدي بابا: «ليلة أمس كان جمع من النّاس خلف بيت الحاج صفر. وجاء ابن الحاج صفر وصعد فوق كومة الحطب، وروى كيف أنه كان قد جاء ومعه الشابّان السّيد آباديّان فوجدوك نائماً مع الحاجة رقية فوق سطح الزريبة».

قال إسلام : « وماذا قال له الناس؟».

قال مشدي بابا: «لقد صدّقوه».

قال إسلام: «وأنت؟».

قال مشدي بابا: «أنا؟ أنا لم أصدّق».

قال إسلام: «وماذا قلت؟ وماذا فعلت لهم؟».

قال مشدي بابا: «قلت إن هذا التلفيق لا ينسجم وشخص الحاج إسلام».

قال إسلام: «وماذا بعد؟».

قال مشدي بابا: «وقلت لهم إن كل شخص يغتاب الحاج إسلام سوف ألكمه على فمه».

ضحك إسلام، ولم يقل شيئاً. بل مضى من فوره نحو العربة.

– ١٤ –

عند الغروب عاد الحاج إسلام من الحقول. كانت العربة مملوءة بالفصّة التي جلس إسلام فوقها. عندما بلغ حديقة الإقطاعي ترجّل عن العربة وأفرغها من الفصّة، بينما كان الظلام يخيّم على المكان رويداً رويداً.

نظر إسلام حواليه. كان القمر الشاحب قد بزغ من بين الأغصان. همّ إسلام بالركوب، وهنا برز رجل غريب يركب عربة صغيرة، تقدّم من إسلام على عجل، فنظر إليه وقال: «ألن تأتي لنذهب إلى سيّد آباد؟».

خاف إسلام وقال: «كلاّ، لست ذاهباً».

قال الغريب: «إذن أين تذهب؟».

قال إسلام: «سأذهب إلى بيتي».

قال الغريب: «ولكني أقول لك يا حاج إسلام أنه يحسن بك أن تغادر بَيَل».

قال إسلام: «من أين أنت قادم؟».

قال الغريب: «لقد كنت عابراً من هنا. وليس لي شغل في بَيَل».

ورفع سوطه ومضى. وقف إسلام ينظر إليه، وهو يختفي في الظلام.

ترك إسلام عربته خلف حديقة الإقطاعي. ودخل القرية راجلاً، حيث توجّه نحو الباحة الخلفية لبيت الحاج صفر.

كان الرجال جالسين من حول بعضهم البعض، وقد اعتلى مشدي بابا كومة الحطب، وراح يتكلم ويتكلم، بينما الآخرون يصغون. كان ثمة فانوس صغير مضاء من فوق رأس مشدي بابا. تنحّى إسلام ووقف بجانب الجدار. قال مشدي بابا: «ثم صعد مع الحاج حيدر، وحين نزلا، لم يكن إسلام يقوى على الوقوف».

اعترض ابن الحاج صفر، الذي نهض من وراء الحطب، قائلا: «لقد

بقي الحاج حيدر في الأعلى، ونزل إسلام وحده».

قال مشدي بابا: «نعم، لقد نزل وحده، وطاف في كل مكان لكي يعثر على الحاجة رقيّة، دون جدوى. فذهب وجلس على جذع الحطب وأخذ يعزف مزماره إذ جاءت الحاجة رقية إليه فنهضا وصعدا على السطوح. وكان الشابان السّيد آباديان في أثرهما. وفي النهاية وجداهما نائمين على السطوح معاً. وفكّر الشابان بسمعة قرية بَيَل فعادا دون أن يثيرا لغطاً. وبعد ساعتين ظهر إسلام متعلقاً بالسلّم، ثم وقع عنه على الأرض».

استدار إسلام ودخل في الزقاق، وظلّ صوت مشدي بابا يتناهى إليه من بعيد وهو يقول: «ظلّ إسلام ملقىً على الأرض إلى الصبح، وحين اقتربوا منه وجدوه منتفخاً والسلّم على صدره فظنّوا أنّه ..».

- ١٥ -

قبل أن تشرق الشمس، تناول إسلام مزماره، وخرج برفقة عنزته السوداء. وضع المزمار بجانب حجر غسل الموتى الأسود واتجه نحو بيت المختار. قفز إلى الفناء من فوق الجدار. تناول مسحاة ومجرفة وخرج ثم ذهب وحفر الأرض الواقعة أمام بيته. وبعد أن تهيأ له التراب، أحضر ماء وصنع طيناً. ثم راح وفتح النافذة ونظر إلى داخل الحجرة. خلع نعليه وألقى بهما داخل الحجرة فوق عجلات العربة وأجزائها الأخرى التي كان قد فكّكها في الليلة البارحة وراكمها فوق بعضها البعض. كانت الحجرة مظلمة فقد كان سدّ باب المخزن الخلفي وثقوب السطح بالطين منذ مساء أمس. تأمل غرفته

جيدا، ثم أغلق النافذة وشرع يجبل الطين.

حين بزغت الشمس خرج أهل بيَل وتجمعوا حول البركة وراحوا يتفرجون على إسلام الذي ارتدى ملابس العزاء وانهمك في العمل وهو يتصبّب عرقاً. حين رآه مشدي بابا على هذا الحال التفت إلى اسماعيل وقال: «أركض إلى المختار وقل له يأت فورا».

قال إسماعيل: «المختار مريض».

قال مشدي بابا: «ليكنْ، قل له أن يأتي، فإن إسلام ينوي الرحيل عن بيَل».

قال إسماعيل: «أحقاً يريد أن يرحل».

ثم استدار وجرى نحو بيت المختار. هتف مشدي بابا: «مرحبا يا حاج إسلام!».

قال بابا علي الذي أطلّ برأسه من بويب حجرته: «ماذا تفعل يا حاج إسلام؟».

قالت ننه فاطمة للنساء: «الحاج إسلام يسدّ منافذ بيته بالطين».

قال مشدي بابا: «يا حاج إسلام، لماذا تطيّن بيتك؟».

قال إسلام: «أحبّ أن أطيّن بيتي».

قال مشدي بابا: «هل حدث شيء؟».

قال إسلام: «أبدا، لم يحدث شيء».

قال مشدي بابا: «فلماذا تفعل ذلك؟ هل ستذهب إلى مكان؟».

قال إسلام: «البيت بيتي. أفعل ما أحبّ أن أفعل، وأذهب إلى حيث أحبّ أن أذهب».

قال مشدي بابا: «فهل حدث شيء؟ هل قال أحد شيئا؟».

لم يجب إسـلام. أتمّ مـا يفـعله وهبط نازلاً. لقـد سـدّ بالطّين كل الأبواب وكل الثقـوب، فـغذا البـيت مـثل قـبـة نابتـة من الأرض. ذهب وأحضر الحصان من الخلوة الواقعة خلف البيت، وأطلقه عند البركة. مـضت العنزة السـوداء التي كـانت واقـفـة تنظر إلى الجـمع نـحـو الحصان. توجّه إسلام كذلك نحو حجر غسل الموتى الأسود، فتناول مزماره وعلّقه بكتفه إذ ظهر المختار يتوكأ على عكازين، وجهه منتفخ ويجرّ قدميّه اللّتين احتقن فيهما الماء، على الأرض بصعوبة.

قـال إسـلام: «أيهـا المخـتـار، كنت سـآتـي لرؤيتك. لـم خـرجت من البيت؟».

قال المختار خائفا: «أتريد أن تذهب إلى مكان يا حاج إسلام؟».

قـال إسلام: «ينبغي عليّ بعد الآن أن أرحل. إني لا أسـتطيع البقـاء في بَيَل».

قـال المخـتـار: «لا ينبغي لك أن ترحل. إنّه لم يبـق لي من العمـر إلا القليل، فبين عشية وضحاها أودّع الدنيا. أفلا تريد أن تقوم بتكفيني ودفني؟».

قـال إسـلام: «إننـي لست راغبـا في الرحـيل. ولكن الوضـع أصبح يحتّم علي ذلك».

قال المختار: «من قاد الأمور إلى هذا الوضع؟».

ظلّ الناس الذين تحلّقوا حول المختار وإسلام صامتين.

قال المختار: «يا حاج إسـلام، لو رحلت فلن يبقى في بَيَل أحـد يقدر

على فعل شيء، فلماذا تريد أن ترحل؟».

قال إسلام: «إسأل هؤلاء، فبعد أن أغادر، اسأل مشدي بابا عن كل شيء».

قال البَيْلَيِّون بصوت واحد: «لا ترحل يا حاج إسلام. لا ترحل!».

قال إسلام: «لا أرحل؟ ولماذا أبقى؟ وهل نسيتم أمس؟».

بكى المختار وقال: «عجباً ماذا حدث؟ لماذا لا تقولون لي شيئا؟».

تقدّم إسلام من المختار فعانقه وقبّل جبهته، ثم عاد فتقدم من الجمع دون أن يقول شيئا. تنحّى الحضور من طريقه، فمضى نحو الشارع الرئيسي، والجمع يتابعونه بنظراتهم.

جلس المختار على التراب وقال بصوت مخنوق: «ماذا فعلتم له؟ ماذا فعلتم له؟».

وراحق يشهق بالبكاء. قال مشدي بابا: «أنا لا أعرف. أنا لا أعرف أيّ شيء».

ظهرالكلب باباخ وعنزة إسلام السوداء من الميدان الواقع خلف بيت الحاج صفر. عبرا من بين الحضور وتبعا إسلام لمسافة عدة أمتار، ثم وقفا ينظران إليه. مضى الحصان برأسه المطأطأ نحو شجرة الصفصاف. نظر إلى الأرض بعينيه نصف المغمضتين، ثم أخرج لسانه الضخم الجاف وأخذ يلعق حافة الحجر الأسود.

– ١٦ –

بعد ثلاثة أيام، عند الغروب حيث كان الجوّ غائماً مدلهمًا، كان إسلام يتسكع على أرصفة شوارع المدينة وهو يتأبط مزماره، وهو

يعزف ويغنّي. كان العابرون يفسحون له الطريق، ثم يقفون ويروحون يتأملون هذا الريفي العجوز بقميصه الأسود ومزماره العجيب. يستمتعون غناءه، فيضحكون ويلقون إليه قطع النقود.

كان إسلام ينعطف من شارع لشارع والناس في أثره.

كان الحاج إسلام يعزف المزمار والناس يضحكون.

– ١٧ –

في مستشفى المجاذيب كان ثمة مكان خالٍ. وقميص وسروال لا صاحب لهما ملْقيان على السرير. وكانت قد وضعت أربعة سلاسل وأربعة أقفال تحت السرير من مدة قريبة. من النافذة الصغيرة لم تكن تشرق الشمس. الجوّ غائم، مدلهمّ ورطب. وأشجار الصنوبر الشامخة في باحة المستشفى وقفت دون حراك.

من بعيد، يتناهى إلى الأسماع صوت مزمار وحيد يُعزف، تعقبه ضحكات جمع من الناس، وهو يقترب رويداً رويداً رويداً.

راح حاجب المستشفى يبحث عن مجموعة مفاتيحه على عجل.

كان مطمئن البال، فهو لم يكن ليخطيء أبداً.

– ١٨ –

بعد ثلاثة أيام، وعند الغروب حيث كان الجوّ غائماً مدلهمّاً ورطبا، دخلت الحاجة رقية الحاج حيدر والشابان السيد آباديان – ومعهم حصانان – إلى قرية بيل.

كان مشدي بابا قد أخرج رأسه من الفتحة التي تعلو باب بيته. رآهم يأتون، ويقفون بجوار البركة. لم يظهر ثمة أحد من أهل القرية.

كانت عنزة إسلام السوداء جاثمة أمام النافذة المسدودة بالطين وهي تتناوم.

صاح مشدي بابا: «أيها السيد آباديون، عمّن تبحثون؟»

التفت السيد آباديون ونظروا، ولم يروا مشدي بابا.

اعتمر هذا طاقيته وخرج من بيته. كما خرج في الوقت نفسه بصحبة رجال ونساء. وتجمعوا حول القادمين، اقترب الحصانان من البركة ودلّيا رأسيهما داخلها. ظهر ابن الحاج صفر فناداه الشابان.

قال ابن الحاج صفر: «لماذا جئتم؟».

قال السيد آبادي الأول: «جئنا عند الحاج إسلام».

قال ابن الحاج صفر: «ماذا تريدون منه؟».

قال السيد آبادي الثاني: «نحتاجه في أمر».

أشار ابن الحاج صفر إلى الحاجة رقية، وغمز بعينه وقال هامساً: «تلك تحتاج إليه؟».

التفت الحاجة رقية، فنظرت إليه وقالت: «نعم، أنا أحتاج إليه».

قال مشدي بابا الذي عرف الآن الشخص الذي جاؤوامن أجله: «إن الحاج إسلام ذهب إلى المدينة».

قال الحاج حيدر: «ذهب إلى المدينة؟ ومتى يعود؟».

قال مشدي بابا: «لا أحد يعرف متى يعود. وقد لا يعود أبداً. الله أعلم».

قالت الحاجة رقية: «ألم يقل متى يعود؟».

قال مشدي بابا: «لا أدري. ولا أحد يدري. كل ما نعرفه أنه قد سدّ

بيته بالطين وذهب».

قالت المشهدية رقية للحاج حيدر: «ماذا نفعل؟».

قال مشدي بابا للشابين: «هل حدث شيء؟»

هزّ الشابان كتفيهما ولم يقولا شيئا. مضت الحاجة رقية نحو الحصانين، وضعت يدها على ظهر أحدهما وقالت بصوت مسموع: «لا أدري ماذا أفعل لهما».

عادت فالتفتت نحو بيت إسلام. تقدم مشدي بابا وابن الحاج صفر من الحصانين اللذين ظلّ طليقين، وأخذا ينظران اليهما. كان الحصانان مطرقين برأسيهما كمن يريد أن يتقيّأ، وفم كل منهما نصف مفتوح، ودم غليظ يجيش في حلقيهما، ثم يخرج مختلطاً بالزّبد، فيتساقط قطعا فوق ماء البركة، وتدبّ فيه الحياة، فيبدو مثل ضفادع مختلفة الأحجام انفلتت من ظلمة المجارير الضيّقة، لتنضم إلى المياه الصافية في بحر رحب.

شركة ابوظبي للطباعة والنشر
هاتف: ٧٣٢٨٢٨ – فاكس: ٧٣٢٧٢٥